الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد السابع والثلاثون . السنة الرابعة . فبراير ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات
Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 37 - February 2002

محمد حسنين هيكل

واشنطن تؤذن للجهاد فى كابول!



قراءة جديدة فى «طبائع الاستبداد»
حسن حنفى

الإنترنت فى الزمن الأمريكى
أيمن الصياد

آلة الفكر وفكر الآلة
نبيل على

لصوص لكن ظرفاء فى كاريكاتير العرب
صخر أبو فخر

صورة «الأمريكانى» فى العقل العربى
سلامة أحمد سلامة

محمد عبد الرحمن يونس

القاهرة .. فى حكايات ألف ليلة وليلة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد السابع والثلاثون
فبراير ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- أيمن الصياد .. صحفي.
- حسن حنفي.. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
- حسين الواد .. أستاذ الأدب القديم والمناهج الحديثة، جامعة تونس.
- رشدي سعيد .. أستاذ جيولوجيا مصري مقيم في الولايات المتحدة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- شوقي عقل .. مهندس إنشائي.
- صخر أبو فخر .. كاتب فلسطيني.
- لطيفة سالم .. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية آداب بنها.
- محمد حسنين هيكل .. صحفي.
- محمد عبد الرحمن يونس .. محاضر في جامعة الدراسات الأجنبية في بكين.
- نبيل علي .. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي - محمد حاكم - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري. ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تقرير
إلى قارئ وجهات نظر

رأت هيئة تحرير مجلة «وجهات نظر» أن تخصص افتتاحية العدد الأول للسنة الرابعة من عمر هذه المجلة الشابة لكلمة من الناشر. يلقى خلالها الضوء بعد سنوات ثلاث من صدورها على ما كانت تطمح إلى تحقيقه من أهداف، وما أنجزته من وعود قدمتها إلى القارئ وحرصت على بلوغها، وكانت عند حسن ظن قارئها فيما حققته من نجاح فاق كثيرا من التوقعات.

فرغم تخوفات معظم الزملاء والأصدقاء الذين طرحت عليهم فكرة المجلة قبل صدورها وتوقعاتهم بندرة - إن لم يكن انعدام - وجود قارئ لمثل هذه المجلة.. فقد كان خير تعبير عن هذه التخوفات وهذا الانطباع العام ما كتبه الأستاذ جهاد الخازن في جريدة الحياة اللندنية مهنئا بصدور العدد الأول محييا غناه وتنوعه، داعيًا القراء لسرعة اقتنائه والاحتفاظ به وبالأعداد القليلة التالية التى ستصدر بعده متوقعا أن مثل هذه المحاولة الجادة الرصينة - في رأيه - لا تستمر عادة ولا تعمر طويلا.

وإذا كانت المجلة قد وعدت قارئها في العدد الأول بمجلة مختلفة لقارئ مختلف.

- تحمل في سطورها أفكار العالم بحروف عربية.
- يقتنيها مرة في الشهر ليقرأها ويقرأ فيها طوال الشهر.
- تقدم لقارئها أحدث وأهم الكتب والمنشورات والتقارير في مجالات متنوعة بين الثقافة والسياسة والفكر.
- أن تجرب النفاذ من خلال ما هو منشور في الكتب والتقارير وغيرها إلى محيط أوسع يفيد في التعرف على أحوال الحاضر وتصورات المستقبل.
- أن تحاول أن تكون جسرًا بين الثقافات وعبر القارات وأن تفتح ما تستطيع من نوافذ مطلة على مراكز الفكر والنشر على اتساع العالم.
- أن تحتفل وتحتفى بوجهات النظر، على اختلافها وتنوعها وغناها.. ولا تكرس لوجهة نظر واحدة، ولا حتى لوجهتى نظر متقابلتين فقط، بل لوجهات عديدة مختلفة للنظر تعبر



العدد الأول.. السنة الأولى

بالضرورة عن رأى أصحابها، إلا إذا اقتضت الظروف أن يكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف توقع في هذه الحالة المقال باسمها..

وإذا كان هذا ما التزمت به المجلة وخططت له فقد يكون من المناسب أن يضع الناشر تحت أنظار القارئ العزيز تقريرا مفصلا عن أحوالها، وما انتهت إليه رحلتها عبر ثلاث سنوات:

- لقد أصدرت المجلة ٣٦ عددًا لو حولت إلى مقاس الكتاب لعادلت موسوعة من العلوم والمعارف في أكثر من ٢٥٠٠٠ صفحة من القطع الكبير..
- عرضت المجلة فيها حوالى ٣١٠٠ كتاب عربى وأجنبى، ٢٠٠ منها عرض مطول و٥٤٠ عروضا موجزة وحوالى ٢٣٦٠ فى عروض قصيرة.. بمعدل حوالى ٨٦ كتابًا فى العدد الواحد و١٠٣٣ كتابا فى العام.
- تحقق ذلك من خلال ما يقرب من ٥٠٠ مقالة حفلت بها سطور المجلة وتوزعت كالتالى:

٤٠،٥٪ علوم اجتماعية.

(٢٨٪ منها سياسة وفكر. ١٢،٥٪ اقتصاد وعلوم اجتماعية).

٢٧٪ فى الآداب والفنون.

(١٥٪ فى الأدب و١٢٪ فى الفن).

٢١٪ فى التاريخ والمذكرات والسير.

(١٣٪ فى التاريخ و٨٪ فى المذكرات والسير).

٧،٥٪ فى العلوم.

٤٪ متنوعات مختلفة.

- شارك فى كتابتها وتحريرها أكثر من ٢٥٠ كاتبًا ومفكرًا وأستاذًا منهم ٦٤ كاتبا أجنبيا و١٨٦ كاتبا عربيا ومصريا.

ولعل هذا التوزيع والتنوع يلقى ضوءًا كاشفا على ما قدمته المجلة حتى الآن، وينير الطريق أمامها فى التخطيط للمستقبل خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أمامنا وأمام القارئ العزيز ما يلى:

١ - إن مجمل الرغبات التى تصل إلى المجلة - والتى تعكس اهتمامات عدد من القراء المتابعين والذين وجدوا عندهم الوقت ليتصلوا، والأمل ليطلبوا - تتلخص فى:

(أ) أن تزيد عدد عروض الكتب القصيرة.

(ب) أن تزيد مساحة عروض الكتب الموجزة وتطور طرق العرض لو أمكن.

(جـ) أن تزيد المساحة المخصصة للعلوم وفتوحات الطب والتكنولوجيا.

(د) أن تزيد المساحة المخصصة لتحليل وملاحقة ما يضطرب به العالم من حولنا.. ويصطخب به عالمنا العربى من أهوال وأحداث وتطورات، والغريب أن الطلب على زيادة متابعة الأحداث السياسية هو الأكثر حجمًا وإلحاحا..

٢ - المقارنة بين اهتمامات المجلة والتحليل الموضوعى لما نشرته وعلاقة ذلك بما ينشر عربيا وعالميًا..

وهنا يقفز للذاكرة ما زخرت به العديد من المقالات التى نشرت فى كبريات الصحف والمجلات الأمريكية محللة لواقع الفجوة والاختلاف الثقافى بين الغرب وبين العالم العربى مدعية أن أحد أبرز شواهده أن مصر - وهى المركز الثقافى الأكبر فى العالم العربى والتى يزيد عدد

سكانها على ٦٥ مليون نسمة لا تصدر أكثر من ٢٧٥ عنوانا جديدا في السنة!! بينما تصدر إسرائيل وحدها ٤٠٠٠ عنوان جديدًا في السنة!! والواقع أن ما ادعوه بعيد كل البعد عن الحقيقة.

ففي مصر تشير الدراسة التي أجراها الدكتور شعبان خليفة - شيخ المكتبيين المصريين والعرب - من واقع أرقام دار الكتب المصرية وقوائم دور النشر المعلنة معا، إلى أن إجمالي عدد العناوين الصادرة عام ٢٠٠١ بلغت ٩٧٤٥ عنوانا - ولا يشمل هذا الرقم عددًا كبيرًا من الكتب المدرسية الخارجية ومن الكتيبات القبطية - منها ٨٩٧٥ عنوانا باللغة العربية و٧٧٠ عنوانا بلغات أخرى.. ومنها حوالي ٦٣١٠ عناوين جديدة وحوالي ٣٤٣٥ عنوانا إعادة طباعة.. وأن التحليل الموضوعي لهذه الكتب يوزعها كالتالي:

٢٥٪ علوم اجتماعية (سياسة واقتصاد وقانون وخدمة اجتماعية.. إلخ).
٢٢٪ ديانات.
١٧٪ آداب (٧٥٪ منها نصوص حديثة وتراثية، ٢٥٪ منها دراسات).
١٠٪ جغرافيا وتاريخ وتراجم.
٩ ٪ علوم تطبيقية.
٦ ٪ علوم بحتة.
٤ ٪ فلسفة وعلم نفس.
٣ ٪ فنون.
٢ ٪ لغات.
١ ٪ معارف عامة.

وتتوزع فئات هذه الكتب بالنسب الآتية:

٤٠٪ كتب ثقافة عامة بما فيها الكتب الجامعية.
٣٥٪ كتب مدرسية (رسمية وخارجية مساعدة).
١٥٪ مطبوعات حكومية.
١٠٪ كتب أطفال.

ويقدر حجم الكتب الصادرة في مصر بحوالي ٣٣٪ من إجمالي الكتب الصادرة في كل الدول العربية.. وإن اختلفت التقسيمات والفئات حتى أن نسبة الكتاب المدرسي تصل في بعض الدول العربية إلى ٩٠٪ أو يزيد، ليس ذلك اهتمامًا بالتعليم وإنما لقلة عدد الكتب الثقافية العامة وندرتها.



العدد الأول.. السنة الثانية

وإذا كان هذا هو التحليل التقديري التقريبي لما يصدر في مصر.. فكيف هي الصورة في العالم بصفة عامة؟

تشير أرقام اليونسكو واتحاد الناشرين الدولي إلى أن العالم يصدر فيه سنويا حوالي مليون وربع المليون عنوان جديد وحوالي نصف المليون دورية مطبوعة، وحوالي خمسة ملايين تقرير علمي وفني، وحوالي ربع المليون رسالة ماجستير ودكتوراه وربع المليون كتاب ودورية إليكترونية..

ويشير التحليل الموضوعي لإجمالي الكتب الصادرة عالميًا للمتوسطات التالية:

٤٠٪ علوم اجتماعية.
١٥٪ آداب.
١٢٪ علوم بحتة وتطبيقية.
١٠٪ تاريخ وجغرافيا.
٧ ٪ ديانات.
٥ ٪ فلسفة وعلم نفس.
٤ ٪ فنون.
٦ ٪ باقي المعارف العامة واللغات.

ويفيد التحليل الفئوي المقارن بأن الكتب الصادرة عالميا توزع إجماليا كالتالي:

٧٠٪ كتب ثقافية عامة. مقابل ٤٠٪ في مصر.
٢٠٪ كتب مدرسية. مقابل ٣٥٪ في مصر.
٥ ٪ كتب أطفال. مقابل ١٠٪ في مصر.
٥ ٪ كتب حكومية. مقابل ١٥٪ في مصر.

هذا عن التنوع والتصنيف الموضوعي للكتب في مصر والعالم أما عن محتوى مقالات المجلة وقيمتها.. فلابد أن نسجل أن المجلة ومقالاتها المتميزة - منذ أعدادها الأولى - حظيت باهتمام وتقدير بالغين من القراء وأوساط الصحافة..

ونقل عنها أكثر من مرة في الصفحات الأولى؛ مما أثمر الاتفاق الرائد في الصحافة العربية التي منحت بموجبه «وجهات نظر» لكل من جريدتي «الخليج» الإماراتية، و«السفير» اللبنانية حق نشر مقالاتها بالكامل بالتزامن مع نشرها في مجلتنا في سابقة جسدها اتفاق يصون حقوق الملكية الفكرية.. نرجو أن يكون بداية لتقليد يتبع في دنيا الصحافة والنشر في عالمنا العربي..

وغني عن البيان أن هذا الاتفاق - أيضًا - يمثل نجاحا ملحوظا لهذه المجلة الثقافية العربية التي تصدر في القاهرة في إثارة اهتمام القارئ العربي بدرجة تؤكد وحدة وانسجام المزاج الثقافي.. في المحيط العربي على اتساعه.

ولابد من الإشارة أن نظرة فاحصة إلى خريطة توزيع المجلة وتصديرها قد تدعو إلى تسجيل تحفظ محزن كبداية، لأن له تأثيره على اكتمال الصورة وشمول المقارنة.. وهو أن المجلة حتى الآن لم يتيسر دخولها إلى أقطار عربية عزيزة هي الجزائر - تونس - ليبيا - السودان - المملكة العربية السعودية - والعراق.. وكلنا أمل أن يتم ذلك قريبا.

- تحتل مصر - وهذا أمر طبيعي - النسبة الأكبر بين الدول في الكميات الموزعة... وتتوزع نسب التوزيع داخل مصر كالتالي:

٥٧٪ القاهرة - ١٨٪ الإسكندرية - ١٩٪ محافظات وجه بحري - ٦٪ محافظات وجه قبلي.

- مراكز التوزيع الرئيسية داخل القاهرة تتوزع بالترتيب التالي: ٢٢٪ مصر الجديدة ومدينة

تقرير إلى قارئ وجهات نظر

نصر. ٢٠٪ المهندسين والدقى وإمبابة. ١١٪ الفلكى والدواوين. ٨٪ منطقة وسط القاهرة. ٦٪ الزمالك. ٦٪ المعادى وما حولها، ٦٪ الجيزة والروضة ثم تتوزع باقى الكمية على باقى مناطق القاهرة الكبرى. على أن الملاحظ أن التوزيع فى منطقة كمصر الجديدة ومدينة نصر يزيد قليلاً على التوزيع فى محافظة الإسكندرية.. وعلى التوزيع فى كثير من الدول العربية كل على حدة!!

ورغم أرقام وحقائق التوزيع هذه.. ورغم ما يبذل من جهد للوصول بالمجلة لكل نقاط التوزيع فى مصر والعالم العربى ومتابعتها، إلا أن الشكوى مازالت متزايدة من صعوبة الحصول عليها أحيانا، خاصة فى الدول العربية والأجنبية وفى المدن المصرية البعيدة عن القاهرة والإسكندرية، كما تتكرر الشكوى من نفاد كمياتها بسرعة من بعض مناطق التوزيع.. مما يشير إلى أهمية اعتياد القارئ العربى، على الاشتراك فيما يحب من مجلات، الأمر المعتاد عالميا فى مثل هذه النوعية من المجلات وهو ما لم يتعود عليه القراء العرب بعد.. والمجلة تطمع فى إقناع قارئها باستخدام هذه القناة الميسرة.. أى عن طريق الاشتراكات.. أو أى طريقة أخرى تيسر وصولها لأعداد أكبر من المهتمين وإعلامهم بها.

كما أن المجلة تتوجه إلى قارئها العزيز لإبداء الرأى فى موضوعاتها التى أفردنا تفاصيلها وتوزيعاتها، لكى يسهم برأيه فى خطط التطوير المستقبلية.

وإذا كانت «وجهات نظر» قد نجحت فى أن تستكتب هذا العدد الكبير والمتنوع من الكتاب المصريين والعرب والأجانب فإنها مازالت تأمل فى استقطاب عدد أكبر من كل الدول العربية ومن تخصصات مختلفة.. ليكتبوا فى تخصصاتهم وفى غيرها.. آملة فى اعتبار هذه دعوة مفتوحة للإسهام فى تحرير المجلة خاصة



العدد الأول.. السنة الثالثة

بأقلام المثقفين والمتخصصين الذين لم تتح لهم فرص النشر قبل ذلك.

لقد سعت المجلة من خلال ما يقدمه أصدقائها إلى إدخال أحدث الفنون الصحفية فى أساليب المقالة والتحليل والرأى. وكان من أهم ما تميزت به «وجهات نظر» ذلك التجديد الذى أدخله «محمد حسنين هيكل» فى الصحافة العربية وهو أسلوب المقال «المسترسل» أو «المستطرد»، وهو نوع من المقال جديد على الصحافة العربية ينتقل فيه الكاتب من كليات المسائل إلى تفاصيلها ويربط بين الحوادث الكبرى الموجهة للتاريخ وبين النزعات الإنسانية للبشر، وفهم مادة التاريخ.. إنه مكان وسط بين المقال المألوف وبين الكتاب، فهو أطول من المقال وأقصر من الكتاب وهدفه أن يمسك بموضوع معين يستوفيه.

يبقى علىّ من موقعى كناشر لـ«وجهات نظر» أن أشيد بهيئة تحرير المجلة وعلى رأسها الأستاذ سلامة أحمد سلامة رئيس التحرير وأتقدم لهم جميعا بكل التقدير على ما بذلوه.. وما قدموه وحققوه، وأن أستسمحهم فى أن أجيب عن تساؤلات العديد من القراء فأذكر لهم أن الذى يكتب الافتتاحية هو الأستاذ أيمن الصياد، وأن الذى يعد العروض الموجزة هو الأستاذ عماد الغزالى والأستاذة هديل غنيم والأستاذ عبدالله عبدالسلام، وأن أشيد للجهد المتميز والإخراج الفريد الذى يقدمه رئيس التحرير الفنى الأستاذ حلمى التونى ومجموعة الفنانين المتميزين بلوحاتهم ورسومهم.. محمد حجى ونبيل تاج وسعد الدين شحاته ومحمد حاكم.. الذين أسهموا إسهاما كبيرا فى بناء صورة المجلة وجمالياتها، وهى صورة لا تكتمل إلا بذكر جهد وفن عشاق المجلة فى مطابع الشروق واحتمال العاملين فيها بنفس راضية لكل المتاعب التى يفرضها إصدار مجلة «وجهات نظر» بأكبر قدر من الإتقان والمسئولية وعلى رأس هؤلاء المهندس أحمد علام ومساعده شريف المعلم.. وكذلك العاملين بالكمبيوتر والمراجعة والتجهيزات الفنية.. ثم دينامو المجلة تحريرًا وإخراجًا وطباعة الأستاذ أحمد الزيادى.

وتدل المؤشرات المبدئية لتحليل نوعية القراء المهتمين بالمجلة فى مصر لأمرين جديرين بالملاحظة والتأمل، أولهما: أن اهتمام النساء والشباب أكثر مما توقعنا ومن المعتاد.

وثانيهما: أن نسبة القراء أكثر ارتفاعًا بين الأطباء والمهندسين ورجال القضاء والسلك الدبلوماسى..

وهو ما يطرح تساؤلا جادا ومهما حول تعريف من هم «المثقفون»؟ وهل يصح لمجموعة أو فئة أو مهنة ما أن تنفرد بإطلاق هذه الصفة على نفسها؟ غير أن هذا حديث يطول، ولكنه يشير فى الوقت نفسه إلى أن فئة المثقفين تتسع لأنواع وأنماط عديدة فى عالم تتسع معارفه وتتنوع يوما بعد يوم.

وكل ما تطمح إليه مجلة «وجهات نظر» هو أن تكون قادرة على مواكبة ما يطرأ على فنون المعرفة والثقافة من تقدم واتساع لتشبع اهتمامات أوسع دائرة للمثقفين فى العالم العربى.

إبراهيم المعلم

محمد حسنين هيكل



دفاتر أزمة!

«الدفتر الثانى»

واشنطن تؤذن

■ فى يوم قادم مع المستقبل سوف تقف الأمة العربية محاسبة، تطلب التحقيق فى شأن السياسات التى ساقتها إلى تلك المغامرة على جبال أفغانستان وفى أعماق كهوفها. ومع أنى تابعت معظم فصول ومشاهد هذه المغامرة، فإنى أوثر الآن أن أترك روايتها لغيرى، طلبًا لأقصى قدر متاح من الموضوعية، ذلك أنه عندما يتحدث طرف من الأطراف عن مسألة له فيها وجهة نظر، فالخشية دائما أن وجهة نظره تنعكس على رؤيته، وبالتالى على روايته!

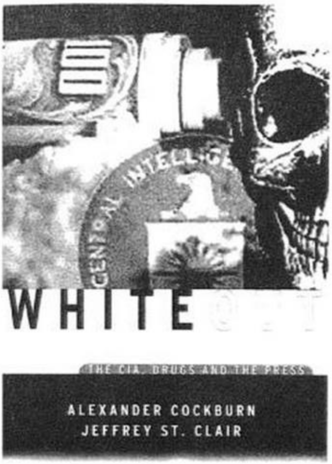
ومن حسن الحظ أن هناك وفرة فى المصادر الدولية التى تعرضت بالتقصى والبحث فى دخائل وخفايا ما جرى على جبال أفغانستان وفى كهوفها وضمنه دور السياسة العربية هناك. وكذلك اخترت أن أستند فى هذا الحديث على ثلاثة مصادر ـ بين عشرات غيرها ـ أعرف أن وراءها جهدا «دءوبا» وصلات وثيقة، ومصداقية تقنع أى باحث عن الحقيقة بأنه وجد جوابا لسؤاله ـ كى يبدأ من هنا حقه العام أن يعرف وأن يتخذ لنفسه ولو بالضمير موقفا!

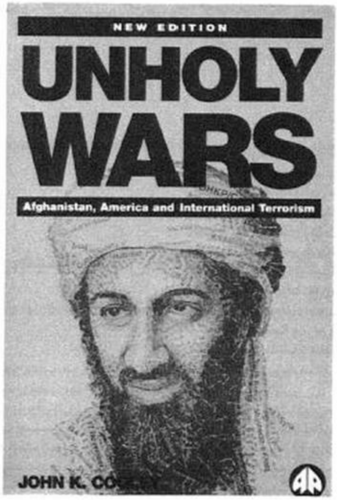
والمصادر التى اخترتها عمادا لهذا الحديث ثلاثة كتب:

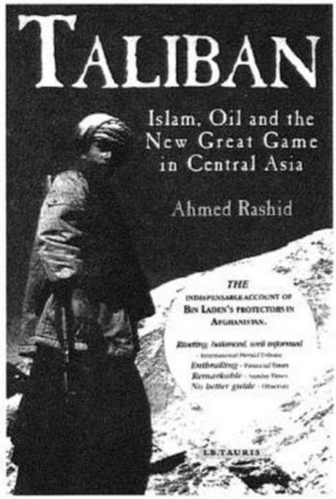
١. كتاب «طالبان: الإسلام والنفط والصراع الكبير فى وسط آسيا» ومؤلفه عميد الصحفيين الباكستانيين «أحمد رشيد»، وقد ظهر هذا الكتاب ونشر فى لندن لأول مرة سنة ٢٠٠٠، ثم أعيد نشره من جديد ثلاث طبعات سنة ٢٠٠١ (وأعرف أن هذا الكتاب كان أمام الرئيس الأمريكى جورج بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير فى نفس الوقت من أواخر شهر سبتمبر الماضى).

٢. كتاب: «الحروب غير المقدسة: أفغانستان، أمريكا، والإرهاب الدولى»، ومؤلفه الصحفى الأمريكى المخضرم «جون كولى» الذى قام بتغطية منطقة الشرق الأوسط سنوات طويلة لكبرى وكالات الأنباء الأمريكية ABC، وقد نشر الكتاب لأول مرة عام ١٩٩٩، وأعيدت طباعته مرة ثانية سنة ٢٠٠٠، ومرة ثالثة سنة ٢٠٠١.

٣. كتاب: «غسيل الواقع» (وتلك هى الترجمة الأقرب إلى معنى العنوان الإنجليزى White Out)، والسطر الثانى من هذا العنوان هو: «وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والمخدرات والصحافة»، وقد اشترك فى تأليف الكتاب اثنان من نجوم التحقيق بالعمق، أولهما «الكسندر كوكبيرن» وهو الآن محرر مجلة «ذى نيشن»، وكاتب مجموعة من أكثر الكتب رواجا. والثانى «جيفرى سان كلير» وهو صحفى مشهود له فى متابعة نشاط أجهزة المخابرات الدولية ـ وقد نشر الكتاب عام ١٩٩٨ فى لندن، وكانت هناك جهود مُلِحَّة نجحت فيما سعت له، ولم يطبع الكتاب فى نيويورك كما كان مقدرا. ■







للجهاد فى كابول!

الورقة الأولى:

التحالف ضد «الإلحاد» وأطرافه الأربعة!

تتفق الكتب الثلاثة - وعشرات من المصادر غيرها - على مجموعة من الحقائق الأساسية - تتصل بإدارة الولايات المتحدة لحربها الباردة ضد الاتحاد السوفيتي (وهى الحرب التى بدأت أول الخمسينيات من القرن العشرين، واستراتيجيتها إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار، وخطف العقائد والأديان واستخدامها ضد الخصم الشيوعى الأخطر) - وهذه المجموعة من الحقائق الأساسية تظهر فى مصادرها مترابطة ومتكاملة:

١- أن المخابرات المركزية الأمريكية متعاونة مع المخابرات العسكرية الباكستانية، سبقت إلى إدارة عمليات «حرب نفسية»، هدفها إثارة المشاعر المعادية للاتحاد السوفيتى داخل جمهورياته الجنوبية وفيها غالبية إسلامية، مستغلة فى ذلك فجوة أو جفوة طبيعية بين النظام السوفيتي «المادى» فى فلسفته، وبين الإسلام «الروحانى» فى مبادئه، وبالطبع فإن دافع المخابرات الأمريكية لم يكن «الحرص علي الدعوة أو صدق الإيمان»، وإنما «إقلاق وإزعاج» الاتحاد السوفيتى فى أكثر المواقع إثارة للمواجع!

٢- أن استعمال افغانستان قاعدة لإدارة وتوجيه عمليات إقلاق وإزعاج الاتحاد السوفيتى، بدأ على استحياء أوائل الخمسينيات، واشتد فى الستينيات، وبلغ الذروة أواخر السبعينيات - حين أصبح هدف مجلس الأمن القومى الأمريكى وعلى رأسه فى ذلك الوقت «زبجنيو برجينسكى» (مستشار الرئيس كارتر للأمن القومى) - استفزاز الاتحاد السوفيتى بتصعيد النشاط المعادى له فى أفغانستان من المستوى النفسى إلى المستوى العملى والوصول فى ذلك إلى درجة ترغمه - ولو كارها - على التدخل عسكريا فى افغانستان، فإذا تحقق ذلك فهذه هى الفرصة لتحويل ذلك البلد إلى فيتنام سوفيتية تؤثر عليه بمقدار ما أثرت فيتنام الأمريكية على أصحابها!

٣- وكان تقدير «برجينسكى» - كما عرضه على الرئيس جيمى كارتر (وبالاعتماد على روايات كارتر وبرجينسكى قبل أى مصدر غيرهما) - أن الولايات المتحدة لا يصح لها أن تظهر علانية فى أفغانستان (عندما تتحول إلى فيتنام سوفيتية)، وإنما الأفضل أن تظل بعيدة بمسافة كافية، وأن تترك المعركة للمسلمين يخوضونها باسم «الجهاد الإسلامى» ضد «الإلحاد المادى». وأهم من ذلك يتكفلون بتمويلها لأن العبء أثقل مما تستطيع وكالة المخابرات المركزية أن تُحمِّله على ميزانيتها، كما أنه أكبر مما يقبل به الكونجرس فى الموافقة على اعتمادات لعملية سرية تقدم إليه «مستقلة لوحدها»، زيادة على ذلك فإن الذهاب إلى «لجنة الأمن» (المتفرعة من لجنة الشئون الخارجية) لطلب الموافقة على مبالغ بهذا الحجم يؤدى إلى كشف العملية (لأن الكونجرس «مبنى من الفخار»، ما فيه يرشح خارجه)، وذلك يحرج السياسة الأمريكية، والإحراج فى مثل هذه الحالة خطر؛ لأنه قد يؤدى لتعقيدات دولية من الأفضل تجنبها!

وكان معنى ذلك فى تقدير «برجينسكى» (كما عرضه فى مذكرة للرئيس «جيمى كارتر»):

- أن الولايات المتحدة لابد لها من ترتيب يُمَكِّنها من «العمل على الأرض»، والصرف على العمل وإدارته تحت إشرافها، دون أن يظهر دليل يثبت عليها شيئا تتورط بسببه فيما لا ضرورة له!

- يتداعى من ذلك أن الولايات المتحدة وهى تخوض معركة استنزاف الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان بـ: «سلاح الجهاد»، عليها أن تجد «وكالة إسلامية» معتمدة تحمل المسئولية على الأرض - وتدفع تكاليف العمل - وتتلقى التوجيهات بشأن خططه وتوقيتاتها من الأجهزة الأمريكية المعنية.

ومع أن هذه المواصفات لما هو مطلوب أمريكيا فى أفغانستان بدت شبه المستحيل فى معادلاتها - فإن «برجينسكى» عرض تصورات رآها قادرة على شبه المستحيل!

- وقد كان فى حسابات «برجينسكى» أن «الوكالة الإسلامية الجهادية» المرغوب فيها والمطلوبة بمواصفاتها قائمة بالفعل وعاملة فى الواقع، وكل ما يلزمها الآن: إثارة همتها، وتطوير وسائلها، وتنشيط خططها وتركيز فعلها وتعبئته فى إطار «جهاد إسلامى» صريح ومُعلن ضد الاتحاد السوفيتى «الذى اعتدى على ديار الإسلام»!

الـورقـــــة الـثـــــانـيـــــة:

توزيع الأدوار فى سيناريو «برجينسكى»

وتجمع الكتب الثلاثة التي يستند إليها هذا الحديث - على أن «برجينسكي» خطا بعد ذلك خطوة في عرض تصوراته على الرئيس «كارتر» وعلى مجلس الأمن القومي في البيت الابيض فتقدم باقتراح لتوزيع مسئوليات «الجهاد الإسلامي» المُبتَغى في مرحلة جديدة على أدوار رئيسية ثلاثة:

● أولا: دور لـ: باكستان تصبح به «دولة الإسلام الأنقى» قاعدة للعمليات في أفغانستان كما كانت باكستان في مرحلة سابقة قاعدة للعمليات عبر أفغانستان (جسرا إلى الجمهوريات السوفيتية الجنوبية).

وكان تقدير «برجينسكي» أن «إسلام آباد» مهيأة نفسيا وسياسيا لتطوير عملها في أفغانستان. فهناك مصالح قامت بالفعل وترسخت خلال المرحلة السابقة من العمل في الجمهوريات الجنوبية للاتحاد السوفيتي. وهناك دواع سياسية تغري باكستان بقبول مسئوليتها في «العمل الجهادي» داخل أفغانستان إذا ضمنت تأييدا إسلاميا أوسع يلتف حولها. والجيش الباكستاني - وهو السلطة الأقوى في «دولة الإسلام الأنقى» - متحفز. وحتى إذا قامت في «إسلام آباد» حكومة مدنية ترى في قضية «الجهاد» رأيا آخر، فإن المخابرات العسكرية الباكستانية لا تعتبر نفسها ملزمة بطاعة ساسة «إسلام آباد» لأن رأيها فيهم بالغ السوء من كثرة ما تعرفه عن دخائلهم. وإذن فإن تعاون المخابرات العسكرية في باكستان على هذا الأساس مضمون، وذلك المطلوب الأهم.

● ثانيا: دور للمملكة العربية السعودية تصطف به المملكة وراء باكستان مباشرة وكان تقدير «برجينسكي» أن الرياض جاهزة بدليل أن المملكة ساعدت من قبل - ولا تزال تساعد - في عملية إحراج السوفييت عبر أفغانستان. فإذا أصبح الإحراج «جهادا إسلاميا» داخل أفغانستان ذاتها، فإن المملكة سوف تكون أكثر من مستعدة، خصوصا أن الرياض مهتمة بدور متميز في قيادة العالمين العربي والإسلامي؛ لأن غياب مصر - بعد صلحها مع إسرائيل - ترك الساحة العربية خالية - وبالتالي مهيأة لدور تستطيع المملكة أن تقوم به. فإذا جمعته إلى دورها القيادي في منظمة المؤتمر الإسلامي وزادت عليه وضعها داخل منظمة الدول المصدرة للبترول الأوبك - فقد أصبحت المملكة رسميا وفعليا دولة الرجاء والأمل - عربيا وإسلاميا. فإذا اضافت الرياض إلى هذه القائمة دعوة جهاد مقدس ضد الإلحاد، فإن ذلك يوفر لها ظروفا مثالية؛ لأنه يعطيها القيادة العربية الإسلامية دون أن يفرض عليها بالضرورة أن تتحمل بمسئولية المواجهة مع إسرائيل، وهي مسئولية تخشاها وتحاذر يوما أن تجد نفسها وجها لوجه أمامها. وفي ظروف عادية فقد كان شبه مؤكد - إذا أصبحت المملكة هي القيادة المُعترف بها في العالم العربي والإسلامي - أنه سوف يقع استدعاؤها بهذه الصفة إلى فلسطين. لكنها حين تستبق استدعاء فلسطين بدعوة إلى أفغانستان جهادا من أجل الإسلام - فإنها بذلك تضع نفسها في موقف إسلامي يصعب على أحد أن يطلب منها زيادة عليه.

وكذلك كان تقدير برجينسكي، أن السعودية سوف تتحمس.

● وثالثا: دور لمصر على أساس أن الرئيس «أنور السادات» يمكن إقناعه - أن «يتعاون» حتى يقوى عزيمة باكستان (المنقسمة على نفسها)، ويطمئن وساوس السعودية (وهي حاضرة كل وقت)، وكان ظن «برجينسكي» أن الرئيس السادات تواق إلى إرضاء الولايات المتحدة التي تملك في حساباته المُعلَنة ٩٩٪ من أوراق حل قضية الشرق الأوسط، وهو بمشاعره كاره للسوفييت ومنغمس بالفعل في نشاط معاد لهم في أفريقيا ضمن التنظيم الذي اقترحه الكونت «ألكسندر دي ميرانش» الرئيس الأسطوري للمخابرات الفرنسية وأُطلِقَ عليه وصف «نادي السفاري» (وذلك التنظيم يضم كلا من السعودية وإيران والمغرب ومصر) ويقوم بالفعل بنشاط معاد للسوفييت في القرن الأفريقي - (وأيضا في غرب أفريقيا - أنجولا والكونجو).

والراجح - وذلك تقدير «برجينسكي» - أن السياسة المصرية النشيطة ضد السوفييت في أفريقيا لن تجد مانعا من تحويل نشاطها أو جزءً منه إلى أفغانستان، خصوصا أن الرئيس السادات بذلك يسابق الثورة الإسلامية في إيران وهو لا يغفر لها انها أسْقطت حكم صديقه الشاه «محمد رضا بهلوي» (وفقا لما يقوله ويعلنه)!

وطبقا لكتاب «الحروب غير المقدسة» (صفحة ٣١)، فإن «زبجنيو برجينسكي» مستشار الرئيس الأمريكي «جيمي كارتر» لشئون الأمن القومي كان جالسا أمام الرئيس السادات يوم ٣ يناير ١٩٨٠، ينقل له رسالة من «جيمي كارتر» تدعو «مصر الإسلامية» أن تقوم بدور في «جهاد إسلامي» ضد الإلحاد السوفيتي الذي غزا بجيوشه بلدا إسلاميا.

وطبقا لتعبير «برجينسكي» فإن الدعوة التي حملها للرئيس المصري طلبت إليه أن «يدخل في الفريق» الجهادي الإسلامي في أفغانستان (Join The Team)، وكانت الحجج التي عرضها لإقناع الرئيس السادات:

١- «أن مصر بمكانتها الخاصة في العالم الإسلامي مؤهلة لدور في الدفاع عن العقيدة الإسلامية»!

٢- «أنه لا يصح ترك «شعارات الإسلام العظيمة» يحتكرها «آية الله الخميني» لنفسه أو للإسلام الشيعي»!

٣- «أن دخول مصر في هذا «العمل الجهادي» يعطي الرئيس السادات نفوذا أوسع في المنطقة إزاء أطراف عربية تعارض سياسته في السلام مع إسرائيل، ومنها سوريا والعراق وليبيا».

٤- «أن قيام الرئيس السادات بدور في «الجهاد الإسلامي» يرد بشدة على أولئك الذين يتهمونه «بالتفريط» في فلسطين، ويهيئ له قاعدة إسلامية أوسع من «الحيز المحدود» لدول الجامعة العربية».

٥- «أن مصر تملك مؤهلات تيسر لها العمل في أفغانستان بينها انها بلد الأزهر الذي يقبل المسلمون مرجعيته، كما أنها موطن جماعة الإخوان المسلمين التي تأثرت بها أو تفرعت منها جماعات إسلامية عاملة في باكستان وأفغانستان، والرئيس السادات كرئيس لمصر يملك سلطانا على الأزهر، وكسياسي فهو يحتفظ بعلاقات طيبة مع بعض زعماء الإخوان، وبرغم حساسيات (يعرف بها برجينسكي)، فإن ميدان الجهاد الإسلامي يستطيع جمع السلطة المصرية، والأزهر، والإخوان المسلمين على عمل مشترك يواجه شرور الإلحاد من ناحية، ومن ناحية أخرى تذوب به حساسيات - مع الإسلام السياسي - مترسبة من ظروف سابقة أو تلين معه مفاصل في العلاقات بين الطرفين متصلبة - في الوقت الراهن»!

٦- «أن مصر لن تتكلف شيئا لأن الولايات المتحدة سوف تنشئ صندوقا خاصا للجهاد في أفغانستان تشارك بنفسها في تمويله وتدعو للمشاركة عددا من دول الخليج، أولها المملكة العربية السعودية. وهو يحمل رسالة حول هذا الموضوع من الرئيس «كارتر» إلى الملك والأمراء في السعودية، وهو (برجينسكي) على ثقة بان المملكة سوف تستجيب سياسيا وماليا»!

٧- «أن مصر تستطيع أن تستفيد «بأكثر من أجر الجهاد وثوابه»: لأن الجهاد في أفغانستان يضمن عقودا سخية للصناعات العسكرية المصرية؛ لأن ذلك الجهاد - بالذات! - يلزمه سلاح سوفيتي الصنع والنوع».

(وكان «برجينسكي» يقصد بذلك إغراء الرئيس «السادات» بأن «الجهاد الإسلامي» سوف يحتاج أن يشتري من مصر أسلحة سوفيتية الصنع لم تعد تريدها، أو أسلحة سوفيتية النوع - قامت بتصنيعها في منشآتها (الصناعات الحربية)، ولا تجد



كان تقدير «برجينسكى»:
أن السياسة المصرية النشيطة ضد السوفييت
في أفريقيا لن تجد مانعا من تحويل نشاطها أو جزء
منه إلى أفغانستان، خصوصا أن الرئيس السادات
بذلك يسابق الثورة الإسلامية في إيران
وهو لا يغفر لها أنها أسقطت حكم
صديقه الشاه «محمد رضا بهلوى»

مشتريا لها، لأن المنطقة تشهد تحولا ظاهرا إلى الأسلحة الأمريكية!)

٨ـ وكان الختام فى حجج «برجينسكى» كالمعتاد «أن مشاركة مصر فى «الجهاد الإسلامى» ضد الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان تساعد الرئيس «كارتر» على مواجهة أصدقاء إسرائيل فى الكونجرس ـ لأنها ترد على دعايات يقوم بها «مناحم بيجن» (رئيس وزراء إسرائيل وقتها) تزعم «أن مصر ليست صديقا للولايات المتحدة إلا بمقدار ما تريد منها أن تضغط على إسرائيل» وتلك حجة سوف تبطل عندما يظهر أن مصر على رأس التصدى الإسلامى للسوفييت فى أفغانستان».

وتجمع الكتب الثلاثة (وغيرها من المصادر وضمنها مذكرات برجينسكى نفسه) أن «برجينسكى» خرج من مصر متوجها إلى السعودية وقد وجد نفسه رسولا مكلفا من الرئيس «السادات» (أيضا)، إلى جانب تكليفه من الرئيس «كارتر»، لأن الرئيس المصرى خوله إبلاغ الملك وولى العهد ووزير الدفاع فى السعودية عندما يلقاهم أن ينقل إليهم رسالة إضافية منه مؤداها أنه «جاهز ومستعد للعمل، والتعاون معهم (اليوم قبل غد) فى عمل جهادى ضد الإلحاد!

....

....

[ومن مفارقات السياسة المصرية أن أحد الرجال الظاهرين فى صفوف ثوار ٢٣ يوليو وهو السيد «مجدى حسنين» الذى أشرف على أول مشروع كبير لاستصلاح أراضى الصحراء فى مصر باسم مديرية التحرير ـ وقد أصبح بعد ذلك سفيرا فى تشيكوسلوفاكيا ـ بعث إلى «جمال عبد الناصر» مذكرة شهيرة حول الفوائد المحتملة «للإلحاد فى العالم الشيوعى»!

وكان رأى «مجدى حسنين» فى مذكرة بخط يده إلى «جمال عبد الناصر»: «أن وجود الاتحاد السوفيتى (وبقية حلفائه) بغير دين ـ أى ملحدين ـ باب مفتوح لدعوة تقنعهم بالإسلام، باعتبار أن وجودهم بلا دين يجعلهم أكثر تقبلا من آخرين لهم دين ورثوه ويتمسكون به. وكانت رؤية «مجدى حسنين»، أن «الإلحاد الشيوعى» «منطقة محايدة» إيمانيا، وبالتالى فإن الدعوة للإسلام فيها ممكنة.

وفى ختام مذكرته، قال «مجدى حسنين»: «تصور يا سيادة الرئيس لو أن الاتحاد السوفيتى والصين وشعوب الكتلة الشرقية دخلت الإسلام ـ وقتها لن تصبح إسرائيل مشكلة ولا حتى أمريكا وبريطانيا»!

وقد قرأ «جمال عبد الناصر» هذه المذكرة، ثم كتب على هامشها بخط يده تأشيرة موجهة إلى المشير «عبد الحكيم عامر» نصها بالحرف:

«حكيم

اتصل بمجدى واطلب منه أن يكف عن هذه الخزعبلات»!

جمال

وفى الحقيقة فإن هؤلاء الذين وجدوا فى «الإلحاد» فرصة سانحة لدعوة الإسلام فى منطقة محايدة إيمانيا ـ لم يكونوا أكثر شططا من الذين وجدوا فى الإلحاد فرصة سانحة للجهاد باسم الإسلام بمقتضى فتوى من «زبجنيو برجينسكى»!]

....

الورقة الثالثة:

توزيع الاختصاصات على أطراف التحالف

يوم ٥ يناير ١٩٨٠ كان «زبجنيو برجينسكى» فى السعودية، ومع أن الملك «خالد» كان لا يزال رسميا على العرش، إلا أن السلطة انتقلت منه إلى ولى العهد الأمير «فهد» (الذى كان حريصا أن يكون انتقال السلطة الفعلى إليه محسوسا على المستوى الرسمى أيضا، ولعله من هنا كان يتعمد فى كل الاحتفالات والاجتماعات العامة التى يحضرها مع الملك أن يكون وصوله لاحقا لوصول الآخرين، وحتى يقوم الجميع وفيهم الملك ليصافحوا ولى العهد بما يؤكد أنه الرجل القوى فى النظام فعليا)!

والذى حدث (وهو المتوقع) أن الملك «خالد» أحال ضيفه إلى أخيه الأمير «فهد»، وقد أبدى الملك لبرجينسكى قبوله للمبدأ: من منطق أن العمل الإسلامى ضد الاتحاد السوفيتى ـ ومن أفغانستان ـ كان موضع اتفاق سابق معتمد من الملك فيصل. والآن وقد تحول الأمر إلى جهاد مقدس فى أفغانستان ذاتها فإن تعاون المملكة طبيعى ومؤكد، وأما التفاصيل المستجدة فهى «عند ولى العهد».

وأبدى الأمير «فهد» رضاه عندما سمع من «برجينسكى» أن الرئيس «السادات» تعهد بوضع الثقل المصرى بكامله وراء السعودية فى «ساحة الجهاد»، على أن ولى العهد لم يكن يريد قصر دور المملكة على تقديم المال فقط، وإنما كان يريد لها دورا أكبر فى الجهاد. وكان رأيه ـ وأَيَّدَه فيه بعض إخوته وبالذات الأمير «سلطان» ـ أن إدارة الجهاد ينبغى أن تكون للمملكة، وقيادته من فوق أرضها، وبعد ذلك تكون ترتيبات التنفيذ كما هو «مناسب»!

وفى الترتيب العملى فإن ذلك اقتضى الاتفاق على خطوط سياسية عريضة:

١ـ التمويل مشترك وبالتساوى بين الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة العربية السعودية عن طريق صندوق دوار، يتأسس فى «جنيف» بمبلغ قدره ألف مليون دولار تتجدد تلقائيا بمقدار ما يصرف منه.

٢ـ والجهات المكلفة بالإشراف على التنفيذ من الجانب الأمريكى ـ وكالة المخابرات المركزية ـ (وفيها الأميرال ستانسفيلد تيرنر فى ذلك الوقت)، ومن الجانب السعودى: هيئة المخابرات العامة (وفيها الأمير «تركى بن فيصل» الذى جاء إلى هذا المنصب خلفا لخاله السيد «كمال أدهم» مؤسس الهيئة).

٣ـ التوجيهات والاتصالات السياسية مع قيادات الجهاد الإسلامى من اختصاص المملكة تجنبا للحرج، مع العلم بأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لها مكتب معروف فى «بيشاور». ومع أن الجيل الأول من الزعماء الأفغان الكبار مثل ربانى ـ حكمتيار ـ مسعود، (على اختلاف ما بينهم) تعاملوا من البداية مع وكالة المخابرات المركزية ـ حينما كان نشاطهم داخل الجمهوريات الإسلامية للاتحاد السوفيتى ـ فإنهم الآن والميدان على أرض بلادهم ـ يفضلون أن يكون التعامل مع السعودية «لتكون الوسائط إسلامية»!

(ومن غرائب ما حدث باسم الإسلام فى تلك الفترة ـ على حد رواية عميد الصحفيين الباكستانيين ـ أن زعماء القبائل والمليشيات الأفغانية الذين جرى اعتمادهم قادة للجهاد، وقع تنصيبهم «للحرب المقدسة» بإجراءات اقترحها أحد «الخبراء» (من مستشرقى وكالة المخابرات المركزية على الأرجح)، وكانت مراسم هذه الإجراءات تقضى بأن يُفتح باب الكعبة للقائد المرشح، ثم يدخل الرجل منه إلى قدس الأقداس، فيؤدى الصلاة أمام كل جدار من جدران الكعبة، باعتبار أن كل ناحية من داخل الكعبة «قِبْلة»، ثم يخرج الرجل وقد وقع ترسيمه «أميرا» للجهاد ضد الإلحاد!).

٤ـ تختص مصر بتوريد الأسلحة والمعدات والذخائر مما لديها (من أسلحة سوفيتية: سوفيتية الصنع وسوفيتية النوع)، وعليها أيضا أن توفر للجهاد الإسلامى دعما دينيا وسياسيا وإعلاميا، وفى إطار ذلك المطلب فإن بعضا من أهم المؤسسات الدينية فى مصر



صدرت لها التعليمات بأن تتقدم باجتهادات وفتاوى تؤيد وتزكى أسبقية الجهاد ضد الإلحاد، كما أن بعض وسائل الإعلام الشهيرة فتحت أبوابا ثابتة تدعو للجهاد فى أفغانستان وتجمع الأموال له.

وفى تلك الأوقات كان التقدير المشترك للطرفين الأمريكى والسعودى أن دخول مصر «بثقلها» إلى ساحة «الجهاد الإسلامى» فى أفغانستان سوف يشجع عناصر قومية وإسلامية شديدة الإخلاص لمعتقداتها على أن تهرع إلى الساحة. وبحيث يظهر فعلا أن هناك أهدافا عربية وإسلامية تستحق العزم والبذل، وأن العمل فى سبيلها ثواب يُسعى إليه تقربا وزلفى!

ويروى «جون كولى» فى كتابه: «حروب غير مقدسة» (الفصل الثانى من صفحة ٢٩ إلى صفحة ٤٣ وعنوان الفصل كله: أنور السادات) ـ أن الرئيس «السادات» كلف نائب الرئيس «حسنى مبارك» وهو المسئول وقتها عن أجهزة الأمن الداخلى والخارجى، بالإشراف على المجهود المصرى فى «الجهاد الأفغانى». (لكن «مبارك» لم يلبث إلا شهورا حتى ترك المهمة وأحالها إلى المشير «عبد الحليم أبو غزالة»، وبدوره أحالها المشير أبو غزالة إلى غيره).

ثم يعود «جون كولى» ليقول (ص٣٢)، أنه بعد أيام من لقاء الرئيس «السادات» مع «زبجنيو برجينسكى» فى يناير ١٩٨٠ ـ أعطى الرئيس المصرى إذنا باستعمال مطار «قنا العسكرى» قاعدة للتخزين والتشوين لخدمة «العمل الجهادى» فى أفغانستان، وكانت طائرات الشحن الأمريكية العملاقة تهبط فى هذا المطار كل مساء ويجرى تحميلها بالأسلحة والذخائر لكى تطير قبل منتصف الليل، وتهبط قبل الفجر فى المطارات العسكرية الباكستانية. وفى بعض المرات كان هناك «أفراد» مصريون يصحبون هذه الشحنات لإتمام إجراءات التسليم والتسلم، كما أن ميناء «بورسعيد» تحول إلى قاعدة خلفية للتخزين والشحن إلى «كاراتشى».

وكانت الشحنات من مصر بالدرجة الأولى أسلحة وذخائر ومعدات سوفيتية الصنع أو سوفيتية النوع ويقول «جون كولى»:

«إن المخازن العسكرية المصرية كلها أفرغت ما كان فيها من أسلحة، بعضها مما كان مستخدما فى الجيش المصرى وجرى الاستغناء عنه، وبعضها ما أنتجته المصانع العسكرية المصرية وفيها مصنع فى حلوان وهو الذى جرى تعديل بعض آلاته لكى ينتج رشاشات سوفيتية التصميم».

وابتداءً من ربيع ١٩٨٠ وبعده فصولا متوالية إثر فصول: كانت الحركة على الجسر الجوى بين مطار «قنا» العسكرى وبين مطار «بيشاور العسكرى» ـ وبين بورسعيد وكاراتشى ـ فيضا يتدفق ليلا ونهارا ودون توقف!

....

....

[وفيما يظهر فى عدد من الروايات فإن بعض حماسة الإدارة المصرية فى شحن الأسلحة إلى الجهاد الأفغانى، كان دافعها الرغبة فى التخلص من السلاح السوفيتى: لأن تغير الأحوال قضى أن يكون تسليح الجيش المصرى أمريكيا يعتمد على مساعدة عسكرية أمريكية ملحقة باتفاقية كامب دافيد، وبمقتضاها يجرى تخصيص مبلغ ١.١ بليون دولار سنويا لمشتريات سلاح أمريكى يُتفق عليه].

....

....

ومن المفارقات أن السلاح الأمريكى الوحيد الذى وصل إلى أيدى المجاهدين فى أفغانستان هو الصاروخ المتقدم ضد الطائرات من طراز «ستنجر»، وقد «باعت» منه وزارة الدفاع الأمريكية إلى صندوق الجهاد الإسلامى فى أفغانستان ٩٠٠ صاروخ ـ ثم راجت شائعات بأن مجموعة من هذه الصواريخ وقعت فى يد إيران أو على الأقل معروضة عليها للبيع. وسارعت وكالة المخابرات المركزية تشترى من قادة الجهاد ما وصل إلى أيدى رجالهم من صواريخ «ستنجر»، وكانت الوكالة الآن تطلب استعادة كل صاروخ منها بما يوازى خمس مرات سعر بيعه الأصلى. وتمكنت الوكالة من استعادة ٢٦٠ صاروخا، وما بقى منها فى ساحة الجهاد بعد ذلك جرى اعتباره مفقودا مع تعهدات من القادة بأنه إذا ظهر من هذه الصواريخ شىء، فالاستعداد لشرائها ـ وبالسعر الأعلى ـ مازال قائما، والظاهر أن إيران كانت قد حصلت بالفعل على بضع عشرات من صواريخ «ستنجر»، والراجح فى «أسواق السلاح» أنها قامت بتصنيع نموذج إيرانى له، دخل إلى الخدمة العاملة فى قوات الحرس الثورى!

وفى أول أبريل ١٩٨٠ أعلن الرئيس «السادات» فى حديث صحفى نشرته وسائل الإعلام فى مصر ما يمكن اعتباره «قرارا رسميا بالتدخل فى أفغانستان» وكان نص ما قاله الرئيس «السادات» فى ذلك الصدد:

«إننا على استعداد بأسرع ما يمكن لكى نساعد فى أفغانستان وأن نتدخل لنصرة إخواننا المجاهدين هناك سواء طلبوا منا المساعدة أو لم يطلبوها».

وحين سُئِلَ متحدث رسمى من إدارة الاستعلامات المصرية عن تصريح الرئيس «السادات»، وهل تتضمن مساعدته لمجاهدى أفغانستان شحنات أسلحة؟ كان رده «بالإيجاب». ثم أضاف: «أن ما سوف نعطيه لإخواننا من الأسلحة هو بعض ما كان عندنا ولم نعد فى حاجة إليه وذلك أبسط واجب نؤديه نحو إخواننا فى الإسلام».

....

....

[وقد أدى «هذا الواجب البسيط نحو إخواننا فى الإسلام» ـ إلى خلط شديد لحق بالخطاب الإسلامى فى مصر ولم يُحسن إليه ولا صان مكانته.

والشاهد أن الإسلام عرف دائما أربعة ألوان من الخطاب الدينى:

ـ خطاب تقليدى (يمثله الأزهر ودار الإفتاء).

ـ وخطاب تجديدى (حمل لواءه مجتهدون كبار ابتداءً من الإمام «محمد عبده» إلى العلامة «حسين فضل الله»).

ـ وخطاب شعبى (تمثل مرات فى نشاط الطرق الصوفية ومرات فى جماعات مثل الإخوان المسلمين، خصوصا فى سنوات نشأتها الأولى).

ـ وخطاب وطنى (نموذجه الأصدق نضال «حزب الله» بقيادة السيد حسن نصر الله لتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلى).

وفى الظروف المستجدة ـ مع الجهاد ضد الاتحاد السوفيتى ـ فقد امتلأت الساحة بأنواع طارئة من الخطاب الإسلامى، فيها:

ـ الخطاب الدعائى: يُحَرِّضُ على القتال فى أفغانستان غافلا أو عارفا ـ!ـ أنه (تحت توجيه وإشراف قيادة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية).

ـ والخطاب الفضائى: وقد طلع على الناس حين تحولت الفتوى إلى صورة ولون وأداء، استغنت جميعها عن الاجتهاد الحق ومقتضياته وأولها الرسوخ فى العلم!

ـ والخطاب «المُرائى»: وذلك نوع طارئ من الخطاب الدينى يتحرك سياسيا بتوجيه غامض ويحمل فى ظاهره وفى باطنه ما يريب، لأن هدفه كما يتضح من حركته تصفية ما تبقى من الصراع العربى الإسرائيلى نفسيا ومعنويا بمقولات من نوع «حوار الأديان» و«مجمع الأديان» والدم المشترك بين «أبناء العم» من نسل إبراهيم ـ وغير ذلك من مقولات، وكان هذا «الخطاب المُرائى» هو الذى أوقع الخطاب الإسلامى التقليدى فى ورطة الخوض فى مزالق أساءت إلى دوره التاريخى وإلى وزنه العلمى وإلى قيمة مرجعيته!]

....

....

ثم كان الأغرب «فى أبسط واجب نؤديه لإخواننا فى الإسلام» ما سجله «جون كولى» فى (صفحة ٣٢) وهو أن إسرائيل عرضت على وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كمية من السلاح السوفيتى، قالت إنها استولت عليه أثناء حروبها مع الجيوش العربية، وقبضت إسرائيل ثمن هذه الأسلحة من الصندوق المشترك لدعم الجهاد الإسلامى فى أفغانستان)!



الخطـاب «المرائى» نـوع طـارئ من الخطـاب الدينى يتحـرك سـياسيا بتوجيه غامض، وهـدفه كما يتضـح من حركته تصفية ما تبقى من الصراع العربى الإسرائيلى نفسيا ومعنويا بمقولات من نوع «حوار الأديان» و«مجمع الأديان» والدم المشترك بين «أبناء العم» من نسل إبراهيم. وغير ذلك من مقولات

الورقة الرابعة:

كيف دفعت أمريكا حصتها في صندوق الجهاد؟

وفى السنة الباقية من إدارة الرئيس «كارتر» وهى آخر إقامته فى البيت الأبيض بعد أن خسر الانتخابات أمام «رونالد ريجان» فى نوفمبر عام ١٩٨٠، لم تدفع المخابرات الأمريكية حصتها بالكامل فى الصندوق المشترك مع السعودية لدعم الجهاد الأفغانى، بل كان ما دفعته أقل من نصف ما تعهدت به، مع أنها هى التى اقترحت حجم الصندوق شراكة متساوية مع المملكة العربية السعودية. وأما «الرياض» فقد دفعت نصيبها وزيادة، سواء فى مبالغ جرى إنفاقها داخل المملكة وبينها الصرف على زعماء سياسيين أفغان زاروها لبحث «أمور الجهاد»، أو طلبوا مساعدات عاجلة يصعب عليهم انتظار صندوق جنيف عندما يقررها. وكانت السعودية بالإضافة إلى ذلك قد أنشأت ما أُسمى بـ: «مكتب الخدمات العامة» بحيث يكون - وليس المخابرات - واجهة الترتيب والتنظيم والمتابعة. وكانت مهمة هذا المكتب أن ينظم الدعوة ويستقبل المتطوعين ويرتب إقامتهم فى السعودية، حتى تتم إجراءات إلحاقهم بصفوف المجاهدين، وأهم هذه الإجراءات، سحب جوازات سفرهم الأصلية وتزويدهم «ببطاقات خدمة» معها تصريحات «مرور خاصة» تمكنهم من السفر إلى باكستان والوصول إلى «بيشاور»، حيث يتولاهم هناك فرع أمامى «لمكتب الخدمات العامة» مهمته توزيعهم على «مواقع الجهاد» التى تكون قيادتها فى حاجة إليهم.

وقبل نهاية السنة الأولى فى تاريخ الجهاد الأفغانى وهى سنة ١٩٨٠، كان مكتب الخدمات العامة فى السعودية وفرعه المتقدم فى «بيشاور» قد نشطا تحت قيادة الشيخ «عبد الله عزام» وهو أستاذ أردنى من أصل فلسطينى، كان عضوا فى «حزب التحرير الإسلامى» الذى تعاون فى الخمسينيات مع حلف بغداد.

ومع نهاية هذه السنة كان الرئيس «كارتر» ومستشاره للأمن القومى قد غادرا البيت الأبيض.

وعندما انتخب «رونالد ريجان» (نوفمبر ١٩٨٠) لرئاسة الولايات المتحدة، وفتحت أمامه مسألة الجهاد الإسلامى فى أفغانستان - حتى قبل دخوله إلى البيت الأبيض - جاءته ملفاتها ومعها مطالبات من المخابرات الأمريكية تلح فى السماح لها باعتمادات إضافية تسدد تعهدات واشنطن فى الصندوق المشترك مع الرياض - وقد تحمس «رونالد ريجان» للعملية بعد أن أقنعه مستشاروه، وفى مقدمتهم صديقه الأعز «ويليام كايسى» (الذى اختاره لرئاسة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) - بأهمية اصطياد الجيش السوفيتى فى أفغانستان باعتبارها «الأكبر» بين كل عمليات الحرب الباردة (وكان ذلك صحيحا).

ومعنى ذلك أن «رونالد ريجان» ومن قبل أن يتولى مقاليد السلطة ويفكر فى خطوط أول ميزانية لإدارته - كان عليه أن يوفر مبالغ طائلة للجهاد الأفغانى تسدد الحصة الأمريكية عن السنة الأولى فى الصندوق المشترك مع السعودية، وتعتمد المقرر للسنة الثانية وتدفعه، وتزيد فوقه ما يتناسب مع المستوى الذى بلغته العملية واحتمالاتها غير المحدودة.

ويروى كتاب «الحرب غير المقدسة» أنه فى أوائل شهر ديسمبر التقى الرئيس المنتخب «رونالد ريجان» فى لوس أنجلوس بنائب مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى ذلك الوقت: الجنرال «فيرنون والترز» وهو جندى من تحت السلاح بدأ حياته فى المخابرات العسكرية أيام الحرب العالمية الثانية، ثم برز فى العمل السرى فى أوربا بطريقة لافتة للأنظار حملته إلى أرقى المناصب فى مؤسسات الأمن وأوصلته نائبا لمدير المخابرات المركزية.

وفى هذا الاجتماع فى لوس أنجلوس - أوائل شهر ديسمبر ١٩٨٠ - كان «فيرنون والترز» يريد أن يشرح للرئيس المنتخب - وفى حضور عدد من أقطاب إدارته وبينهم «ويليام كايسى» المرشح مديرا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية (وهو صديق قديم لوالترز) - كافة الاحتمالات الواعدة للجهاد الأفغانى - وكذلك مشكلاته!

وأهمها حسب ما طرحه الجنرال والترز:

- أن تكاليف العملية تتزايد على نحو متصاعد بسبب النجاح وليس بسبب الفشل.
- أن الوكالة لا تقدر من ميزانيتها العادية أن تفى بالنصيب الأمريكي فى الصندوق المشترك مع السعودية لأن ميزانيتها لا تحتمل!
- أن الوكالة أمامها مشروعات مهمة فى تضييق الخناق على الاتحاد السوفيتى فى أوربا الشرقية، وبحيث يتم حصر الاتحاد السوفيتى بين غرب آسيا وشرق أوربا فى الوقت نفسه - وبالذات من بولندا مع مجيء «بابا» جديد لروما (جون بول الثانى) من مواطنى ذلك البلد الذى تتحرك فيه الآن منظمة علنية معادية للشيوعية تحت اسم التضامن يتزعمها (ليخ فاليسا) رئيس نقابات عمال بناء السفن فى جدانسك - ومعنى أن تتكفل الوكالة بتدبير ما هو لازم لأفغانستان - من ميزانيتها الحالية - أن يسقط مشروع بولندا على الأرض كطائرة تعطلت محركاتها ووقعت أجنحتها!

وبدا أن الرئيس ريجان حائر إزاء ما طُرِحَ عليه: لأن أهم بند فى حملته الانتخابية كان التوقف عن التمويل بالعجز، وترحيل ذلك العجز سنة بعد سنة إلى الدين العام، وعليه فهو مُطالَب أن يضغط الإنفاق ولا يزيد منه، لكنه فى الوقت نفسه على حد قوله: «وقع فى غرام عملية أفغانستان»، لأنها بدت له - وهو «العدو الشرس» للشيوعية، حيث تكون - نموذجا مثاليا لسفح دم السوفييت، جزاء ما تسببوا فيه «من سفح دم أمريكى غزير فى فيتنام»!

ولعل أهم ما تجمع عليه المصادر مما حدث فى ذلك الوقت (وكله ظاهر فى الكتب الثلاثة التي يستند إليها هذا الحديث) هو الطريقة التى تمكنت بها إدارة الرئيس ريجان عندما تولت السلطة من تدبير الاعتمادات اللازمة «للجهاد فى أفغانستان» دون أن يتكلف دافع الضرائب الأمريكى بسنت واحد!

ويركز كتاب «الحروب غير المقدسة» بالتحديد (واستنادا إلى وثائق اطلع عليها مؤلفه إلى جانب شهادات سجلها - ومنها أقوال خمسة من رؤساء أجهزة المخابرات الأمريكية والأوربية - إلى جانب تقارير سرية عرضت على لجنة المخابرات فى مجلس الشيوخ الأمريكى لثمانى سنوات متعاقبة) - على رواية تفاصيل وافية عن الطريقة التى تمكنت بها إدارة ريجان من دفع نصيبها فى صندوق «الجهاد الأفغانى».

وابتداءً من صفحة ١٢٨ من كتاب «الحروب غير المقدسة» تتدفق تفاصيل هذه الطريقة (وهى مزعجة) - على النحو التالى:

بعد حفل تنصيب «رونالد ريجان» بثلاثة أيام، استقبل رئيس الولايات المتحدة فى مكتبه البيضاوى شخصية أُحيطَ وصولها إلى البيت الأبيض بجو من السرية شديد، زاد منه أن اجتماع «ريجان» بهذه الشخصية حضره الجنرال «فيرنون والترز» الذى عُيِّن مستشارا لرئيس الولايات المتحدة للمهام الخاصة التى يشرف عليها مجلس الأمن القومى، كذلك حضره وزير الدفاع الجديد «كاسبر واينبرجر»، والجنرال «روبرت ماكفرلين» مساعد مستشار الأمن القومى للرئيس، الذى كان عليه أن يسجل وقائع الاجتماع لمكتب الرئيس فى «محضر مختوم» لا يُفَضُّ قبل خمسين سنة!

وكان الزائر هو رئيس المخابرات الفرنسية الخارجية (SDECE) ذائع الصيت الكونت «الكسندر دى ميرانش» وهو صديق وثيق الصلة بـ«كايسى» وبـ«والترز» من تعاون ورفقة عمليات سابقة.

(أشار «دي ميرانش» فيما بعد إلى ذلك اللقاء مع «ريجان» فى حديث صحفى نشرته مجلة تايم فى عددها بتاريخ ١٣ يونية ١٩٩٢).



وطبقا لجون كولى و(لمحرر مجلة «تايم») فإن «دى ميرانش» عرف من صديقيه (كايسى - ووالترز) أن الرئيس الأمريكى مشغول بتوفير نصيب أمريكا فى الجهاد الأفغانى، وكان لديه الحل - ثم إن لديه الفرصة الآن ليعرضه على «ريجان» بنفسه، وقد دخل فى الموضوع مباشرة قائلا:

«السيد الرئيس Mr President، هل أستطيع أن أسأل ما الذى تفعلونه بالمضبوطات التى تصادرها الوكالة المختصة بتنفيذ قانون مكافحة الإدمان DEA أو مكتب التحقيقات الفيدرالىFBI أو هيئة الجمارك FCA؟!

وقال الرئيس «ريجان»: «إنه لا يعرف - لكنه يفترض أن هذه المضبوطات يجرى حرقها تحت رقابة مشددة». وقاطعه «دى ميرانش»: «هذه غلطة يا سيادة الرئيس»!

واستطرد «دى ميرانش» يقول لرئيس الولايات المتحدة - (وفى مكتبه البيضاوى داخل البيت الأبيض) - «إننى أفهم أن تصادروا هذه الشحنات من المخدرات ولكنى لا أفهم لماذا تحرقونها». واقتراحى - سيادة الرئيس - أن تعملوا على توصيل جزء منها إلى معسكرات الجيش السوفيتى فى أفغانستان لنشر الإدمان فى صفوف رجاله؛ لأن ذلك يتكفل بإنهاك القوى القتالية لجنوده. أضاف الكونت «دى ميرانش»، و«ريجان» يسمع مأخوذا: أليس ذلك - سيادة الرئيس - ما فعله «الفيت كونج» (المقاومة الوطنية) فى فيتنام؟ وأليس ذلك - سيادة الرئيس - ما أدى إلى هبوط معنويات الجنود الأمريكيين فى تلك الحرب»؟

(أقر «دي ميرانش» بهذه النصيحة فعلا وتحمل مسئوليتها فى مذكراته التى نشرها (ديسمبر ١٩٩٢) بعنوان «Perception et Action» رؤى وأفعال - لكن «دى ميرانش» لم يشر فى كتابه إلى بقية النصيحة).

كانت بقية نصيحة «دى ميرانش» تدعو (سيادة الرئيس) إلى تخصيص باقى مضبوطات المخدرات - بعدما يجرى تسريبه إلى معسكرات الجيش السوفيتى فى أفغانستان - بحيث يجد طريقه إلى الأسواق (العالمية) ويُعاد بيعه عن طريق «شبكات أهلية»، ويكون من عائده فائضا يدفع نصيب الولايات المتحدة فى «الجهاد الأفغانى».

ويسجل كتاب «حروب غير مقدسة» (صفحة ١٢٩)، أن الرئيس ريجان أطرق مفكرا بضع ثوان ثم رفع رأسه قائلا: «هذه فكرة عظيمة A Great Idea»، ثم التفت إلى معاونيه المشاركين فى اجتماعه مع مدير المخابرات الخارجية الفرنسية وقال: «إن أحدا لم يقترح علىّ فكرة على هذا المستوى من قبل»! ورفع الرئيس «ريجان» سماعة التليفون وطلب توصيله بـ«ويليام كايسى» (الذى لم تمكنه مهمة عاجلة من حضور اجتماع البيت الأبيض)، وقال له: «أريدك أن تقابل صديقنا الفرنسى؛ لأن لديه اقتراحات أراها بديعة وأريدك أن تسمعها منه».

وكان «كايسى» قد سمعها من صاحبها قبلا، ولعله لم يحرص على حضور الاجتماع فى البيت الأبيض حتى لا يشارك فى إقناع «ريجان» بتلك الفكرة البديعة، ومن ثم يتحمل مسئوليتها القانونية فى يوم من الأيام إذا تسرب سرها! وقد رأى الأفضل له أن يأتيه بها أمر من رئيس الولايات المتحدة.

وكذلك التقى «دى ميرانش» فى اليوم التالى بـ«ويليام كايسى» وبحث معه تفاصيل فكرته وتحويلها إلى خطة!

الورقة الخامسة:

أساطير الأفيون وأمواله الخرافية!

لم تكن المخدرات بعيدة عن أفغانستان، ولا غريبة عن جماعات المجاهدين الذين يقاتلون «الإلحاد» متمثلا فى القوات السوفيتية التى دخلت أفغانستان.

والشاهد أن أفغانستان كانت من الأصل واحدا من بلدين لهما النصيب الأكبر عالميا فى زراعة وصناعة «الأفيون» (بورما هى البلد الثانى).

وطبقا لكتاب «طالبان» (لأحمد رشيد صفحة ١١٩) فإن إنتاج أفغانستان من الأفيون (وقتها) كان يصل سنويا إلى ما بين ٢٢٠٠ ـ ٢٤٠٠ طن، وذلك تقدير الأمم المتحدة.

(وقد زاد هذا الإنتاج عدة مرات تحت ضغط «مطالب الجهاد» حتى أصبح يضخ فى اقتصاد أفغانستان سنويا ما يزيد على ستة بلايين دولار سنويا، هى عماد اقتصاد البلد، وأهم مورد للثروة فيه).

وكانت زراعة الخشخاش وصناعة وتقطير الأفيون من زهرها وثمرها هى شاغل معظم زعماء القبائل والعشائر الأفغانية، وعندما أصبح هؤلاء الزعماء فى مقدمة صفوف الجهاد، فإن كل واحد منهم حاول أن يبنى مليشيا مسلحة تتناسب مع مقامه قبل أن يتقدم فى طلب نصيبه من الصندوق المشترك لمساعدة المجاهدين فى أفغانستان.

وفى مرحلة لاحقة (مرحلة طالبان) وعندما أصبح للحرب فى أفغانستان قادة للجهاد لا يملكون أرضا ولا زرعا ولا معامل تقطير، فإن هؤلاء القادة وجدوا لأنفسهم مكانا على الخريطة حين أمسك كل منهم بمدخل طريق أو تقاطع طرق، ثم أقام هناك حاجزا يُنظِّم مرور شحنات الأفيون ويسمح بها مقابل رسوم.

ويستعين «محمد رشيد» (كتاب طالبان) بتقارير لمنظمة مكافحة المخدرات التابعة للأمم المتحدة وفيها (صفحة ١٢٠) تقرير يقول:

«لقد حدث ما يشبه الانفجار فى تجارة المخدرات القادمة من أفغانستان، لأن ما متوسطه ٧٠٪ من حجم المخدرات المتداولة فى العالم أصبح يجىء من هذه المنطقة، وهناك أدلة قاطعة على وجود صلة بين القائمين بهذه العمليات وبين عناصر نافذة فى الإدارات الرسمية لأكثر من حكومة».

ويرى «محمد رشيد» أن الإشارة واضحة هنا إلى المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات العسكرية الباكستانية، ويورد نماذج واقعية اضطرت فيها السلطات الباكستانية ـ تحت ضغوط دولية ـ إلى التبرؤ من عمليات الأفيون ونقل بعض ضباطها الذين أشارت إليهم تقارير الأمم المتحدة بالاسم إلى مواقع أخرى.

ويزيد كتاب «طالبان» إلى ذلك (صفحة ١٢١) ـ بالوقائع والأسماء كيف أن بعض ضباط مكاتب مكافحة المخدرات التابعة للأمم المتحدة فى «بيشاور» اضطروا إلى الاستقالة من وظائفهم كنوع من الاحتجاج؛ لأنهم اكتشفوا أن المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات العسكرية الباكستانية تعرقل جهودهم.

وطوال حقبة الثمانينيات كانت أموال الجهاد ضد الإلحاد فى أفغانستان تتدفق سيلا فى العالم العربى، فالمصادر أصبحت سخية والحسابات طرية والفرص مفتوحة على الآخر لمن يستطيع الوصول والدخول!

والشاهد أن ثروات هائلة (بالملايين وعشرات الملايين ومئات الملايين) تحققت لأصحابها فى هذه الفترة فى السعودية ولبنان والأردن والمغرب ومصر، والأساس فيها فيض الخير من أموال الجهاد فى أفغانستان.

وفى مصر على سبيل المثال فإن هذه الأموال أغرت كثيرين تواجدوا فى ميدان الأعمال أصلا ـ أو سعوا إليه «خفافا»، باعتقاد أن هناك فرصة متاحة للغنى الفورى!

وتظهر التقارير أن عددا من «رجال الأعمال» ـ القدامى والجدد، عرفوا باتصالاتهم أن هناك طلبا على أنواع من الأسلحة بالذات لم يعد منها كفاية فى المخازن العسكرية المصرية، وقد سارعوا ـ خِفافا أيضا ـ إلى توريدها، وقصد بعضهم إلى بلدان أوربا الشرقية وبالذات بلغاريا والمجر وتشيكوسلوفاكيا يشترون من هناك بسرعة ما أصبح نادرا هنا.

وكانت فوارق الأسعار فى بعض الأوقات خرافية لكن الاحتياجات كانت ملحة والطلبات عاجلة!

....

....

[ومن غرائب تلك الأيام أن «الجهاد» فى أفغانستان احتاج إلى بغال ألفت مسالك الجبال واكتسبت مهارات صعودها، وأفتى أحد العارفين بأن البغال المصرية لا تصلح للغرض وأن أنسب البغال للمطلوب ما هو موجود فى جزيرة قبرص، لأن طبيعة الجزيرة جبلية، والبغال فيها من أيام ثورة الأسقف «مكاريوس» ضد بريطانيا، تعودت وحصّلت بالمران خصائص تنفع الجهاد الإسلامى الآن (كما نفعت البطريرك الأرثوذكسى من قبل!).

وكذلك توجه أحد رجال الأعمال إلى قبرص يشترى (٢٠٠٠) ألفى بغل قبرصى قادرة على الحياة والعمل على سفوح وقمم الجبال فى أفغانستان.

وكان باديا مرة أخرى أن إغراء الربح وفيرا وسريعا يرفع الأسعار بطريقة مبالغا فيها.

ومن الغريب أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تحوطت لذلك ووضعت ضمن هيئة السفارة الأمريكية فى القاهرة ـ فى ذلك الوقت ـ ممثلا لمجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض برتبة وزير مفوض اسمه «جوكس كوفى» وكان مجتمع القاهرة يحس بقرون استشعار مرهفة لديه أن مركز «جوك» لا يقل نفاذا عن مركز «فرانك ويزنر» السفير المعتمد للولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة أيامها، ولعله لم يخطر ببال أحد أن «كوفى» ـ الذى كان معروفا (وذلك صحيح) أنه يمثل البيت الأبيض وليس وزارة الخارجية ـ هو المسئول المكلف بالإشراف على تزويد «الجهاد الأفغانى» بما يحتاجه من مصر أو عن طريقها. وكذلك كان «كوفى» يطلب، وكان يوافق، وكان يأذن بالصرف من اعتمادات الصندوق المشترك فى جنيف، وكان الرجل بالتأكيد يلاحظ أن «رجال الأعمال» المشتغلين باحتياجات الجهاد «يبالغون» ـ لكن الضرورات لها اعتباراتها، وكانت لـ «جوك» (كما كان أصدقاؤه ينادونه اختصارا أو تدليلا) ـ كلمة مشهورة تقول: «إن الجهاد أيضا يحتاج إلى حوافز»!]

....

....

الورقة السادسة:

الرجل الغامض وسط الأساطير!

وتجمع الكتب الثلاثة: «طالبان» و«الحروب غير المقدسة» و«غسيل الواقع» على أن الجهاد فى أفغانستان تكلف ما بين ١٢ إلى ١٤ بليون دولار، وذلك حساب الصندوق المشترك الدوار الذى كانت السعودية والمخابرات المركزية الأمريكية تصرفان منه. لكن الموارد الإضافية الطارئة أضافت إلى ذلك المبلغ أضعافه، إذ يقدر كتاب «طالبان» (لأحمد رشيد صفحة ١٨ أن ما صُرِفَ فى هذه الحرب يُقدر بمبلغ ٤٥ مليار دولار) وتلك ثروة عصيّة حتى على القانون، وبالفعل فإن هذه الثروة فلكية أطاحت ببنك «الاعتماد والتجارة» بعد أن قام لسنوات طويلة بدور «الممر المالى» الظاهر لأموال «الجهاد الإسلامى» فى أفغانستان.

كان هذا البنك مشروع رجل عَلا نجمه مرة واحدة أوائل الثمانينيات وهو السيد «أغا حسن العابدى» مؤسس ورئيس مجلس إدارة بنك الاعتماد والتجارة ـ والرجل باكستانى خَبِرَ أعمال البنوك ولمح فرصته حين رأى الطوارئ الجديدة، وقدّرَ حاجتها إلى بنك أكثر مرونة من غيره. وقد حصل على الترخيص بتأسيس البنك فى الإمارات العربية المتحدة، ثم ضم إليه شركاء واصلين من أبرزهم السيد «كمال أدهم» مدير المخابرات السعودية ومستشار الملك فيصل (وخال الأمير تركى الذى خلفه على إدارة المخابرات السعودية).

و فى سنوات قليلة أصبح هذا البنك ومقره مدينة أبو ظبى عاصمة الإمارات العربية المتحدة ـ واحدا من أقوى بنوك الشرق الأوسط وأظهرها فى الأسواق المالية، كما أن مؤسسه «أغا حسن العابدى» أصبح شخصية مرموقة فى عواصم المال والأعمال فى العالم كله، بل وقد حاول الرجل أن يعطى نفسه مكانة تجعله أكثر من مجرد رئيس مجلس إدارة بنك!

....

....

[وقد شاءت المصادفات أن أكون طرفا فى تجربة مباشرة مع «أغا حسن عابدى»، (وأهمية التجربة دلالتها على أن حكومات أوربية أو هيئات نافذة فى أوربا ـ عرفت مبكرا عن «دور» الأفيون فى تمويل النصيب الأمريكى فى عمليات أفغانستان)، فقد حدث فى شهر مارس سنة ١٩٨٦ أن صديقا قديما هو السفير «عظيم حسين» الذى كان ممثلا فوق العادة للهند فى القاهرة سنوات الخمسينيات بعث إلىّ بخطاب وَقّعه معه صديق مشترك لنا هو السير «سانى



واشـــنطن تـــؤذن للجهـــاد

رامفال» الذى كان وقتها سكرتيرا عاما لمنظمة الكومنولث. وكان خطاب الاثنين دعوة لكى أنضم عضوا فى مؤسسة باسم «العالم الثالث» - ضمن نشاطها أن تقوم على منح جائزة سنوية باسم «جائزة العالم الثالث» لشخصية عالمية لها إسهام مرموق فى الحياة الدولية. وقد أضاف الصديقان فى خطابهما أن جائزة العالم الثالث سوف تكون فى إطار الأمم المتحدة. وبالفعل وقع بينما كنت أفكر فى العرض أن اتصل بى من نيويورك الصديق السفير «على تيمور» وهو وقتها مدير المكتب الخاص للسكرتير العام للأمم المتحدة «بيريز دى كويلار» وكان «على تيمور» ينقل إلى رسالة مؤداها أن السكرتير العام يضم صوته إلى أصوات أخرى سبقته فى إقناعى بقبول عضوية مؤسسة العالم الثالث ولجنة الجائزة التابعة لها، ثم عرفت من السفير «عظيم حسين» أن الجائزة تحددت قيمتها بمبلغ مائة ألف دولار، وأن هذا المبلغ سنوى وكذلك تكاليف مراسم الاحتفالات سوف تُقَدَّم هدية من «مؤسسة العالم الثالث» وهى مؤسسة لا تستهدف الربح، مسجلة فى نيويورك ويرأسها «أغا حسن العابدى» الذى هو فى نفس الوقت رئيس مجلس إدارة بنك الاعتماد والتجارة.

ونظرت فى القائمة المقترحة لعضوية لجنة الجائزة بالتحديد ووجدت سبعة من ألمع الأسماء بينهم العالم الباكستانى الذائع الصيت الدكتور «أمير عبد السلام» (الحاصل على جائزة نوبل فى الطبيعة النووية عام ١٩٧٩، والذى تبرع بقيمة جائزته لإنشاء معهد دولى فى مدينة «تريستا» شمال إيطاليا يكون أكاديمية لتدريس العلوم النووية لشباب من أبناء العالم الثالث، وكان الدكتور «أمير عبد السلام» يُعْتَبر أستاذا لكل مهندسى المشروعات النووية الكبرى فى آسيا).

وبينما كنت أفكر جديا فى الموضوع لحقتنى رسالة جديدة من السفير «عظيم حسين» يقول فيها: «إنه تلقى اقتراحا بأن تكون الجائزة فى المرة الأولى من نصيب «ويلى برانت» مستشار ألمانيا الغربية السابق»، ويسألنى رأيي؟

....

....

[كان «ويلى» عمدة برلين الغربية فى ذروة الحرب الباردة، وحين كانت ألمانيا مقسومة إلى شرق وغرب، وكذلك عاصمتها «برلين» التى وُضعَت تحت إدارة دولية مشتركة تحميها قوات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ثم إن «ويلى برانت» أصبح فيما بعد مستشارا (أى رئيس وزراء) لألمانيا الغربية، وكان هو الذى ابتدع سياسة التوجه إلى الشرق -Ostpoli tik) مع بداية الوفاق - ثم أصبح بشخصه ودوره أكبر رموز هذا الوفاق والآمال التى تعلقت به لتفادى صدام - نووى - بين القوتين الأعظم].

....

....

وربما أن ترشيح «ويلى برانت» لهذه الجائزة كان العامل الحاسم فى قبولى بما عُرض علىّ (من عضوية مجلس العالم الثالث وعضوية لجنة جائزته)، وتقرر أن نتقابل جميعا - بالذات أعضاء لجنة الجائزة - فى نيويورك وأن ننزل معا فى فندق بلازا الأمم المتحدة، ومبناه فى مواجهة مبنى الأمم المتحدة مباشرة، والانتقال بين الاثنين لا يقتضى غير عبور الشارع من الرصيف إلى الرصيف، وكان السكرتير العام للأمم المتحدة قد خصص قاعة لاجتماعات لجنة الجائزة، كما ارتأى أن يكون احتفالها بمنح جائزتها للمرة الأولى - إلى «ويلى برانت» فى قاعة اجتماعات الجمعية العامة.

وسارت أعمال اللجنة على ما يرام، ولم يكن هناك اعتراض من أى عضو فيها على اختيار «برانت»، وقامت أمانة اللجنة بإبلاغه، ورد عليها بقبوله، وجاء إلى نيويورك فعلا، ونزل فى نفس الفندق (بلازا الأمم المتحدة) مع أعضاء لجنة الجائزة.

ثم حضر «ويلى برانت» اجتماعا للجنة «أبلغناه» فيه بقرارها وحيثياته، ولم يبق من مراسم الجائزة غير احتفالها الرسمى المقرر عقده فى قاعة اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، والمتحدث الرئيسى فيه هو السكرتير العام للمنظمة الدولية «بيريز دى كويلار».

وفيما بين اللقاء الصباحي للجنة الجائزة والاجتماع المسائى الاحتفالى، فوجئت بـ«ويلى برانت» يطلبنى على التليفون ليسألنى هل يستطيع أن يجيء ويلقانى فى غرفتى - والآن؟!

وعندما دخل «ويلى برانت» إلى غرفتى فى فندق بلازا الأمم المتحدة، أحسست أن الرجل مشغول إلى درجة الهم بشيء يثقل عليه، ولأنى أعرفه منذ سنوات طويلة، تكررت خلالها لقاءاتنا وطالت أحاديثنا، خصوصا عندما كنت ضيفا على صديقى القديم الذى كان أحد رؤساء تحرير مجلة «دير شبيجل» الألمانية ذائعة الصيت وقد قبل الآن أن يعمل مستشارا صحفيا وعضو مجلس وزرائه وهو «كونراد آللزر» - أثناء دورة الألعاب الأوليمبية فى ميونيخ سنة ١٩٧٢، (و«برانت» وقتها مستشار ألمانيا الغربية) - فقد كنت أستطيع أن أحكم على حالته بالنظر إلى ملامحه.

وجلس «ويلى برانت» على مقعد ثم بادرنى بسؤال: هل تعرف ما فيه الكفاية عن «حسن أغا»، وأدهشنى السؤال، وقلت: «إننى لم أتعرف عليه قبل هذه المرة فى نيويورك، لكننى أعرف اثنين من مساعديه («عظيم حسين» سفير الهند فى مصر سابقا و«سانى رامفال» سكرتير عام الكومنولث حاليا، وهما القائمان على منظمة العالم الثالث التى جمعتنا فى هذه المناسبة).

وقال «برانت»: «إننى تلقيت اليوم من بون (عاصمة ألمانيا الغربية أيامها) ما يجعلنى أعاود النظر فى قبولى للجائزة التى أعطيتموها لى اليوم - ولا أعرف كيف أتصرف؟ ليس عندى شيء محدد أستند عليه وإنما عندى هواجس غير محددة تخص «حسن أغا» و«بنك الاعتماد والتجارة»، وسكَتَ قليلا ثم استطرد:

«يعلم الله أننى فى حاجة إلى كل «مارك» من هذه المائة ألف دولار التى أعطيتموها لى هذا الصباح، لكنى الآن غير مستريح إلى قبولها - أنت تعرف كم أحتاجها».



إن الجنود المرتزقة بلا فائدة (للأمير) وهـم خطـر عليه، لأنهم دائما منقسمـون فيما بينهم، شجعان فيما بينهم لأنهم يتنازعـون على الغنائم، جبناء أمام العدو لأنهم لا يريدون الموت، وهـم يحاذرون الهزيمة؛ لأنها تفسد وظيفتهم ولهـذا يتجنبـون القتـال أساسا

«ماكيافيللى»

....

....

[كان «ويلى برانت» فى اليوم السابق قد قدم لى زوجته الشابة الجديدة والتى كانت من قبل سكرتيرة له، وكان «ويلى» ظاهر البهجة وهو يقدمها قائلا «إنها غيرت حياته وأن سعادته لا توصف وهو يستيقظ كل صباح فى كوخ صغير فى «بافاريا» يتخذانه الآن عشًا للزوجية، ثم يذهب بنفسه إلى المطبخ ويصنع طبق البيض المقلى ويُعِد الشاى والخبز المقدد والعسل لإفطار الصباح له ولهيلدا.]

....

....

وحاولت أن أستوضح من «ويلى برانت» إذا كان لديه أكثر مما استثار هواجسه، ولم يكن لديه شيء محدد، لكن الشكوك فى مثل هذه الحالات تكفى لأنها تنبه إلى تناقض فى الضمير بين القبول بشيء أو رفضه حتى دون تحديد للأسباب!

وقلت لـ«ويلى برانت» أننى أفهمه ولكن المشكلة الحساسة هى كيف يتصرف دون أن يسيء إلى شخص (عظيم حسين وسانى رامفال مثلا) أو إلى جهة (الأمم المتحدة وسكرتيرها العام، واحتفال المساء هذه الليلة يجرى بمشاركته فى تقديم الجائزة وبحضوره العشاء بعدها وذلك تكريم خاص موجه إلى برانت شخصيا).

ولمدة نصف ساعة رحنا نقلب مختلف الاحتمالات حتى توصلنا إلى حل وسط:

«يقف «ويلى برانت» فى احتفال المساء ويقبل الجائزة، ويتسلم الشيك بقيمتها، ثم يعلن أنه يتبرع به إلى أحد الصناديق الاجتماعية للأمم المتحدة، ويكون ذلك حل الإشكال».

بمعنى أنه يقبل الجائزة معنويا ويعتذر عن قيمتها ماديا، وهو بذلك يتسق مع شعوره ولا يحرج «بيريز دى كويلار» السكرتير العام للأمم المتحدة، وفى نفس الوقت لا يجرح أحدا من القائمين على منظمة العالم الثالث وجائزته، ولا يُسيء - بدون سبب واضح - إلى حسن أغا العابدى.

....

....

وفيما بعد (عندما قارب «الجهاد» فى أفغانستان مرحلته الأولى)، وارتفع درع الحماية عن «حسن أغا» مؤسس بنك الاعتماد والتجارة - لجأ الرجل إلى باكستان، ثم بان إلى أى مدى كان البنك غارقا فى أموال تجارة الأفيون وفى تحويل مسار جزء كبير منها إلى عمليات الجهاد الإسلامى فى أفغانستان.

وفى التحقيقات التى أعقبت إفلاس البنك مع بداية التسعينيات، تبين أن عمليات الاحتيال والاختلاس التى جرت فى البنك جاوزت خسائرها أكثر من عشرين بليون دولار!

وأثناء التحقيقات والمحاكمات الخاصة بإفلاس البنك - ومن المفارقات أن بعضها جرى فى الولايات المتحدة (بعد انتهاء مرحلة الجهاد الأولى) - تعرض عدد كبير من المشاركين فى إدارة بنك الاعتماد والتجارة - وربما كانوا أبرياء - إلى المساءلة، واستدعوا للتحقيق معهم، ومنع بعضهم من دخول الولايات المتحدة (وكان من بينهم السيد «كمال أدهم» الذى اضطر إلى توقيع تسوية دفع بمقتضاها ٨٠ مليون دولار ليسوى مسئوليته كعضو فى مجلس إدارة البنك!).

الورقة السابعة:

ماكيافيللى فى أفغانستان!

لكن حروب العقائد تحتاج إلى الإيمان قبل أن تحتاج إلى المال، وترضى بالتضحية ولا تنتظر الثروة، والمجاهدون فى سبيل الله لا يحرصون على المال: لأنه إذا كان ذلك - فهو الحرص على الحياة، وإلا لما كانت للمال فائدة. فإذا كان الحرص على المال هو المقصود إذن فالتعرض للخطر غير وارد وإيثار السلامة يصبح «القاعدة الذهبية» لسلوك المجاهدين.

وعندما أصبح أمراء الحرب الأفغانية طلاب ثروة تجرى حولهم أنهارا، سواء من صندوق «الجهاد الإسلامى» المشترك بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية (فى جنيف)، أو من فوائض زراعة وتجارة الأفيون، أو من رسوم السماح بمروره عند حواجز الطرق بين أمراء الحرب - فإن جماعات «الجهاد الإسلامى» تحولت إلى «قوات مرتزقة».

والحقيقة أن «جون كولى» مؤلف كتاب «حروب غير مقدسة» كان موفقا إلى أبعد حد فى اختياره للقول المأثور الذى استعاره من قائله الأصلى ليُصَدِّر به كتابه، فقد اختار «كولى» لتصدير كتابه فقرة كاملة من كتاب «الأمير» الذى ألفه «ماكيافيللى» (على شكل رسالة إلى «لورنزو العظيم» أمير فلورنسا، وقد تحول هذا الكتاب إلى عمل تأسيسى فى بناء علوم وفنون السياسة). وفى تلك الفقرة التى اختارها «جون كولى» من كتاب «الأمير» يقول ماكيافيللى:

«إن الجنود المرتزقة بلا فائدة (للأمير) وهم خطر عليه».

لأن الجنود المرتزقة دائما منقسمون فيما بينهم، عطشى للقوة، وغير منضبطين برباط أى نوع من الولاء، وهم شجعان فيما بينهم لأنهم يتنازعون على الغنائم، جبناء أمام العدو لأنهم لا يريدون الموت، وليست لديهم خشية من الله، ولا عهد مع الناس، وهم يحاذرون الهزيمة: لأنها تفسد وظيفتهم ولهذا يتجنبون القتال أساسا. وقادة المرتزقة نوعان: إما رجال يتقنون الحرب أو لا يتقنونها. وفى الحالة الأولى فإن الأمير لا يستطيع أن يثق بهم لأن إتقانهم للحرب يغريهم بقوتهم، فيأخذون فى ابتزاز أسيادهم، أما إذا كانوا لا يتقنون الحرب فإنهم يصبحون سببا للخسارة والهزيمة بينما تقع المسئولية على أسيادهم!

وقد أظهرت التجربة أن الممالك والجمهوريات لابد أن تكون لها جيوشها النظامية، تدافع عن أمنها ومصالحها، باعتباره الخير المشترك للجميع فى توفير الأمن والمصلحة، وهنا فإن الجنود المرتزقة وضباطهم لا مكان لهم ولا عمل».

وكان ذلك تماما حال زعماء الجهاد فى مناطق أفغانستان المختلفة ومن عصبياتها القبلية المتصارعة ما بين «البشتون» و«الطاجيك» والأوزبك» و«الهازارا» - شمال أفغانستان وجنوبها - شرقها وغربها!

وربما أنه من القسوة تصنيف كل من خرجوا للجهاد من زعماء القبائل والمناطق فى أفغانستان على أنهم مليشيات من المرتزقة، لكن الجميع - وبغير استثناء - أدركوا حقيقة بالغة الأهمية، مؤداها أن مستقبل أفغانستان لن يتضح شكله ولن تتقرر صورته إلا بعد أن يخرج الجيش السوفيتى من بلادهم (ولم يكن لديهم شك وقد بلغت الأمور ما بلغته على أرض المعركة - أن الاتحاد السوفيتى سوف يخرج من أفغانستان أكيدا - سواء كان خروجه بهم أو بغيرهم - وهنا فإن الشعور الذى ساد بينهم وأصبح معيارا لتصرفاتهم هو «أن كل طرف سوف يتحدد مستقبله بمقدار ما ادخر لنفسه من الإمكانيات المتاحة له الآن كى يجاهد، وليس بكمية ما بذل من هذه الإمكانيات حتى يبلغ الجهاد غايته وتجىء ساعة الحقيقة».



من القسوة تصنيف كل من خرجوا للجهاد من زعماء القبائل والمناطق فى أفغانستان على أنهم مليشيات من المرتزقة، لكن الجميع - وبغير استثناء - أدركوا حقيقة بالغة الأهمية، مؤداها أن مستقبل أفغانستان لن يتضح شكله ولن تتقرر صورته إلا بعد أن يخرج الجيش السوفيتى من بلادهم

وهكذا أصبحت استراتيجية جماعات الجهاد بغير استثناء هى: الانتظار والاحتفاظ بالقوة حتى تكون هذه القوة أداة للسلطة عندما تنتهى الحرب.

وعندما كانت ضرورات الحصول على الدعم المادى والعسكرى تقتضى قدرا من العمل يزكى أصحابه ويرفع بالتالى مخصصاتهم من المال والسلاح والمؤن، فإن بعضهم كان «يجاهد» بالقدر الضرورى - وليس أكثر - ولمجرد حفظ الحق فى المستقبل عندما يجىء حسابه! وفى الواقع وعلى الأرض فإن القدر الأكبر والأصعب من «الجهاد» كان من نصيب المتطوعين الباكستانيين من جنود الجيش (خصوصا من مناطق البشتون فى ولاية الشمال الغربى من باكستان - وعاصمتها «بيشاور» - وهى ملاصقة لإقليم «قندهار» وامتداد بشرى لأهلها). وكذلك من نصيب المتطوعين العرب الذين أُرسلوا تكليفا أو قصدوا تطوعا إلى مقر قيادة الجهاد فى السعودية، وكانوا فى ذلك الوقت ثلاث جماعات:

● جماعة من أفضل الرماة المسرحين من الجيش الباكستانى والجيش المصرى وغيرهما من الجيوش الإسلامية والعربية، وقد جرى تجنيدهم عندما وصلوا إلى نهاية خدمتهم، وعرضت عليهم مرتبات لم يكن فى مقدورهم رفضها (ما بين ٥٠٠ - ٧٠٠ دولار فى الشهر).

● جماعة من المنتمين إلى تنظيمات إسلامية قصدوا إلى أفغانستان إثر ضربات أمنية وُجِهَت إلى تنظيماتهم: لأن هذه التنظيمات مارست بالعنف أشكالا من الأعمال الإرهابية فى أوطانها.

● ثم جماعة من المتطوعين الإسلاميين حَلَتْ لهم فكرة الجهاد فى سبيل الإسلام، وقد زينها لهم إعلام كثيف أثار حميتهم أو أثار طموحهم إلى «ذكر جهادى» ينالهم ثوابه!

وعلى طول سنوات «الجهاد ضد الإلحاد» وصل عدد المتطوعين العرب من الجماعات الثلاثة إلى بضع عشرات من الألوف، ضمنهم ما بين خمسة إلى سبعة آلاف شاب مصرى حملتهم مقادير مختلفة إلى جبال أفغانستان!

....

....

[وفى وقت من الأوقات ما بين سنة ١٩٨٤ - ١٩٨٧ أدى وجود هذه الجماعات من الشباب المصرى وغيرهم من السعوديين والجزائريين والسوريين والسودانيين والفلسطينيين إلى تزايد واضح فى عمليات الهجوم وترتيب الكمائن وبث الألغام ضد القوات السوفيتية، لكن جزءا من هذه العمليات لم يكن جهادًا خالصا «لثوابه». والشاهد واقعة شديدة الأهمية جرت فى ذلك الوقت، فقد حدث أن نجاح بعض العمليات ضد السوفييت دعا عناصر من الجهاد إلى طلبات تقدموا بها إلى قادتهم، وفيها ما يتعلق بمستقبلهم بعد انتهاء مهمتهم فى أفغانستان، وعندما تأخر الرد عليهم قاموا بنوع من الإضراب «توقفوا فيه عن الجهاد»، حتى حضر إليهم ممثل رسمى للمخابرات المركزية الأمريكية، وعقد اجتماعا مع بعض قادة الفصائل، وأعلن أمامهم باسم حكومته أن هناك ٢٠٠٠ موافقة على منح الجنسية الأمريكية (بكل امتيازاتها) لأكفأ العناصر فى تأدية مهام الجهاد، وبالفعل فإن مندوب الوكالة فى هذه المناسبة أعلن عن قرب تسليم أول دفعة من البطاقات الخضراء Green Card - وهى البطاقة التى تمهد للمواطنة الأمريكية الكاملة - للأكثر استحقاقا بين المجاهدين. ومن المفارقات أن واحدا من الذين حصلوا على البطاقة الخضراء فى هذه المناسبة كان الشيخ «عمر عبد الرحمن» مفتى جماعات الجهاد المصرية، الذى تكررت زياراته لبيشاور وعلا صوته فيها كثيرا يحث ويحرض على الجهاد - وذلك الشيخ الضرير الآن سجين نيويورك إلى الأبد بطريقة مجافية لروح ونص القانون الأمريكى، والغريب أن التهم الموجهة للشيخ لم تُعلن بالكامل على الملأ، لكن السلطات الأمريكية تستبقى الشيخ فى زنزانته وهو فيما يظهر سجن إلى الأبد فى محبسين: فقدان البصر وفقدان الحرية].

....

....

وفى كل الأحوال وبصرف النظر عما قام به المتطوعون العرب فى ساحات الجهاد - فإن زعماء القبائل والعشائر وقادة المليشيات من أمراء الحرب كانوا على ثقة أن ساعة الحقيقة قادمة: لأن الاتحاد السوفيتى جرى بالفعل

استنزافه فى حرب لم تقتنع بها قياداته لا فى موسكو حيث القيادة العليا للجيوش السوفيتية، ولا على الأرض الأفغانية التى دخلت إليها القوات متورطة.

كان البلد قاسيا - على عكس بلدان أوربا الشرقية مثل بولندا والمجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية - فقد كانت القوات السوفيتية التى تخدم فى أوربا الشرقية تعيش أحوال عز ورفاهية نسبية، بينما كانت الظروف فى أفغانستان قاسية ما بين طبيعة موحشة، ومجتمع فقير ومغلق - وإغارات تعترض خطوط المواصلات وتحصر القوات السوفيتية فى مواقعها، كأن هذه المواقع تحولت أقفاصا حديدية لجنودها!

وكان اعتماد القيادة السوفيتية كالعادة فى مثل تلك الظروف على الطيران، ولكن الطبيعة الجبلية لأفغانستان تجعل الضرب الجوى عقيما، إذا لم يكن على الأرض حليف محلى يُعتمد عليه.

ولم يكن الجيش السوفيتى مطمئنا للاعتماد على حكومة أفغانية: لأن النظام الشيوعى - كما هى العادة! - نجح فى شرذمة قواته وبعثرتها فرقا وجماعات متناحرة داخل البلد.

وكانت ساعة الحقيقة تقترب وعندما جاءت فإنها فرضت نفسها، بما اضطر الجيش السوفيتى إلى الانسحاب من أفغانستان، تاركا مقاليد السلطة فيها لحكومة شيوعية يرأسها «نجيب الله». وكان التقدير السوفيتى أن حكومة «نجيب الله» لن تستطيع البقاء طويلا فى «كابول»، وقُصَارى المطلوب منها أن تكون فاصلا زمنيا بين الخروج السوفيتى من أفغانستان وسقوط الحكم الشيوعى فى هذا البلد، وبذلك تبتعد وصمة الهزيمة عن الجيش السوفيتى وتلحق بشيوعيين أفغان وصلوا بالانقلاب إلى السلطة، وساعدهم الاتحاد السوفيتى بقوته وسقطوا بعجزهم الذاتى عن الاحتفاظ بما عندهم! ■

حجم المشكلات التى تنتظر أفغانستان «بعد التحرير»، واختارت أن تبتعد بمنطق أنه ليس لديها وقت تضيعه مع أمراء الحرب وشيوخ القبائل والعشائر وقادة الميليشيات وزراع وتجار الأفيون، خصوصا أن الشعب الأفغانى العادى راح يتطلع بعد انتهاء الحرب إلى عهد من السلام والرخاء يعوضه عما قاسى منه، والسياسة الأمريكية أول من يقدر أنه الأمل المستحيل.

وكذلك فإن القرار الأمريكى ترك «المعمعان» لأهله وخرج من أفغانستان بجوائز النصر دون الانتظار حتى تستحق ضرائبه!

ثم كان بعد الخروج الأمريكى من أفغانستان أن معظم الحشد الذى جمعته الولايات المتحدة للجهاد ضد الإلحاد انفضّ سامره وتفرق جَمْعَهُ.

(ويستحق الملاحظة هنا أن دولا عربية أرادت أن تخرج من المغامرة الأفغانية وتقطع كل صلة بها، لكن الحقائق التى نشأت ونمت فى أفغانستان راحت تطارد هذه الدول، ذلك أن العناصر التى جرى شحنها وتعبئتها وتحريضها على الجهاد ضد الإلحاد جنحت إلى ظن أنه لم يعد أمامها الآن غير أن تعود «كى تجاهد فى أوطانها» - وكانت لهذه الظنون نتائج مأساوية بالذات فى أوطان مثل الجزائر ومصر)!

لكنه بقى على الساحة الأفغانية - عدد من أمراء الحرب يتابعون ما انتظروه بعد خروج السوفييت وبعد نجاح الجهاد فى هزيمة الإلحاد، وكان وراء هؤلاء الأمراء بلدان ليس فى مقدور أيهما أن ينسحب وينسى:

- أولهما، بسبب الجوار الجغرافى وتبعاته: أى باكستان.
- والثانى، بسبب عمق وتشعب التزاماته: أى المملكة العربية السعودية.

وهكذا فإنه فى الفترة التى أعقبت الخروج السوفيتى من أفغانستان والسقوط الشيوعى فى «كابول»، وهى الفترة ما بين ١٩٩٢ إلى عام ١٩٩٤ - لم يكن أمام البلدين المربوطين بـ «العمل الإسلامى» فى أفغانستان (باكستان والسعودية) - غير الوقوف وراء خليط من أمراء الجهاد الأفغان ينتظرون الغنائم وبالقرب منهم بقايا من تنظيمات الجهاد وشراذم شبابه الذين وجدوا أنفسهم بلا غطاء!

وخلال تلك الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٤ أصبحت أفغانستان أرضا موحشة لنوع مخيف من الفوضى الدموية حركته نزعات الكراهية القديمة، وغرائز الانتقام المستجدة - والطمع فى بقايا الذهب على قاع صناديق الجهاد - وقبل ذلك السباق المحموم إلى زراعة وتجارة الأفيون.

وربما أن شخصية رجل مثل الجنرال «عبد الرشيد دوستم» (نائب وزير الدفاع الأفغانى اليوم) - وكما صَوّر ملامحها «أحمد رشيد» فى كتابه عن «طالبان» - ترسم لوحة لمحنة أفغانستان من خلال شخصية رجلها القوى (الأوزبكى) فى تلك اللحظة!

ويروى «أحمد رشيد» فى كتابه «طالبان» أنه وصل إلى لقاء مع الجنرال «دوستم» فى عاصمته مزار شريف عام ١٩٩٣، ثم دخل إلى ساحة قلعة «كالاى جانجى» - وهى مقر القيادة - فى انتظار دعوته لمقابلة «دوستم»، ولفت نظره أن حائط أحد الجدران ملطخ بدم تُصَوَّرَه دم ذبيحة (عنزة) أُعِدّت طعاما للمقاتلين، لكن عميد الصحفيين الباكستانى لاحظ إلى جوار الدماء بقايا عظام، دعته إلى سؤال مرافقه، وكان الرد الذى تلقاه:

«إن جنديا اتهم بعصيان الأوامر، وحكم عليه الجنرال «دوستم» بالإعدام «هَرْسًا»».

وكان «أحمد رشيد» قد سمع عن الإعدام شنقا، وعن الإعدام رميا بالرصاص، وعن الإعدام على الكرسى الكهربائى (فى أمريكا)، لكنه لم يسمع من قبل عن الإعدام «هرسا» واستوضح، وجاءه الشرح:

«وضعناه أمام دبابة تمر فوقه جيئةً وذهابًا عدة مرات حتى نتأكد أن جسمه أصبح لحما مفروما لا يصلح إلا لعمل «كفتة» إذا كان هناك من يأكلها!».

وكان الجنرال «دوستم» فى تلك الفترة (وهو الآن مرة أخرى) صاحب أقوى جيش فى تحالف شمال أفغانستان، وكانت قاعدته (وهى الآن مرة أخرى) «مزار شريف» عاصمة الشمال الأوزبكى، وحين علا نجم الجنرال «دوستم»، فقد ظهر مواليا للشيوعية وحليفا للجيش السوفيتى وسندا لحكومة «نجيب الله» وظل كذلك طوال الثمانينيات، وفجأة انقلب على الأصدقاء والحلفاء وانضم إلى تحالف الشمال، ثم انشقّ على تحالف الشمال ووصل الانشقاق إلى صدام بالدبابات خسر فيه «دوستم» وخرج من أفغانستان - لكنه عاد إليها بعد سنوات من الغيبة ليعقد صلحا من جديد مع تحالف الشمال، وكان بين أطراف هذا الحلف عندما بدأ الضرب الأمريكى الجوى الكثيف فى شهر أكتوبر الأخير، وفى حمى الضرب الكثيف تقدم «دوستم» وسبقَ الجميع إلى احتلال «مزار شريف»، ثم دفع جيوشه (حوالى ٤٠٠٠٠ مقاتل ومعهم ٣٠٠ دبابة و١٥٠ طائرة) حتى وصلت طلائعها إلى «قندهار»، وهناك طلبت إليه القيادة الأمريكية أن يلتزم باتفاقه ويتراجع بقواته حتى لا يثير حربا أهلية بين «الأوزبك» و«البشتون» فى «قندهار» - ليس هذا مكانها ولا زمانها.

وكان الجنرال «دوستم» بطل مذابح رهيبة قدرت جريدة «الإندبندنت» البريطانية ضحاياها «فى حدود مائة ألف قتيل وبضع مئات ألوف من الجرحى»!

ولسنوات ممتدة كان الجنرال وضباطه كلما سنحت لهم الفرص - (وقد عادت الفرص وسنحت لهم) - من أكبر القوى المسيطرة على زراعة وتجارة المخدرات، وقد تحول الجنرال «دوستم» ورجاله بالجريمة إلى أكبر مُلاك للأراضى والعقارات، وكانوا هم الخاطفون والمغتصبون للزوجات والبنات والصبيان فى «المناطق المحررة»، وأخيرا كان «دوستم» صانع مذبحة قلعة «كالاى جانجى» حيث جرى قتل مئات الأسرى من جنود طالبان بعد أن حصلوا على عهد أمان عندما اقتربت قوات «دوستم» من «قندهار» لبضعة أيام أواخر شهر نوفمبر الماضى. وخلافا لعهد الأمان أمر «دوستم» بقتل ستمائة أسير وهم مقيدون بالحبال من أرجلهم وأيديهم، بعضهم بالرصاص، وبعضهم بالسكاكين، وبعضهم هَرْسًا. (وكانت القوات الجوية الأمريكية تحمى من الجو وتغطى، وهذه مذبحة سوف تكون يوما من الأيام موضع تحقيق؛ بوصفها جريمة حرب بكل المعايير!)

ويبقى أن «دوستم» مجرد نموذج لقادة سياسيين وعسكريين حولتهم القوى وحروبها - خارجية وداخلية - تحريرية وجهادية - إلى تجار فى الأرواح والدماء والسلاح والأفيون. وكان هؤلاء هم أبطال الكابوس الذى عاشته أفغانستان ما بين ١٩٧٩ وحتى ١٩٩٢. ■

الورقــــة الثــــامنة:

أمــريكا تحــتكر غنائم الجهــاد وتتــهـرب من ضــرائبــه!

■■ فى السنوات الثلاثة ما بين انسحاب الجيش السوفيتى ١٩٨٩، وعبور دباباته فوق «جسر الصداقة» الذى يربط ضفتى «نهر خورس» عائدة من أفغانستان إلى جمهورية أوزبكستان السوفيتية (فى ذلك الوقت)، وحتى سقطت الحكومة الشيوعية التى تركها الجيش السوفيتى وراءه فى «كابول»، ولجوء رئيسها (١٩٩٢) إلى مقر الأمم المتحدة طالبا حمايته - كانت السياسة الأمريكية قد حققت انتصارها كاملا فى الحرب الباردة وكان الاتحاد السوفيتى قد خسر معركة «الأفكار» رغم أوهام ساورته بأن النصر فيها حتمية تاريخية من نصيبه.

....

....

[لكن الحتميات التاريخية ليست صوابا فى معظم الأحيان، لأن ثقتها الزائدة فى مقولاتها المُعَلّبة تعزلها عن حركة التغيير ثم تترسخ هذه العزلة حين تتولى المسئولية عنها بيروقراطيات دولة تزعم أن الزمن معها، وأن الحقيقة ملكها - باستنادها كما تحسب إلى عقيدة فى التطور تزعم لنفسها قوة القانون الطبيعى!]

....

....

ثم حدث بعد النصر أن الولايات المتحدة تصرفت إزاء «الجهاد الإسلامى» فى أفغانستان بسرعة متناهية وإذا هى تهجر الساحة الأفغانية وكأنها لم تكن هناك:

- ولعل الولايات المتحدة تصرفت بفهم لطبيعة العقائد حين يقع استخدامها لأهداف سياسية - بينما المنطق يعلم أصحابه أن عوامل السياسة متحولة والعقائد ثابتة، ومعنى ذلك أن هناك تناقضا قادما بالضرورة بين المتحول والثابت.
- أو أنها تصرفت عن حِسْ استراتيجى يدرك متى بداية الأشياء ومَتى نهايتها، أى بحساب الواقعية: يُقَدِّر أن قيمة الأشياء تنتهى حين تنتهى الحاجة إلى استعمالها! - وأيا كان السبب فإن الولايات المتحدة:

- سارعت فور سقوط الاتحاد السوفيتى بالانسحاب من إدارة الجهاد ضد الإلحاد فى أفغانستان - وأوقفت دورها فى التمويل، خصوصا أن قضية تجارة المخدرات تفجرت كواحدة من أظهر القضايا فى مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة - كما سحبت كل أثر لوجودها على أرض الصراع، إلى درجة أن مكتب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى «بيشاور» جمع أوراقه فى ليلة واحدة وطلع الفجر وإذا مقره مبنى خال من أى مسئول.

ومن وجهة نظر «الاستراتيجية الأمريكية» فإن الأهداف كانت تحققت:

- ما رسمه «أيزنهاور» و«دالاس» (إطلاق الأفكار قبل إطلاق النار بما فى ذلك «الجهاد ضد الإلحاد») - وقع تنفيذه وبلغ مطلبه بالتزام إدارات جمهورية وديمقراطية واصلت نفس المطالب الاستراتيجية أربعين سنة.

- وفضلا عن تحقيق الهدف فإن الولايات المتحدة أدركت بحس الإمبراطورية أن البقاء فى أى موقع بعيد - مثل أفغانستان - بعد تحقيق الهدف، يحمل مسئوليات قد يطول أمرها مثل إقامة نظام حكم أو يحمل أعباء مثل إعادة التعمير، وكله مما لا تريد الولايات المتحدة أن تتحمله.

- وفى الواقع فإن السياسة الأمريكية قدرت

الورقة التاسعة:

طالبان: خروج من التاريخ واستغناء عن الذاكرة!

كانت الولايات المتحدة تملك أن تبتعد عن الساحة الأفغانية وتترك كابوسها لأهله - وكذلك كان في وسع دول أخرى عربية وغير عربية أن تلملم حوائجها وتخرج - أو تحاول، لكن باكستان والسعودية كان مكتوبا عليهما البقاء في أفغانستان: لأن كلتيهما لها فيها استثمارات وأرصدة سياسية لا تستطيع الاستغناء عنها، وكذلك ديون لا تستطيع بِجَرَّة قلم أن تشطبها من الدفاتر وتنساها.

وكان مشروع «المدارس الشرعية» أهم الاستثمارات المشتركة بين بلدين حاول كلاهما لأسبابه ودواعيه أن يتخذ لنفسه نوعا من «الشخصية الإسلامية» تقدم سياساته الدولية والإقليمية والمحلية وتخدمها.

وفي الظروف المستجدة بعد الخروج السوفيتي من أفغانستان، كان مشروع «المدارس الشرعية» ملتقى السعودية وباكستان ولكل من البلدين دوافعه:

■ كانت دوافع باكستان في المشروع المشترك «للمدارس الشرعية» ترجع إلى جذور تاريخية ودينية معظمها من القرن التاسع عشر مع يقظة مسلمي الهند، وقد توافق المشروع مع بروز السلفية الإسلامية (الوهابية والمهدية والسنوسية) أوائل ذلك القرن، وكلها تدعو المسلمين بأسلوب أو آخر إلى عودة لأصول العقيدة تطهر نفسها من البدع الطارئة، باعتبار أن ذلك في نظر أئمة السلفية (خصوصا محمد بن عبد الوهاب) طريق النهوض. (وكانت دعوة ابن عبد الوهاب رد فعل طبيعيا على تحركات في الخليج العربي أمام شواطئ شبه الجزيرة العربية تومئ إلى سباق إمبراطوري عنيف تشارك فيه بريطانيا وأسبانيا والبرتغال وفرنسا، تحاول كلها أن تعزز مواقعها في آسيا).

وعلى هذا السياق ظهرت في شبه القارة الهندية تيارات ودعوات جياشة وجماعات منظمة وفاعلة، والمهم - في هذا الحديث - أنه مع قيام دولة باكستان، ومع الدور الخاص فيها للجيش الباكستاني - نشطت الدعوة إلى إنشاء مدارس شرعية تساعد في المحافظة على رباط الإسلام بين المسلمين الذين بقوا في الهند (وهم وقتها ٦٠ مليونا والآن أكثر من ضعف هذا العدد)، وبين باكستان دولة الإسلام البازغة في غرب الهند وشرقها، وفيها أعظم أقاليمه: «البنغال» وقتها و«البنجاب» و«السند» ومقاطعات الشمال الغربي (الأسطورية على مداخل جبال الهملايا).

وكانت المدارس الشرعية أقرب إلى نوع من الكتاتيب يدخلها الصبيان من سن الخامسة حتى سن الخامسة عشرة، وفيها يتعلمون «القرآن» (وهم لا يعرفون لغته)، ويدرسون الشريعة (وقد تأثرت برواسب ثقافية مما ترسخ في شبه القارة الهندية)، ويعبئون بحمية الجهاد (لأنهم يعيشون داخل أو قرب مجتمعات جهل وجاهلية تعبد الأصنام وتقدس الحيوانات)!

وفي الواقع فإن أكثر انتشار المدارس الشرعية وأوسع نشاطها جرى في مناطق تكدس اللاجئين بعد تقسيم الهند وعقب موجات الهجرة الإسلامية التي تحركت نحو باكستان دون إعداد وبغير استعداد!

ونتيجة لذلك فإن «تلاميذ هذه المدارس» أصبحوا نموذجا من «جند الله» (كما أطلق عليهم)، غريبا كما هو فريد: فهم شباب بلا جذور في أرض، ولديهم تعليم ديني وشرعي بالتقليد لأن لغة الدين والشرع غائبة، ثم إنهم حشد مقطوع الصلة بالتاريخ، مستغن عن الذاكرة، ورباطهم وولاؤهم هو السمع والطاعة بالبيعة لمعلم لم يخرج طول عمره من قريته أو من معسكر اللاجئين الذي وجد نفسه فيه، إلى جانب أن حياتهم متقشفة خشنة بواقع الفقر وبأساس التربية، وفي الحالتين فكلهم «منذور» لله وللدعوة والجهاد عندما يرتفع صوت المؤذن يدعو جند الله إلى ساحته.

■ وكان دخول المملكة العربية السعودية شريكا في مشروع «المدارس الشرعية» (الذي ساعد على وصول عددها زيادة على ٢٨ ألف مدرسة) خطوة لها مقدمات مهدت لها وأوصلت إليها:

١- أن ثورة أسعار النفط (في بداية السبعينيات) أحدثت زلزالا اجتماعيا في المملكة، فقد نزل عليها غنى أيقظ لدى أهلها أملا في درجة من التنمية ودرجة من المشاركة في الثروة والسلطة - ولكن ذلك لسبب أو آخر لم يتحقق على النحو الذي تمناه الناس.

٢- وأنه مع ثروة «زائدة» ومع توزيع لهذه الثروة مشوه، فقد ظهرت أشكال وألوان من الاستهلاك والترف أثارت ردة فعل أخلاقية ودينية في بلد يسود فيه الخطاب الأصولي، وهكذا فإن المعارضة ضد هذه الأوضاع - انتقلت إلى عناصر متشددة في فكرها، صارمة في تعبيرها.

٣- وبما أن الدولة السعودية كانت شركة بين الفقيه (الإمام محمد بن عبد الوهاب) وبين الأمير (الشيخ سعود الكبير)، فإن الخلاف راح يظهر بين «الوهابية» التطهرية في الدعوة وبين «السعودية» المهيمنة على الحكم.

٤- وعندما هبت رياح الثورة الإسلامية في إيران (طوال سنة ١٩٧٨ و١٩٧٩) - فقد حركت مشاعر المواطنين الشيعة في المنطقة الشرقية، وجرت مظاهرات تأييد لها في «القطيف» - لفتت النظر إلى أن الجبهة الداخلية للمملكة مكشوفة.

٥ - وفي تلك الأجواء قام شاب من غلاة «المتطهرين» ومعه جماعة من الأنصار، باحتلال الحرم الشريف في مكة المكرمة (نوفمبر ١٩٧٩)، ودعواهم أن النظام ليس مؤهلا لحماية البيت الحرام، وكان زعيم هذه الجماعة وهو «محمد جهيمان العتيبي» ينتمي - كما هو ظاهر من اسمه - إلى قبائل «عتيبة» بمكانتها في شرق الجزيرة العربية (موطن الوهابيين).

(ويروي جون كولي في كتابه «حروب غير مقدسة» أن: الحكومة السعودية التي فوجئت باحتلال الكعبة - وظلت عاجزة لأيام عن تخليصها، ثم لم تجد في النهاية بُدًا من استئجار فرقة «كوماندوز فرنسية» جاءت دون إعلان واقتحمت الكعبة وخلصت ورحلت بهدوء بعد تحصيل أتعابها، لكن تحرير الكعبة بهذه الطريقة ترك في حلوق المؤمنين مرارة شديدة!)

٦- ومع ذلك كله وفي أعقابه - وبمنطق الدفاع أيضا - فإن المملكة زادت نشاطها الإسلامي وفتحت خزائنها تُمَوِّل وتساعد باكستان، في كافة المجالات سياسية وعسكرية واقتصادية - والأهداف إسلامية: أمنية وجهادية في نفس الوقت!

ولم يكن مشروع المدارس مجرد تطوع - بل كان كذلك منفعة مباشرة، والسبب أن هذه المدارس ونشاطها فتح أمام الرياض بأكثر مما حسبت مجالا ومتنفسا لعناصر إسلامية متشددة أو متطهرة أو مجاهدة ظهرت داخل المملكة، وكان الأسلم للمملكة تسهيل خروج هذه العناصر إلى بعيد حيث تمارس كل ما تشاء من تشدُّد وتطهُّر وجهاد.

وهكذا فإن الإسلام الذي تعرض لمحاولة توظيف ضد الإلحاد (في أواخر السبعينيات)، تعرض (أوائل التسعينيات) مرة أخرى لمحاولة التوظيف مع اختلاف الظروف، في المرة الأولى خطفه الأمريكان كما تخطف الطائرات، واستعملوه ضد الاتحاد السوفيتي، وقضوا غرضهم فيه ثم تركوه ورحلوا، والآن جاء الدور على قوى محلية (باكستان والسعودية) وكلتاهما ظهرت لها الآن أغراض مستجدة.

- الجيش الباكستاني (الذي تابع ما فعله الجهاد بالسوفييت) يحلم ويخطط حتى يتحول شباب المدارس الشرعية إلى مجاهدين في كشمير ضد الهند.

- والنظام السعودي (الذي يريد تأمين المملكة من الداخل) يجدها فرصة مفتوحة لتصدير المجاهدين، يبشرون ويعلمون في المدارس الشرعية ويدرسون ويحرضون كما يحلو لهم، شريطة أن يكون جهادهم وثوابهم بعيدا عن المملكة!

وكذلك ظهرت على الساحة حركة «طالبان»: بمعنى الدرس وبمعنى الطلب!

جيش من التلاميذ على استعداد للجهاد في سبيل الإسلام، ومعرفتهم بالدين هي ما تلقوه في المدارس الشرعية التي التحقوا بها في قرى باكستان وفي معسكرات اللاجئين قرب مدنها، وفي مدارس «قندهار» الموصولة جغرافيا وتاريخيا بالمقاطعة الشمالية الغربية لباكستان وعاصمتها «بيشاور».



وهكذا فإنه عندما تصارع أمراء الجهاد الأفغاني ضد الإلحاد وأوقعوا أفغانستان في كابوسها الرهيب بعد الانسحاب السوفيتي عام ١٩٩٢ - كان الوطن الأفغاني في حاجة إلى خلاص - وكان الخلاص الجاهز المهيأ قرب الساحة هو: «طالبان» التي أصبحت جيشا جرارا من «جند الله» (ما بين خمسين إلى ستين ألفا غير عشرات ألوف أخر جاهزون لمطالب حفظ الأمن وحراسة الطرق وعدد من الأعمال الإدارية) تحت قيادة مدرس شرعي سابق هو «الملا محمد عمر» وهو رجل عرف الجهاد وأخلص فيه وضحى حتى فقد عينا وقدما، ومع الملا عمر جمع أحاط به من «رفاقه» وكلهم متشدد متطهر مجاهد بايعه شبابه على السمع والطاعة حتى الموت.

وبالطبع فإن التوجه السياسي وراء «جند الله» كان بحكم الحقائق على بلدين كُتِبَ عليهما البقاء في أفغانستان بعد أن تفرّق الحشد الكبير الذي تداعى للجهاد ضد الإلحاد (على طريقة برجينسكي) وهما: باكستان والمملكة العربية السعودية.

وهنا فإن كلا من البلدين عهد إلى مسئول فيه أن يتولى باسمه التوجيه السياسي:

- الجنرال حميد غول رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية ممثلا لبلده.

- والأمير تركي بن فيصل رئيس المخابرات السعودية ممثلا لبلده.

وتحركت «طالبان» ولديها مهمتان:

- إزالة الشر من أفغانستان تجسده جماعات الجهاد الإسلامي ضد الإلحاد، وقد ضلّت طريقها بعدما انتهى خيرها وتفاقم شرها.

- ثم إنقاذ سمعة الجهاد الإسلامي بين شعوب الأرض التي كانت تتابع - مستغربة ! - كيف تَحَوَّل الجهاد في سبيل الله إلى فساد في الأرض؟

الورقة العاشرة:

أمير المؤمنين فى أفغانستان!

وخطوة بعد خطوة بدأت قوات طالبان تتقدم فى أفغانستان، ولأن أجواء «طالبان» كانت «بشتونية» فإن دخولها وتمركزها فى إقليم «قندهار» جرى سهلا. كما أن انضباطها بعد انحلال جماعات الجهاد السابقة حمل سمعة طالبان التطهرية إلى بعيد، ومن ثم انفتحت أمامها ولايات الوسط (الهازارا)، وولايات الشمال (الأوزبك والطاجيك) ومع أن دخول هذه الولايات جميعا وتوطيد أركان السلطة فيها (بحد السيف) لم يكن سهلا - إلا أن المشكلات الحقيقية بدأت على الفور وكلها مما كان منتظرا إذا استطاع النظر أن يمد رؤيته إلى ما هو أبعد من موقع قدميه:

- ذلك أن المدارس الشرعية لا تؤهل تلاميذها لشأن دنيوى، خصوصا إذا وضعت الظروف بين أيديهم مسئولية شعب ودولة وسلطة.

- ثم إن تلاميذ المدارس الشرعية لا يعرفون وطنا ينتمون إليه، فمعظمهم من معسكرات لاجئين ترسخت هويتهم فيما تلقوه عن شيوخ مدارسهم، وفى غيبة انتماء وهوية فإن فكرة الوطن أصبحت بلا حدود كما أن صورة العالم كانت بلا شكل.

- وتلاميذ المدارس الشرعية ذكور لم يختلطوا فى حياتهم بالجنس الآخر، فقد عاشوا بلا أم ولا زوجة ولا أخت ولا صديقة، فإذا ظهرت امرأة فهى «شبه جارية» مملوكة لسيدها «محجوبة عن غيره» ثم إن لها فى الحياة وظيفة واحدة!

- وأخيرا وبمنطق أن البشر فى هذه الدنيا للعبادة فى انتظار الثواب فى الآخرة، فإن فكرة صنع مستقبل من نوع ما، لم تكن تضغط على قيادات طالبان.

وكذلك راحت شئون الدولة ومسئوليات الحكم وطموحات المستقبل تُسَيِّر نفسها على نحو لا يتناسب مع العصر وربما مع كل العصور. ويورد «أحمد رشيد» فى كتابه «طالبان» ملحقا يضم بعض الوثائق بينها الإعلان الأول الذى صدر عن حركة طالبان عندما «يسر الله عليها بفتح كابول»!

ونص الإعلان كما يلى:

إعلان صادر عن رئاسة الأمر بالمعروف - كابول (ديسمبر ١٩٩٦):

١- لصيانة النساء من الغواية فلابد لهن أن يرتدين الحجاب، كما أنه لا يسمح لأى سائق عربة أو سيارة بنقل امرأة ترتدى الحجاب الإيرانى: لأنه لا يكفى للتغطية الشرعية، وفى حالة المخالفة فإن السائق سوف يُحكم عليه بالسجن، كما أنه إذا صادف البوليس الشرعى امرأة تمشى فى الطرقات بالبرقع الإيرانى وحده، فسوف يُقبض عليها، وإذا تواجدت امرأة فى طريق دون رجل من أهلها فسوف يتم القبض عليها.

٢- تُمنع الموسيقى وقد يُحظر إذاعتها من أى وسيلة إعلامية عامة. كذلك يُحظر على المحلات والفنادق والسيارات والعربات أن تستعمل أجهزة تسجيل الغناء وإعادتها لأن ذلك ممنوع، وهذا الأمر لابد أن يُطبق خلال خمسة أيام، وإذا وُجدت أى أدوات موسيقية فى محل، فإن صاحب المحل سوف يُسجن والمحل سوف يُغلق. ويُفتح المحل فقط فى حالة تقدم خمسة أفراد لضمان أن صاحب المحل لن يعود إلى ارتكاب المخالفة مرة أخرى، وإذا وجدت شرائط موسيقية فى سيارة فإن السيارة سوف تُصادر والسائق سوف يُسجن ويمكن الإفراج عن الاثنين فى حالة تقدم خمسة أفراد بضمانات بعدم تكرار المخالفة.

٣- يُمنع حلق اللحى أو قصها وفى ظرف شهر ونصف شهر من الآن، فإن أى رجل يُضبط حالقا ذقنه أو قاصًا شعرها، سوف يُقبض عليه ويُسجن حتى تكبر لحيته إلى حدها الشرعى.

٤- يُمنع منعا تاما الاحتفاظ بأبراج الحمام واللعب بالطيور وخلال عشرة أيام، فإن هذه العادة أو الهواية لابد أن توقف وبعد عشرة أيام سوف يجرى تفتيش يضمن تنفيذ هذا البند، وإذا ظهرت مخالفة له فإن المسئول يُقتل.

٥- يمنع منعا باتا اللعب بالطائرات الورقية وكل محلات بيع مثل هذه الطائرات الورقية يجب إغلاقها.

٦- لمنع الشرك بالله فإن كل صور أو رسومات فى حجرات البيوت أو فى المحلات أو فى الفنادق أو فى أى مكان آخر، لابد أن تُرفع، وسوف يُكلف المسئولون بالتفتيش للتأكد من تنفيذ ذلك الأمر فى أى مكان.

٧- يُمنع القمار منعا باتا، ويُطلب من كل من يعرف بمكان يجرى فيه اللعب أو بأفراد يشاركون فيه، أن يُبلغ عن ذلك وسوف يجرى سجن كل اللاعبين والمتواطئين على السكوت وإغلاق المكان.

٨- يمنع الإدمان والمدمن يُوضع فى السجن ويُحقق معه حتى يعترف بالمكان الذى حصل منه على المادة التى يستعملها لكى يتسنى عقاب صاحبه وسجنه.

٩- لمنع تصفيف الشعر على الطريقة الإنجليزية أو الأمريكية فإن من يضبط متلبسًا بتصفيف شعره على هذا النحو سوف يتولى البوليس الشرعى حلق شعره وتغريمه أجر الحلاق!

١٠- لمنع الفوائد على القروض وعلى تغيير العُملة فإن هناك لوائح سوف تصدر للتطبيق فى هذا المجال وسوف يُسجن كل مخالف لها لمدد طويلة.

١١- يُمنع غسيل الملابس فى المجارى العامة للمياه فى المدينة بواسطة الشابات من النساء، وكل شابة تُضبط متلبسة بهذا الفعل سوف يُقبض عليها وتُعاد إلى بيتها ويُعاقب زوجها بالحبس.

١٢- تُمنع الموسيقى والرقص فى حفلات الزواج، وفى حالة المخالفة فإن رئيس العائلة سوف يُقبض عليه ويُعاقب.

١٣- يُمنع منعا باتا استعمال الطبول، وإذا ضُبط أحد متلبسًا بمخالفة ذلك، فسوف يُوقع عليه العقاب المناسب.

١٤- يُمنع منعا باتا أخذ مقاييس جسد أى امرأة بغرض تفصيل ملابس لها حتى ولو كان القائم بالعمل امرأة أخرى.

١٥- يُمنع ممارسة أعمال السحر بقصد الإضرار بالآخرين وكتب السحر جميعا سوف تُصادر وتُحرق، كما أن كل من يشيع عنه استعمال ألعاب الحواة سوف يوضع فى السجن.

١٦- تُوقف كل وسائل المواصلات وقت أداء الصلاة وأى شخص يوجد فى شارع أو فى محل فى هذا الوقت يُقبض عليه فورا.

الورقة الحادية عشرة:

طالبان: البداية والنهاية!

بهذا الإعلان للحقوق والواجبات - وغيره على مثاله - بدأ عهد «طالبان» فى أفغانستان - وسط عالم يعبر نهاية القرن العشرين إلى فاتحة القرن الحادى والعشرين، ثم مضت «دولة المتطهرين» تنشئ دولتها بعد أن أعلنت مواثيقها وأقامت سلطتها وتمكنت من إزاحة بقايا مليشيات المجاهدين إلى ركن فى شمال أفغانستان باندفاع لا تفسير له غير أن تلك المليشيات تآكلت وتحللت من الداخل بالكامل!

وكانت عملية تنظيم دولة طالبان بسيطة: إعلان أفغانستان إمارة إسلامية - ومبايعة «الملا محمد عمر» أميرا للمؤمنين له وحده السمع والطاعة - وإنشاء مجلس الشورى إلى جانب أمير المؤمنين له حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - وتولى بعض أعضاء مجلس الشورى على رأس وزارات الدولة، أو ما بقى منها (خصوصا وزارة للخارجية لأنه كان لابد منها حلقة اتصال بين عالم طالبان وعالم بقية الدول).

على أن الصلات مع العالم كانت تحتاج إلى نصح، وذلك دور تفردت تقريبا به: المخابرات العسكرية الباكستانية، أو انفرد به بعض ضباطها بصفة شخصية: لأن ارتباطهم بالحركة كان وثيقا، ولأن طالبان كانت «سلاحا مأمولا فيه» لمرحلة تالية عندما يحين وقت تنشيط العمل العسكرى ضد الهند فى كشمير.

ولم يكن للمملكة العربية السعودية اختصاص واسع فى تلك الأحوال: لأن دورها انحسر فى تقديم المساعدات المالية، خصوصا بعد أن أثبتت أفغانستان فائدتها مرة أخرى مجالا لـ: «نفايات سياسية» خطرة على الأرض السعودية، فى حين أن أراضى أفغانستان وأحوالها ومناخها - مجال واسع أمامها يستوعب الجهاد، وما يصاحبه من شحن دينى - جهادى - قد يفلت عياره!

● ومنذ بداية زمانها تلقت طالبان من أصدقائها فى المخابرات العسكرية الباكستانية ما طمأنها إلى مواقف إسلام آباد حيالها مهما تغيرت هناك الحكومات. والشاهد أنه عندما حققت طالبان سيطرتها على أفغانستان كانت رئاسة الحكومة فى إسلام آباد فى عهدة السيدة «بناظير بوتو»، وفجأة وقع انقلاب دستورى فى باكستان، وضع رئاسة الحكومة فى عهدة السيد «نواز شريف»، وفجأة - مرة أخرى - وقع انقلاب عسكرى، لكن الجيش احتفظ لنفسه برئاسة الدولة وأسندها للجنرال «برفيز مشرف». وبرغم هذه الانقلابات، فإن طالبان بصلتها بالمخابرات العسكرية الباكستانية، وبدور المخابرات العسكرية الباكستانية فى إدارة الصراع مع الهند - ضمنت لنفسها وضعا جعلها «حالة خاصة» تحظى بدعم متواصل بسبب علاقتها مع مؤسسة الأمن القومى فى باكستان.

....

....

[ولعل المخابرات العسكرية الباكستانية ساعدت دون قصد

واشـــنطن تـؤذن للجهـــاد

على سقوط دولة «طالبان».. فعندما وجهت الولايات المتحدة إنذارها إلى «الملا عمر» بتسليم «بن لادن» وإلا... ـ ويعث الجنرال «برفيز مشرف» إلى «مزار شريف» بوفد عسكري باكستاني يتولى إقناع «الملا عمر» ومجلس شوراه بجدية التهديد الأمريكي ـ فقد تبين فيما بعد أن الوفد العسكري الباكستاني حَرَّضَ «الملا عمر» على الرفض بدلا من إقناعه بالقبول، وكان رئيس المخابرات العسكرية الباكستانية الذى رَأسَ الوفد يرى أن التهديد الأمريكي ليس جديا، وأن قبوله هو التهديد لطالبان؛ لأنه يفقدها احترامها بين المسلمين! وربما أن عناصر في المخابرات العسكرية الباكستانية وأصدقاءها من المجاهدين القدامى والجدد كرهوا إلى حد الموت طرفا دوليا استعملهم ثم تركهم في العراء عندما لم تعد له فيهم مصلحة، وهو الآن يوشك أن ينزع منهم سلاحا أعدوه لإزعاج الهند في كشمير!]

....

....

وكانت المملكة العربية السعودية تواصل مساعداتها المالية، لكن العبء راح يزيد، وأسعار البترول تتراجع والمملكة تتأخر مدفوعاتها، وجاءت نجدة المقادير لدولة المتطهرين، حين أقبلت بعض شركات البترول الأمريكية المعنية بموارد وسط آسيا الغنية (وهى المنطقة المرشحة لأن تكون إضافة مهمة توازن نفط الخليج العربى) ـ تبحث مع حكومة طالبان مشروع خطوط أنابيب ينقل النفط وسط الجبال والوديان التى تسيطر عليها دولة المتطهرين.

لكن العقود مع شركات البترول الأمريكية طالت، ومدفوعات السعودية تعثرت، وكان على «طالبان» أن تبحث لنفسها عن مصادر إضافية للتمويل لا تجعلها رهينة لطرف، خصوصا أن أصدقاء لها من المتطهرين الوهابيين لم يكفوا عن نصح إمارة المؤمنين الجديدة بألا تترك نفسها رهينة لعطايا المملكة وحدها أو شركات النفط الأمريكية معها.

وكذلك مضت «طالبان» تبحث لنفسها عن موارد جديدة، تكون بديلا لما يغنيها إذا دعا الأمر، خصوصا أنها كانت ـ أيضا ـ في حاجة إلى فتح مزيد من المدارس سندا ومددا لا ينقطع من «جند الله».. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك نوع من الإنفاق الضروري لإصلاح الطرق وتجديد وسائط النقل، وإنشاء شبكة اتصال تربط مواقع السيطرة في الإمارة مع بعضها (لأن دولة المتطهرين تحتاج صلابة في رقابتها على الأمور توازي الصلابة في صدق الإيمان).

وأمام الاحتياج إلى المال يضغط كل يوم، فقد اكتشفت «طالبان» ما توصل إليه غيرها من حكام أفغانستان قبلها أي «الأفيون».

وهنا أصدر أمير المؤمنين فتوى من أغرب ما صدر عن المجتهدين في التاريخ مؤداها أن:

«زراعة الأفيون وتجارته مباحة شرعا، وأما زراعة الحشيش وتجارته فهى محرمة شرعا». والداعي: أن الأفيون تقع زراعته وصناعته بهدف التصدير ولذلك ينزل ضرره على غير المؤمنين، وأما الحشيش فإنه يُستهلك محليا ولذلك ينزل ضرره على المؤمنين!

وعلى هذه الأرضية استجد عاملان:

ـ العامل الأول: أن «أسامة بن لادن» وجد في إمارة أفغانستان الإسلامية قاعدة لدور تصوره لنفسه.

وكان «أسامة بن لادن» من الأصل شابا من أسرة سعودية عملت في مجال المقاولات وحققت غنىً فادحا حين أوكل إليها مشروع توسعة الحرم الشريف في مكة بتكلفة قدرها خمسون بليون دولار (وهو مشروع يستحق تقدير كل مسلم ولكن تمويله وملابسات هذا التمويل أثارت ومازالت تثير جدلا واسعا في السعودية).

وكان «أسامة بن لادن» قد اتصل بعمليات المجاهدين الأولى في أفغانستان حين وقع استخدام مكتب المقاولات الذى كان مسئولا عنه في «كابول» ـ واجهة من واجهات تمويل النشاط الجهادى، وتفويت الأموال اللازمة لهذا النشاط من مصادرها الأصلية إلى طلابها في الميدان.

وفيما يظهر فإن «أسامة بن لادن» كان في تلك الأوقات صديقا مقربا من الأمير «تركى بن فيصل» رئيس المخابرات السعودية، وكان حلقة وصل بينه وبين جماعات جهادية مختلفة في أفغانستان وخارجها!

لكن «أجواء الجهاد» أخذت «أسامة بن لادن» فاندمج فيها، ولم يعد مجرد واجهة أو وسيط أو ممول، وإنما تحول بدوره إلى فاعل قائم بذاته وصاحب أمر ونهى. وتلك ليست أول مرة في التاريخ يصبح فيها الوكيل أصيلا أو التابع مستقلا!

وفي النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين، وكانت مرحلة الجهاد الأولى قد انتهت، ومرحلة طالبان لم تبدأ بعد ـ طاف «أسامة بن لادن» على بلدان عديدة من الصومال إلى السودان إلى اليمن، وظهر له ظل على مواقع عمليات دموية تلاحقت في القرن الأفريقي أو بالقرب منه ـ على وجه التحديد.

وكذلك بدأت مطاردة «أسامة بن لادن»، وتبدى له ـ وهو معقول ـ أن إمارة المؤمنين في أفغانستان أنسب ملاذ يحتمي به، وكانت الإمارة من جانبها مستعدة. وبالفعل فإن «أسامة بن لادن» خلال سنوات إقامته في ظل أمير المؤمنين أصبح مرافقا للملا محمد عمر ومفتيا وكذلك ممولا للإمارة، قدم لها ما يزيد على مائة مليون دولار؛ وكانت الإمارة تشعر بجميله، (وإن كان رد الجميل في النهاية قد كلف طالبان دولتها)!

ـ وأما العامل الثاني: الذى استجد فهو أن إمارة أفغانستان الإسلامية، ووجود «بن لادن» فيها، أصبحت عنصر جذب ينادى جماعات إسلامية أصولية مطاردة في أوطانها ـ ومنها جماعة الجهاد المصرية ـ كي تقصد إلى دولة المتطهرين الإسلاميين، والظن أنهم هناك في أمان ولو بعزلة المكان وصعوبة تضاريسه وأجوائه الجهادية المواتية، وأنهم من هناك يقدرون ويملكون فرصة إعداد وتنفيذ مشروعات وخطط جهادية «مطلوبة»!

....

....

[ومن الإنصاف للحقيقة القول هنا أنه لم يكن صعبا في هذه الظروف سواء على «بن لادن» ولا على «الملا عمر» التقدم في نقلة واحدة من الجهاد ضد «الإلحاد» إلى الجهاد ضد «الكُفر» ـ أو ما يتصورونه كذلك ـ وكان ذلك لعبا بالنار، لأنها أصبحت حربا على العالم كله بما فيه الإسلام ـ وغالبية أهله لا يعترفون بتفسير «طالبان» لروحه وشريعته ونصوصه.]

....

....

ومع بداية القرن الحادي والعشرين أصبحت إمارة أفغانستان الإسلامية كتلة حرجة بذلك الخليط الذى تحول إلى عجينة «شبه نووية».. وكانت هذه الكتلة الحرجة تتمدد داخل إمارة المؤمنين الطالبانية وتهدر فيها ـ ثم إن بلوغ درجة الانفجار زاد قُرْبًا بوجود «بن لادن» وما يتحرك حوله ـ وجماعة الجهاد المصرية وما وراءها!

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية ترصد وتتابع وترتب.

كانت قد استغلت الأفكار والعقائد والأديان، وأولها الإسلام في عصر مضى لمحاربة الاتحاد السوفيتي، بدعوى الجهاد ضد الإلحاد. والآن فذلك ميدان فات زمانه، لأن الصراع الجديد لم يعد حربا بالأفكار، وإنما هو زمان الأسواق وليس زمان العقائد.

....

....

[ولست متأكدا ـ حتى الآن ـ أن طالبان أو تنظيم «بن لادن» (القاعدة) أو أن جماعة الجهاد المصرية كانوا وراء صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن يوم ١١ سبتمبر الماضي، ولعلهم كانوا هناك مع آخرين لم يظهر أثرهم بعد، لكن هؤلاء الإسلاميين وضعوا أنفسهم (أو وضعتهم الظروف والقوى وضمنها الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها) موضع الشبهة ورأس قائمة المطلوبين ـ وكذلك كان.

....

....

[وقد سألني سفير أوربي مرموق في القاهرة: لماذا تظهر فيما تكتب شكوك تستبعد أن تقوم جماعات إسلامية وعربية ـ بتخطيط وتنفيذ عمليات ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟ ثم استطرد السائل: أليس ذلك ـ في جزء منه ـ نزعا للثقة في كفاءة أطراف إسلامية وعربية، وقدرتها في القيام بعمل على هذا المستوى المدهش من ناحية التخطيط والإدارة والتكنولوجيا، بصرف النظر عن مقاصد الفعل ونتائجه المأساوية؟

وكان ردى: إنني لا أنزع قدرة شباب مسلم وعربي على أعمال مدهشة تخطيطا وإدارة وتكنولوجيا ـ لكنى كنت ومازلت أتكلم بالتحديد عن تلك العناصر التى نسبت إليها المسئولية فعلا عما جرى في نيويورك وواشنطن. ومازال تقديرى ـ وقد عرضته على الناس نقلا عن مصادر في بروكسل ـ وزاد عليه فيما بعد تقرير صادر عن مركز دراسات إستراتيجية معتمد في موسكو أشارت إليه صحف بريطانية كبرى، وملخصه أن عناصر بلقانية كانت ضالعة في تلك العمليات المدهشة (يمكن أيضا مراجعة تصريح لنائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني قال فيه بعد ساعات من صواعق النار فوق نيويورك وواشنطن: إن ما جرى يحمل توقيع جهاز دولة)

أضفت أيضا: إن مستوى العناصر العربية والإسلامية التى نسبت إليها المسئولية عن حوادث ١١ سبتمبر كانت لها من قبل سوابق فعل في مواقع أكثر سهولة من نيويورك وواشنطن. وهنا في مصر فقد رأينا امتحانا لمستواها في مجزرة السياح في الأقصر قبل سنوات قليلة ـ وإذا كان ذلك هو المستوى، ثم وضعنا معه أساليب الإدارة السياسية والعسكرية في الدفاع عن دولة طالبان في أفغانستان ذاتها ـ إذن فنحن أمام تأكيد جديد يؤكد مرة أخرى أن مجزرة السياح في الأقصر هي المستوى.

....

....

[ولسوء الحظ فإن الإسلام أُسيء إليه مرة ثانية، كما أُسيء إليه مرة أولى.

● وكانت المرة الأولى باستدعائه للجهاد بواسطة المخابرات المركزية الأمريكية.

● وكانت المرة الثانية بالطيران الأمريكي يضرب «جند الله» ضربا بلا هوادة، حتى بدا وكأنه عقاب للمسلمين جميعا حتى أولئك الذين لم يشاركوا في الجهاد الإسلامي (على طريقة برجينسكى)!

وكان الموضوع من أوله إلى آخره كارثة أصابت العرب في أنفسهم وقضاياهم ومستقبلهم، ثم إن الشظايا طالت أطرافا عربية وإسلامية بادرت وتطوعت للخدمة، وسمحت بأن يكون الجهاد الإسلامي مركبة مجانية للسيطرة الأمريكية، ثم تصورت خطأ أن ما تطوعت به يوفر لها حصانات وحقوقا، وذلك نسيان ـ لا يستحق الغفران ـ لطبائع القوى أو طبائع الإمبراطوريات!]

....

....

وكان الرئيس «دوايت أيزنهاور» هو الذى لخص تجربته في الخطاب الأخير من رئاسته قائلاً «إن السياسات الطيبة ليست ضمانا أكيدا للنجاح ولكن السياسات السيئة ضمان محقق للفشل».

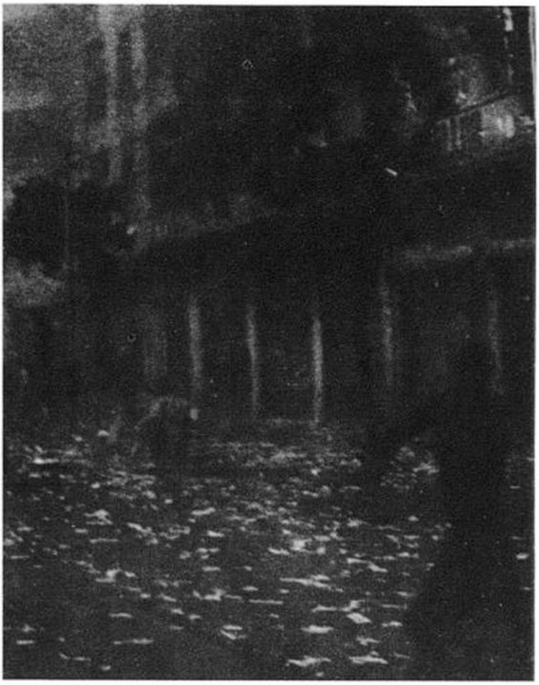
وذلك صحيح!

على أنه مما يستحق التأمل أن «أيزنهاور» في نفس هذا الخطاب الأخير استشهد أيضا بحكمة إغريقية بليغة تقول:

«إن الآلهة لا تعاقب البشر حين تغضب عليهم وإنما هي تسلط عليهم أنفسهم وكفى»!

وذلك ما جرى!! ■





لطيفة محمد سالم

خمسون عاماً مرت على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، جرت خلالها أحداث جسام غيّرت وجه مصر ووجه المنطقة العربية، وكانت ثورة يوليو التى قادها الزعيم الراحل جمال عبدالناصر وعدد من ضباط الجيش، وهى نقطة الانطلاق التى أشعلت شرارة التغيير وحفرت مجرى جديدا لتحولات تاريخية أثرت على شعوب المنطقة، ورسمت أمام أجيالها القادمة منعطفات وعلامات على الطريق. وقد كانت للثورة إرهاصاتها الأولى وبشائرها الظاهرة والخفية. وما زال كثير من الأحداث التى سبقتها وأدت إليها وصنعتها، موضوع جدل ونقاش بين المؤرخين والباحثين، ومن بين المقدمات التى أفضت إلى قيام الثورة، كان حريق القاهرة الذى وقع يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، إثر مظاهرات صاخبة عنيفة احتجاجاً على مذبحة جنود البوليس فى الإسماعيلية على يد الإنجليز. وتحولت هذه المظاهرات بتدبير لم تكشف تفاصيله حتى الآن، وبفعل أيد خفية إلى إحراق وتدمير المبانى وسط العاصمة. ولم يتفق المؤرخون على تحديد المجرمين أو الفاعلين الأصليين فى حريق القاهرة. ولكنه كان من أهم العوامل التى سارعت بالأحداث والتطورات التى أفضت إلى سلسلة من الانهيارات الدستورية والأزمات الوزارية التى انتهت بقيام ثورة يوليو، وطرد الملك، وحل الأحزاب، وقيام النظام الجمهورى.

ولاشك أن مرور نصف قرن على هذا الحدث الكبير - ثورة يوليو ١٩٥٢ - يستحق قدراً من التمحيص والمراجعة والتذكير.. ويهم مجلة **«وجهات نظر»** أن تنتهز هذه الفرصة، لتلقى بعض أضواء كاشفة تنشط الذاكرة العربية، عساها أن تجد الفرصة لتأمل حقبة من تاريخها، تضعها فى المواجهة مع حاضر أليم، انبهمت فيه معالم الطريق الذى خيّل لكثيرين أن ثورة يوليو قد افتتحته.

وجهات نظر

حريق القاهرة

نعد الفترة الزمنية منذ نهايات الحرب العالمية الثانية وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، من أهم الفترات التى عاشتها مصر، وبالرغم من قصرها فإنها ماجت بالأحداث المتلاحقة التى اتسمت بالديناميكية، وبشّرت بإمكانية حدوث ميلاد لحكم جديد يسقط الحكم القديم ويقتلعه من جذوره، وقد تبلورت فيها الأوضاع، ولم تعد هناك تحركات القوى التقليدية على الساحة السياسية فقط، إنما أيضًا نشطت الجماعات الأيديولوجية التى أصبحت لها بصمات على المجتمع. أما بالنسبة للآخر والذى تمثل فى الوجود البريطانى على الأرض المصرية، فكانت له رؤيته إذ وضع فى اعتباره تصدع الإمبراطورية البريطانية، ومن ثم غدا من الصعب فصم عرى الارتباط الإنجليزى مع مصر، والنتيجة ذلك الصدام الذى وقع بين القوى الوطنية وبين أصحاب المصالح، وتمخض عن أحداث جسام أسهمت بفاعلية فى تاريخ مصر المعاصر، وكان حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ أهم هذه الأحداث.

وللحديث عن هذا اليوم الحزين، لابد من العودة إلى الوراء قليلاً لالتقاط صورة بانورامية للحياة السياسية المصرية حتى تتسنى لنا معايشة الظروف التى أفضت إلى هذا الحدث الدرامى، ولنبدأ بالمثلث التقليدى أى: الملك والوفد والإنجليز.

* بالنسبة للملك فاروق، فإنه منذ اعتلائه العرش وهو لا يتوانى عن الإغارة على اختصاصات حكوماته، وفى يومى ٨ أكتوبر ١٩٤٤، ٢٧ يناير ١٩٥٢ أقال وزارتى الوفد، وبين هذين التاريخين اشتد تسلطه وزادت أوتقراطيته على الوزارات التى أمر بتشكيلها، وخضع رؤساؤها لمشيئته وحققوا له رغباته، وكان أبرز مثال لذلك دخول حرب فلسطين. ولم تكن وزارة الوفد الأخيرة (١٢/١/١٩٥٠ - ٢٧/١/١٩٥٢) بمنأى عن هذا الطريق، وذلك بعد أن تقاربت المصالح بين العرش والوفد، وعندما حصل الملك على أغراضه، عقد العزم على التخلص منها، وجاء حريق القاهرة ليعطيه الفرصة.

* أما بالنسبة للوفد، فإن المنهج الذى انتهجه بعد إقالته فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ لم يكن يختلف فى البداية عن الخط الذى التزم به قبل ذلك، وعندما صعّد الموقف ضد بريطانيا، رأت أنه من الأفضل لنجاح المفاوضات أن تتحسن العلاقات بين فاروق والنحاس، وبدأ يظهر فى الأفق خط جديد يجمع بينهما، فالملك يعانى من الصدمات التى يتلقاها، والوفد شغوف بالعودة إلى السلطة. وتحقق المطلوب، وأجريت الانتخابات التى أسفرت عن تشكيل حزب الأغلبية للوزارة.

ولم يكن فاروق مرتاحاً لعودة الوفد الذى التزم بالمهادنة وأجاب المطلبات الملكية، ومع نهاية عام ١٩٥١ وضحت تمامًا ملامح عدم رضا الملك عن حكومته، وكانت مصر تمر بظروف اقتصادية واجتماعية صعبة، ومن ثم فإن إقالة الوزارة لن تكون فى الصالح الملكى، أيضًا فإنها ستعيد للوفد شعبيته، كما أن فاروق لن يجد من معارضى الوفد تعاونًا لسوء علاقته بهم، ثم إنه من غير الكياسة أن يحدث تغيير أثناء المفاوضات مع بريطانيا، ورغم هذا فإن فكرة الإقالة لم تسقط من حساباته.

وسرى اختلاف وجهات النظر داخل الوزارة، وأصبح لفؤاد سراج الدين وزير الداخلية سلطته، وبررت القيادة الوفدية سياسة استسلامها للملك برغبتها فى التفرغ للكفاح ضد بريطانيا. وجاءت خطوة إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى الحكم الثنائى فى ٨ أكتوبر ١٩٥١ لتكون انتصارًا للوزارة، إذ وضعت فاروق أمام الأمر الواقع. فاستاء من أن يسترد الوفد مكانته، وأصبح متربصًا يتحين الفرصة لإقالتها.

ونشطت الحركة الفدائية فى منطقة قناة السويس، وشجعتها حكومة الوفد، وجرت المعارك البطولية، وتأججت مشاعر الغضب ضد بريطانيا، وكان رد فعل فاروق تعيين حافظ عفيفى رئيسًا للديوان، وهو يحمل كل الحب للإنجليز ويدخر كل الكره للوفد، وتعيين عبد الفتاح عمرو مستشارًا للديوان الملكى للشئون الخارجية، وهو يواكب الاتجاه نفسه. وانعكس ذلك على الشعب فى صورة مظاهرات ساخطة، زادت حدتها مع مولد ولى العهد فى ١٦ يناير ١٩٥٢ واتخذت طابع العنف. وفى ٢٥ يناير وقعت مذبحة الإسماعيلية، حيث صمدت قوات بلوكات النظام أمام القوات البريطانية، واستشهد وجرح الكثير منها، واجتمع مجلس الوزراء لبحث قطع العلاقات السياسية مع



وانهيار المؤسسات القديمة

بريطانيا، وتدهورت الحالة سريعًا، وتجمعت عواصف الغضب، وسرعان ما احترقت القاهرة.

• أما بالنسبة لبريطانيا، فإنه مع زوال المسببات التى سبق أن دفعتها للتمسك بالوفد من ناحية، ومعاكسته لها من ناحية أخرى، جعلها لا تعارض إقالته فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤، وراحت تؤكد أن الملكية هى المؤسسة التى تمتلك المكانة والسلطة والاستمرار، وعليه مضت تتقرب من فاروق، ولكن عندما تفجرت المظاهرات ضدها فى فبراير ١٩٤٦ غيّرت من سياستها، وخشى الملك من حدوث أزمة مع أحداث الإسكندرية الدامية، فراح يؤيد المفاوضات، وما لبث أن استاءت لندن من الالتجاء لمجلس الأمن لعرض القضية المصرية، ومن تعيين إبراهيم عبد الهادى رئيسًا للديوان، ومن الاستغناء عن البعثة العسكرية البريطانية، ومن الصمت تجاه الصحافة التى تهاجم الإنجليز، وحينما فشلت المساعى أمام مجلس الأمن، حدث التقارب مرة أخرى بين بريطانيا والملك الذى أدرك مدى سوء الحالة الداخلية بعد الهزيمة فى حرب فلسطين، وذلك الفزع الذى سيطر عليه من الخطر الشيوعى.

وعادت بريطانيا وأدركت مدى التخبط فى السياسة المصرية، فالعرش أصبح يهتز، والحكومات تتسمت بالضعف، والمعارضة تشتد، وانه لاستقرار الأوضاع والوصول إلى تسوية مرضية لابد من عودة الوفد إلى الحكم. وارتاحت لعودته، ولكن صلابته والفشل فى نجاح المفاوضات ورفضه مقترحات تأسيس قيادة للحلفاء للدفاع عن الشرق الأوسط، جعل لندن تطلب من سفيرها فى القاهرة البحث فى مسالة حكومة بديلة، كما أنها لم تستجب لطلب مصر الخاص بشراء الأسلحة. وجاء رد السفير على حكومته بأن فاروق فى وضع لا يسمح له باتخاذ خطوة الإقالة.

ومع إقدام الحكومة الوفدية على إلغاء المعاهدة، راحت الخارجية البريطانية تستعرض العراقيل التى توضع فى طريق سياستها، ورأت أن الملك هو الوحيد الذى يمكنه إنقاذ الموقف بإقصاء الوفد عن الحكم، وأنها على أتم الاستعداد لتقديم المساعدة. وازدادت الأمور تعقيدًا بتوهج نشاط الفدائيين فى منطقة القناة، وتفاقم المظاهرات، وتعنت وزير الداخلية المصرى فى الدخول فى مفاوضات، واستخدمت القوات البريطانية العنف، وكان عدوانها على كفر عبده دليلاً على شراستها، وهددت الحكومة الوفدية بقطع العلاقات مع بريطانيا، وسحبت السفير المصرى من لندن، ثم وقعت مذبحة الإسماعيلية، واعتبر السفير البريطانى أن ما تقوم به الحكومة ستعده لندن «حالة حرب»، وأبلغ رئيس الديوان عن إمكانية احتلال القاهرة أو الإسكندرية، ومن ثم اتصل القصر بفؤاد سراج الدين مبينًا أنه إذا كان موضوع قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا مدرجًا فى جدول أعمال مجلس الوزراء، فإن الملك لن يصدق عليه، ولكن ما لبث أن اندلع حريق القاهرة ليتحقق ما خطط له.

• وإذا انتقلنا إلى أحزاب الأقلية، فكان أهمها حزب الأحرار الدستوريين، الذى أعطى صوته للملك، وبالتالى استخدمه ضد الوفد، ولكن حدث تغير مع الوزارة الوفدية الأخيرة، إذ سجل الحزب موقفًا مضادًا لفاروق تمثل فى أزمة مجلس الشيوخ وفى التوقيع على عريضة المعارضة التى رفعت للملك فى ١٨ أكتوبر ١٩٥٠. ولم يكن موقف السعديين يختلف عن موقف الأحرار الدستوريين، وكذلك الأمر بالنسبة لحزب الكتلة الوفدية.

وفيما يختص بالحزب الوطنى، فانه بعد أن شارك فى عريضة المعارضة، عاد حافظ رمضان وأيقن أن المصلحة تكمن فى العودة إلى الأحضان الملكية، خاصة بعد بروز فتحى رضوان الذى تزعم الاتجاه الراديكالى وكون «اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى»، وأصدر صحيفة «اللواء الجديد» التى تحولت تدريجيًا إلى جبهة قوية معارضة للملك منذ عام ١٩٥١، وكان لها الأثر الكبير فى تبصير الرأى العام وتعبئته، وكثرت مقالاتها عن الدستور وولاء العبيد وولاء الأحرار والشورى، وهاجمت الملك وتصرفاته وحاشيته بضراوة، وأعطت الدفعة ليتحرك الشعب، فصورت وقائع الثورة الفرنسية والثورة العرابية والثورة الإيرانية، كما تنبأت بوقوع ثورة فى مصر تطيح بالحكم القائم، ولم يتمكن القصر من إسكات صوتها إلا مع حريق القاهرة.

• وإذا انعطفنا على القوى غير التقليدية المتبقية على الساحة السياسية، نجدها تتمثل فى الجماعات الأيديولوجية، تلك التى لعبت دورًا مؤثرًا فى الشارع المصرى، وتحتل مصر الفتاة الصدارة فيها، وقد تأرجح موقفها بين رضا فاروق عليها ونفض يده عنها، وفى عام ١٩٤٩ تمكن أحمد حسين رئيسها من ترتيب أوراقه، وتحولت مصر الفتاة إلى حزب مصر الاشتراكى الذى كرّس إمكاناته لتولى المعارضة، وذلك عن طريق النائب إبراهيم شكرى عضو مجلس النواب، إذ تمكن من تفجير قضايا بالغة الأهمية داخل المجلس، وعن طريق اللقاءات التى عقدت بمقر الحزب واستعرضت فيها الأوضاع المتردية، وعن طريق طواف أحمد حسين بالأقاليم وبث روح الثورة فى الناس، وأخيرًا عن طريق صحيفة الحزب «مصر الفتاة - الاشتراكية» التى أدت مهمتها بنجاح، فهاجمت الملك وحاشيته، وشرحت أبعاد الثورات وسوء أحوال الطبقات الكادحة، وأشارت إلى منشورات الضباط الأحرار وما جرى فى حزب فلسطين، ووُجهت إليها تهمة العيب فى الذات الملكية وأُلغيت، ولكن حلّت مكانها صحيفة «الشعب الجديد» لتواصل مسيرة قذف الملك، وتُعَرِّج على النظام الإقطاعى، وتعقد المقارنة بين الأحوال فى فرنسا قبيل ثورتها وأثناءها والأوضاع فى مصر، وتصور المد الثورى لدى المصريين، ثم يأتى المقالان اللذان اعتبرا من عناصر التحريض على حريق القاهرة، حمل المقال الأول عنوان «انصبوا المشانق ولكن الشعب سينتصر» وأسفر فيه أحمد حسين عن الهجوم على فاروق، ويصدر الحكم عليه ويأتى بحيثيات إسقاطه عن عرشه. أما المقال الآخر فهو تحت عنوان «الثورة. الثورة. الثورة» وأُرفقت به صورة تمثل بؤس وشقاء الشعب ما بين شيخ متهدم وطفل فى أسمال بالية ومريض على قارعة الطريق وكتب عليها «رعاياك يا مولاى». ومما يذكر أن ٧٠ ألفًا من نسخ هذا العدد نفدت فى حينها، وعلقت الصورة فى الأماكن العامة، وعليه وجهت لأول مرة تهمة العمل على قلب نظام الحكم لأحمد حسين، وما لبثت أن اشتعلت القاهرة.

وعن جماعة الإخوان المسلمين، فقد تحسنت علاقتها مع الملك الذى وجد فيها أداة لمحاربة الشيوعية.

حريق القاهرة



الفترة من مايو ١٩٥٠ إلى حريق القاهرة مثلت ذروة المعارضة الصحفية، وهذا يحسب للحكومة الوفدية، بالإضافة إلى الموقف القضائى الذى شكل دعامة أساسية لاستمرار المسيرة الصحفية، وقبل ذلك الإصرار على التحدى الذى التزم به الصحفيون، وهذا كله حقق نتائجه، فأصبح الشعب فى شوق ولهفة منتظرا أن ينجلى الليل وينكسر القيد

وأنه بواسطتها تكون له الزعامة العربية والإسلامية، وساعد ذلك على تألق شخصية حسن البنا. ومع هزيمة حرب فلسطين ارتفع مؤشر ديماجوجية الجماعة، فخشى فاروق من نشاطها، كما أقلقه نظام البيعة، بالإضافة إلى رغبته فى إرضاء بريطانيا، وأخيرًا للرباط الذى ربطها بعناصر من الجيش. لذلك جميعه تم حلُّها فى ٨ ديسمبر ١٩٤٨، وأعقب ذلك اغتيال النقراشى وحسن البنا. وعندما تولت وزارة الوفد الأخيرة، مضى التقارب بين فاروق والجماعة لحاجة كل منهما للآخر، وألغى قرار الحل، ووطد حسن الهضيبى المرشد العام صلته بالملك، ولكن فى الوقت نفسه سرت الاختلافات داخل الجماعة، وأصبح هناك خط معاد للحكم المستبد أسهمت فيه مجلة «الدعوة» ووجدت مقالاتها الصدى لدى الناس.

وتأتى التيارات اليسارية لتؤدى دورها فى الميدان السياسى، وقد تكثفت مجهودات السلطة لإجهاضها، ومع ذلك استمر النشاط الشيوعى الذى اعتمد على المنشورات التى هاجمت الحكم الملكى وتنبأت عام ١٩٤٨ بقيام ثورة تسقط الرأسمالية والإمبريالية، وأن يحكم الشعب نفسه بحكومة من الفلاحين والعمال. وصدرت صحيفة «الملايين» لتواكب صحف المعارضة، فهاجمت القصر وأشارت إلى التصدع الذى يعيشه النظام. كذلك فعلت صحيفة «الكاتب»، ورغم أحكام المصادرة، فإن ذلك لم يفت فى عضد هذا النشاط، ومما يسجل أنه كان لتلك التيارات الأثر الفعّال فى المظاهرات قبيل الحريق.

وفى هذا الصدد نذكر منشورات الضباط الأحرار التى شاركت هى الأخرى فى الحث على ضرورة التغيير والحض على الثورة. أيضًا فإن الصحافة المستقلة أدلت بدلوها فى تبصير المصريين بما وراء الأحداث وإعدادهم للخطوة القادمة، وقد امتلأت روز اليوسف وأخبار اليوم وآخر ساعة والجمهور المصرى بالمقالات المعارضة والناقدة للأوضاع، ووجهت الطعنات للمسئولين. والواقع أن الفترة من مايو ١٩٥٠ إلى حريق القاهرة مثلت ذروة المعارضة الصحفية، وهذا يحسب للحكومة الوفدية، بالإضافة إلى الموقف القضائى الذى شكَّل دعامة أساسية لاستمرار المسيرة الصحفية، وقبل ذلك الإصرار على التحدى الذى التزم به الصحفيون، وهذا كلّه حقق نتائجه، فأصبح الشعب فى شوق ولهفة منتظرًا أن ينجلى الليل وينكسر القيد.

* وفى وسط هذا المُناخ المفعم بالصخب احترقت القاهرة، وقد أشارت ظروف ما قبل الحريق إلى أنه لابد لشىء ما أن يحدث، خاصة مع توهج الحركة الوطنية التى تمثلت فى الفدائيين الذين أشعلوا منطقة القناة ضد الوجود البريطانى وعزوف المصريين عن إمداد المعسكرات البريطانية بما تحتاج إليه وانسحابهم من خدمتهم من ناحية، والمظاهرات التى جابت أرض مصر ضد الإنجليز ونظام الحكم من ناحية أخرى.

وعقب مذبحة الإسماعيلية، وفى ليلة السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ بدأت بواكير هذا اليوم العصيب، إذ أعلنت نقابات العمال عدم التعاون مع المؤسسات البريطانية، فحدثت حركة تمرد فى مطار القاهرة قام بها عمال الطيران ورفضوا إمداد الطائرات البريطانية بالوقود. وفى الصباح الباكر حدثت اضطرابات بين قوات بلوكات النظام فى ثكناتهم بالعباسية، وخرج البعض منهم فى مظاهرة احتجاجًا على ما جرى لإخوانهم فى الإسماعيلية، وتوجهوا إلى جامعة فؤاد الأول (القاهرة)، حيث مثلت بوتقة لتجميع الثائرين، وأخذت المظاهرات طريقها إلى مجلس الوزراء، وانضم إليها الأزهريون، وسيطر على الجميع الغضب والانفعال، ورجّت الهتافات المكان، مطالبة بالانتقام من الإنجليز والموالين لهم، وبدا الأمر وكأنه ثورة شعبية.

ووصلت الجموع إلى مقر مجلس الوزراء، وخرج إليها عبد الفتاح حسن وزير الشئون الاجتماعية، وراح يشجع ويحمس، ومما يذكر أنه قامت مظاهرات متعددة فى مختلف أنحاء القاهرة لها الطابع نفسه، كذلك ازدحمت ساحة عابدين بالجماهير، ودوت الصيحات المستنكرة لما يحدث، ودل هذا على أن هناك اتجاهًا ثوريًا جارفًا تغلغل فى القاهرة.

وفى خضم ذلك، وجد المتربصون للموقف والمدبرون للحريق الفرصة لتنفيذ التخطيط وتحقيق المطلوب. وفى منتصف النهار بدأت الشرارة الأولى لحريق القاهرة فى كازينو بديعة بالأوبرا، وعلى الفور انتشر الحريق فى ميادين وسط القاهرة وعبر الشوارع المحيطة بها، ثم انتقل إلى شارع الهرم ووصل إلى الأوبرج، وبلغ عدد المنشآت التى احترقت حوالى السبعمائة، ضمت محلات تجارية كبيرة وإدارات ومكاتب لشركات وشقق وفنادق ودور سينما ومعارض ومقاهى ومطاعم وملاهى وحانات وأندية وبنك باركليز. وأسفر الحريق عن وقوع ضحايا من بينهم عدد من الإنجليز، بالإضافة إلى الخسائر المادية الفادحة، وصاحبت الحريق حوادث سلب ونهب نتيجة للفوضى التى ضربت بأطنابها فى القاهرة، حيث ظهرت عناصر الشغب من الرعاع فازداد الموقف اشتعالاً.

كانت المسألة مدبرة ومنظمة، وانتهجت أسلوبًا مدروسًا بعناية فائقة، إذ تحرك القائمون على الأمر بالسيارات الجيب بسرعة مذهلة إلى الأماكن المخطط حرقها، والتى اختيرت بدقة ومعهم خرائطها حاملين المواد الحارقة من قنابل وبودرة وبنزين ولاعات وأجنات حديدية ومواقد إستيلين لصهر الحديد، وكانوا يقتحمون الواجهة الرئيسية للمبنى ويخرجون أثاثه ويشعلون الحريق، ثم ينتقلون إلى مكان غيره، وهكذا، وقد وصف شهود العيان ملامحهم بأن لهم سمة الأفندية.

وأمام تلك الأحداث ماذا كان موقف الوزارة الوفدية؟

عندما علم فؤاد سراج الدين ببداية أحداث ذلك اليوم كلّف المسئولين فى البوليس بالعمل على تحجيم الموقف خشية انفلات الزمام وانقلاب الميزان لغير صالح الوفد، ولكن وضح تمامًا التراخى من جنود البوليس لاشتراك زملائهم فى المظاهرات، وعندئذ اتصل بمحمد حيدر القائد العام للقوات المسلحة ـ وكان آنذاك فى القصر ـ وطلب نزول الجيش لحفظ النظام، فأبدى تمنعًا، وكرر فؤاد سراج الدين الطلب عندما بدأ الحريق، فاعترض القائد العام فى البداية، ثم بيَّن أن الأمر يحتاج إذنًا من الملك، وحينما اشتعلت النيران فى سينما ريفولى وسينما مترو، كرر وزير الداخلية اتصاله به، فلم يتلق إجابة، فذهب إلى القصر فى الساعة الثانية والنصف والتقى برئيس الديوان وشرح له خطورة الموقف. وانتهى الأمر بصدور الأمر الملكى فى الساعة الثالثة إلا ربعًا، ولكن تلكأ عثمان المهدى رئيس الأركان فى التنفيذ، مما أدى إلى إجراء مزيد من الاتصالات قام بها فؤاد سراج الدين. وأخيرًا نزل مائة وخمسون جنديًا إلى حديقة الأزبكية فى الساعة الخامسة مساء، ووزعوا على الشوارع، لكنهم لم يطلقوا الرصاص، ولما استفسر وزير الداخلية عن السبب علم أنه لابد من أمر كتابى من البوليس، فأعطى الأمر بالتليفون، ومع هذا لم يطلقوا الرصاص، وازدادت عدة القوات وبلغت خمسمائة، واستمرت على موقفها، ماعدا صدور بعض الطلقات التى كانت أكثرها فى الهواء، بينما النيران ظلت مشتعلة والسلب والنهب يأخذ مجراه، وتدريجيًا ومع الساعة الحادية عشرة مساء بدأت الأمور فى الاستقرار وخفت حدة النيران، وبذلك انتهى يوم السبت الأسود.

* والسؤال الذى يفرض نفسه من دبّر مؤامرة حريق القاهرة؟

وقبل تتبع أصابع الاتهام وطرح الأبعاد المختلفة، نسجل أن الوزارة الوفدية كانت فى موقف لا تحسد عليه، وقد تمكن فاروق من أن يستصدر منها إعلان الأحكام العرفية حتى يحمِّلها مسئولية الأحداث، وهى لم تعارض واستسلمت لقدرها المحتوم، ويعلق السفير البريطانى فى القاهرة على هذا الإجراء بأنه يدل على المهارة، وأنه جاء بناء على نصيحته بالاتفاق مع زميله الأمريكى، وسرعان ما أقال الملك الوزارة فى اليوم التالى للحريق لتقصيرها فى استتباب الأمن.

أشارت أصابع الاتهام إلى فؤاد سراج الدين لتراخيه إزاء الأحداث على أساس أنه

لم ينج من البوليس بعض الشخصيات القريبة من الإنجليز والقصر وخاصة فى القلم السياسى، وأنه أعطى الفرصة للمظاهرات أن تشتعل، وأنه لم يغدق على البوليس رغم مواقفه الوطنية بعكس الحال بالنسبة للجيش، وأنه أخلى القاهرة من كبار ضباط الشرطة الذين حضروا وليمة غداء الملك، وأنه ألقى بالمسئولية يوم الحريق على قيادة الجيش، وأنه عقب إقالة الوزارة أعلن ضرورة اتباع سياسة التعاون مع وزارة على ماهر حتى لا تتخذ ضده أية إجراءات لتقاعسه يوم الحريق. أيضًا اتهم عبد الفتاح حسن بأنه حرَّض الجماهير على الشغب، واتفق مع أحمد حسين على تفجير المظاهرات عقب مذبحة الإسماعيلية، لكن لم تثبت صحة هذا الاتفاق. ورغم أن التآمر كان واضحًا فى الحريق، فإن الوزارة الوفدية قد اعترتها نقاط الضعف، تلك التى ساعدت على تدهور الأوضاع.

وأشارت أصابع الاتهام إلى أحمد حسين رئيس حزب مصر الاشتراكى نظرًا لنشاطه المتقد قبل الحريق، وأقر شهود العيان أنه كان فى هذا اليوم يتنقل فى شوارع القاهرة راكبًا سيارة «ستروين» يشجع المشاغبين، وأن نزعته الفاشية جعلته يتصور أنه هتلر الذى حرق الريخستاج، وبالتالى قبض عليه، ولم يجد النائب العام اتهامًا ضده، ولكن على ماهر أصدر أمرًا عسكريًا أدخله تحت الاتهام لحملته الصحفية قبيل الحريق، وصدر الحكم عليه للعيب فى الذات الملكية. ومن الملاحظ أن أحمد حسين قد انتشى لما حدث للقاهرة من منطلق أنه خطوة للتعبير عن السخط القائم، بالإضافة إلى أن الأماكن التى تعرضت للحريق هى ملك للرأسمالية الأجنبية، والكثير منها يرتبط بالمصالح البريطانية التى سبق أن هاجمتها صحيفة الحزب.

وأشارت أصابع الاتهام إلى فتحى رضوان زعيم الجناح الراديكالى فى الحزب الوطنى لما كتبه فى صحيفته، وقبض عليه يوم الحريق، كذلك اتجهت الأنظار إلى الجبهة المعارضة لحسن الهضيبى على أساس أنها قدمت المساعدات لحزب مصر الاشتراكى لمهاجمة المقاهى والحانات. أيضًا هناك من رأى أن اليهود قد اندست أيديهم فى الحريق لزعزعة ثقة الرأسماليين اليهود فى مصر، وبالتالى تصبح أبواب إسرائيل مفتوحة أمامهم. ومما يذكر ما تردد أن الضباط الأحرار اشتركوا فى الحريق ليكون ذلك فرصة للقيام بانقلابهم، ولكنهم بينوا فى منشورهم الذى وزِّع عقب الحريق أن نزول الجيش أحبط مؤامرات الخونة، ولا شك أنهم وجدوا بعد وصول الأمر لحرق القاهرة أنه قد حان الوقت لتنفيذ خطتهم.

وأشارت أصابع الاتهام إلى الشيوعيين واستخدامهم للشباب الاشتراكى فى الحريق، وأنه نظرًا لأن عدد الأخيرين غير كاف، اقتصر الحريق على أماكن محددة بالقاهرة. وتم القبض على عدد من الشيوعيين وأنصار حركة السلام، وراح فاروق يكيد لهم لدى السفير البريطانى فى القاهرة، ويبين أن هناك تورطًا للبعثات التابعة للسوفييت فى الأحداث.

وأشارت أصابع الاتهام إلى الملك الذى كان على يقين من قرب نهايته، فطغى فى تصرفاته، وانقلب على الوزارة الوفدية، وأجَّل إقالتها لعدم ملاءمة الظروف، لذا فقد قدم له حريق القاهرة الفرصة لتحقيق ما يصبو إليه. ومن المعروف أنه وقت بدء الحريق كانت هناك وليمة غداء فى القصر، دعا إليها فاروق ستمائة من ضباط البوليس والجيش ـ من أعلى الرتب إلى رتبة صاغ ـ بمناسبة ميلاد ولى العهد. ومن اللافت للنظر أن وزير الداخلية ووزير الحربية لم يدعيا لها، وأن الدعوة بُلِّغت تليفونيًا وليس عن طريق البطاقات وقبل يوم واحد من الميعاد المحدد واقتصرت على القاهرة فقط بهدف إخلائها من المدافعين عنها، كما أن العادة جرت على أن تكون الدعوة على العشاء. ولم يراع فاروق أحداث الإسماعيلية، ورغم رؤيته للمظاهرات فى ساحة عابدين، فإنه لم يلغ الدعوة أو يؤجلها. ومنذ البداية رفض تدخل الجيش لمدة ساعتين وربع، وعندما صدر الأمر الملكى بالتدخل حدث التلكؤ فى التنفيذ لساعات أخرى، وقيل إن السبب يرجع إلى عدم رغبة إقحام الجيش فى السياسة. ومن البديهى أن يخشى القصر تحكم الجيش فى الموقف لإمكانية حدوث ما لا تحمد عقباه خاصة مع نشاط الضباط الأحرار. أيضًا فقد لعب محمد إبراهيم إمام وكيل حكمدار القاهرة ورئيس البوليس السياسى دورًا لصالح القصر، إذ عاق الاتصالات. كذلك يجب أن نضع فى الاعتبار وجود حافظ عفيفى وعبد الفتاح عمرو بجوار فاروق وهما صناعة إنجليزية.

واستدعى فاروق السفير الأمريكى بالقاهرة ـ وكانت تربطه به علاقة طيبة ـ فى الساعة الرابعة بعد الظهر علَّه ينقذ الموقف، حيث لم يكن يتصور أن تتطور الأمور بهذه السرعة، وقد تملك القصر الرعب، ونقل السفير الأمريكى لزميله الإنجليزى انطباع الهلع، خشية امتداد الحريق للقصر، حتى لقد طلب الملك تجهيز طائرة هليوكوبتر لنقل ناريمان وطفلها إلى قصر القبة. وفى حديث لرئيس الديوان مع القائم بالأعمال البريطانى يذكر أن مصر أخذت طريقها إلى الثورة، وأنه لو قام المحتشدون باقتحام القصر، فإن ثورة ذات طابع كلاسيكى كانت قد قامت.

ومما يسجل أن العلاقة بين فاروق والإنجليز اتخذت وجهين إبان هذه الأزمة، الوجه الأول تمثل فى سخط الملك على الإجراءات الانتقامية التى اتخذتها بريطانيا فى منطقة القناة، وعدَّ تطور الأحداث يشكل خطرًا على عرشه، وصرح بذلك للسفير الأمريكى وطعن فى السياسة البريطانية وأمل فى المساعدة الأمريكية. أما الوجه الآخر فتمثل فى أنه عقد العزم على الاستعانة بالقوات البريطانية ليحتمى بها عند الضرورة، فبعث بأحد ضباطه إلى مقر الجيش المصرى فى طريق السويس ليرى مدى إمكانية تنفيذ تعليماته التى تتلخص فى وجوب مقاومة الجيش إذا تحركت القوات البريطانية إلى القاهرة قبل الميعاد، وألا يقاوم إذا خرجت الحالة تمامًا عن السيطرة. معنى هذا أنه رتب الأمور لإنقاذه وقت اللزوم، لكنه مع هذا كان يرتاب فى اقترانه بالحماية الإنجليزية التى لا أمان لها. وسرعان ما استعاد توازنه بعد إقالته للوزارة الوفدية، لكن ذلك لم يستمر طويلاً.

وأشارت أصابع الاتهام إلى المخابرات الإنجليزية، إذ وصل العداء قمته بين الإنجليز والوفد، ولم تكن الظروف القائمة لتسمح بتهديد الملك وإقالة الوزارة وفرض وزارة أخرى، لذا كان لابد من التحرك لإقصاء الوفد عن الحكم. ومما تجدر الإشارة إليه أن الولايات المتحدة الأمريكية واكبت الموقف البريطانى بشأن التخلص من الوزارة الوفدية التى مثلت حجر عثرة أمام نظام الدفاع عن الشرق الأوسط.

وأصبح لزامًا على بريطانيا ضرب الحركة الوطنية، وإعادة الهدوء إلى منطقة القناة، وإثبات أن بقاء قواتها على الأرض المصرية ضرورة لتتحرك فى الوقت المناسب لحماية مصر من الفوضى والشغب، وأنه مع الحريق يكون التشهير بها على أساس أنه غدا لاطمانينة على حياة الأجانب فيها، وأخيرًا الحصول على التعويضات المبالغ فيها، وإحراج مركز مصر الاقتصادى.

ووفقًا للتخطيط المتقن لتنفيذ الحريق، فإن اختيار توقيته وتحديد يوم السبت ظهرًا من المصلحة حيث عطلة نهاية الأسبوع للمنشآت، وفيما يختص بدور السينما تكون الحفلة الصباحية قد انتهت، كما أن الترتيب حصر رواد الترف كلوب ـ النادى الإنجليزى ـ فى عدد قليل من كبار السن، وجعل بنك باركليز ينقل دفاتره إلى فرع الموسكى قبيل الحريق الذى أُدخل تحته نادى محمد على ونادى السيارات الملكى وأوبرج الأهرام، وهى الأماكن المرتبطة بالملكية للإيحاء بأن الانتقام ينصب على مصالح كل من بريطانيا والقصر، إذ لم تخل أى من المظاهرات من الهتاف ضدهما. أيضًا فإن وقوع الحريق فى أماكن ذات ميادين واسعة وشوارع فسيحة يُسَهل من عملية التحرك السريع والهروب من البوليس، كذلك فإن البودرة المستعملة فى الحريق غير متوافرة إلا لدى الجيش، وبنزين الولاعات لا يوجد إلا فى شركة شل الإنجليزية، بالإضافة إلى ذلك التنظيم الدقيق والخطة المحكمة التى نفذت بها عملية الحريق وتمت فى وقت واحد وعلى وجه السرعة، ثم ما تبين بشأن بعض المشاركين أنهم يتكلمون اللغة الإنجليزية، وهنا يتبادر سؤال: هل من الممكن أن يكون هؤلاء من المنتمين إلى جماعة إخوان الحرية التى شكَّلها الإنجليز لاستقطاب بعض المصريين أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت تمولها المخابرات الإنجليزية وسبق اتهامها فى حريق كنيسة السويس قبل اثنين وعشرين يومًا من حريق القاهرة وطبق عليها قرار حكومى بالحظر؟

وعلى جانب آخر، فإن السفارة البريطانية بالقاهرة وجهت الاحتجاج للحكومة المصرية، متهمة السلطات الرسمية بالتواطؤ والتستر، وألقت اللوم على الملك الذى تباطأ فى إنقاذ الموقف. وفى الوقت نفسه فإنها تؤيده فى اتهامه للشيوعيين وحزب مصر الاشتراكى. ومن الملاحظ أن فاروق لم يلتق بالسفير البريطانى إلا بعد ثلاثة أيام من الحريق حتى لا يثير المصريين، مما أقلق الأخير الذى كرر اتصاله برئيس الديوان يوم الحريق، وراح يذكر للندن أنه إذا لم يكن فى مقدرة الجيش المصرى حماية الرعايا البريطانيين، فسيكلف القائد العام البريطانى بالتحرك واتخاذ ما يراه مناسبًا للموقف، وتوافق وزارة الخارجية البريطانية على ذلك.

وبالفعل فقد وردت مسألة إعادة احتلال القاهرة، ولكن تتابع مراسلات السفير البريطانى لحكومته وتصويره عودة الهدوء بعد إعلان الأحكام العرفية قد أقصى ذلك الأمر، وتعكس الوثائق البريطانية الارتياح الذى بدا واضحًا على المسئولين الإنجليز لإقالة وزارة الوفد.

وعلى أية حال فرغم أن الملابسات تشير إلى أن الحريق تدبير إنجليزى، فإن الوقائع لا تكشف إلا مجرد قرائن ينقصها الدليل القاطع.

والواقع أن حريق القاهرة شأنه فى ذلك شأن أحداث تاريخية لم يتم التوصل إلى حقيقة أمرها بعد، والباب مازال مفتوحًا للبحث والتنقيب. ومما لاشك فيه أن المناخ المفعم بالانفعالات قد سيطر عليه الغضب الذى اتقدت جذوته لينعكس على هذه النهاية. وبصفة عامة فإن الطريق الذى أوصلنا لحريق القاهرة كانت عليه علامات تشير إلى أن الانهيار آت وقريب، حيث تهاوت القوى السياسية الموجودة بعد أن أصابها الوهن، وعندما احترقت القاهرة احترقت معها دعامات النظام القائم الذى لم يتمكن من الصمود أكثر من ستة أشهر، إذ سرعان ما بزغ على القاهرة فجر جديد مع يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ■

قراءة جديدة للكواكبي في:

«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»

حسن حنفي

الاستبداد في الفكر العربي المعاصر

إن قراءة الفكر العربي لذاته هي في نفس الوقت تجديد له، ربط للماضي بالحاضر، والحاضر بالماضي بعد ما يقرب من قرن من الزمان. فقد تغيرت الظروف، منذ فجر النهضة العربية الإسلامية الأولى في القرن الماضي إلى ردة هذا القرن وربما فجر النهضة العربية الإسلامية الثاني في مطلع القرن الجديد. فقد اكتملت الدورة الأولى في الفكر العربي الحديث على مدى قرنين. وبدأت الدورة الثانية للفكر العربي المعاصر بداية بهذا القرن. وإذا كان الاستعمار الغربي هو الدافع على النهضة الأولى فإن الصهيونية الاستيطانية في فلسطين هي الدافع على النهضة الثانية.

وإذا كان تحرير الأرض، ومقاومة الاستعمار والصهيونية كان هو الغالب على النهضة الأولى فإن الدفاع عن الحرية والديمقراطية، حرية الفرد وديمقراطية الحكم، هو الغالب على النهضة الثانية. كان مشروع الأفغاني الإصلاحي، الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج والقهر في الداخل. فقد تحقق النصف الأول منه في النهضة الأولى، وما زال الفكر الغربي المعاصر يحاول تحقيق النصف الثاني منه في النهضة الثانية بالرغم من صعوبة المخاض والأزمة الراهنة، غياب الرؤية والعجز. وذلك باستثناء بعض الدول مثل ماليزيا وإيران والمقاومة في جنوب لبنان وفي فلسطين والشيشان وكشمير..

وقضية الحرية والديمقراطية ليست مجرد نظم ملكية أو عسكرية تجعل الحكم وراثة أو شوكة، وليست مجرد قوانين استثنائية مقيدة للحريات، وأحكام عرفية، وقوانين طوارئ، وأجهزة أمن وتجسس، واعتقالات وسجون، وتزييف للانتخابات، وتأليه للفرد، فلا فرق بين الله والسلطان في الوعي السياسي، وتعددية حزبية شكلية لحساب الحزب الحاكم أو حزب واحد حاكم يستبعد كل أشكال التعددية وتداول السلطة. القضية أصعب من ذلك بكثير، إذ تمتد جذورها إلى عمق الموروث الثقافي بعد أن ترسخ في الثقافة الشعبية وأصبح جزءاً من الوعي القومي. فأزمة الحرية والديمقراطية في واقعنا المعاصر إنما تمتد جذورها إلى الموروث الثقافي في الوعي القومي، وما تبقى فيه من تصور هرمي أومركزي أو رأسي للعالم، يعطي الأعلى ما يسلبه من الأدنى. الأعلى يأمر والأدنى يطيع كما هو معروف في الثنائيات التقليدية الموروثة التي تحدد العلاقة بين طرفين، بين الأعلى والأدنى وليس بين الأمام والخلف، في محور رأسي وليس في محور أفقي، مما ساعد على خلق المجتمع الأبوى الممثل في شخصية «سي السيد». ولا يعني ذلك إغفال باقي العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فهناك تفاعل بين العوامل المادية والمكونات الثقافية في الوعي الفردي والوعي الجمعي، في ثقافة الفرد والتصور الجماعي للعالم.

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

ومن المساهمات الأولى في رصد هذه الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في الوجدان العربي المعاصر «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لعبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤ - ١٩٠٢). وهو من أجمل العناوين وأكثرها دلالة في الفكر العربي الحديث والمعاصر. يتجه مباشرة نحو الموضوع، الحرية والديمقراطية في صيغته النافية، الاستبداد والاستعباد. يجمع بين النظر والعمل، بين البحث عن طبائع الاستبداد والبحث عن مصارع الاستعباد أى طرق التخلص منه. وهو بحث في الماهيات أى في الجذور والطبائع أكثر منه بحثاً في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية. هو بحث فلسفي وليس بحثاً اجتماعياً. محررها وليس مؤلفها الرحالة «ك» وليس المفكر والمصلح والعالم الكواكبي. فالرحالة هو الذى يستمد فكره من تجاربه ومشاهداته وليس من المصادر المدونة القديمة. والرمز «ك» يعني أن أى رحالة قادر على الوصول إلى نفس النتائج بوصفها خبرة جماعية مشتركة، وربما حماية لنفسه وتسترا من حكام الطغيان، «وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان». ويعترف هو بهذين المصدرين، «منها ما درسته ومنها ما اقتبسته». ولا يشير إلى مصدر الاقتباس بل يكتفي بذكر «المؤرخين المدققين»، «المدققين»، «المدققين السياسيين»، «العلماء الأثاريون»، «بعض الحكماء»، «أحد المحررين السياسيين»، «المحررين»، «أهل النظر في أحوال البشر»، «المتأخرون من أهل أوروبا»، «المتأخرون من الشرقيين»،... إلخ، ولكن الكواكبي يعيد قراءة الوافد لإعادة توظيفه في تنظيره المباشر للواقع، وكان الوافد الخارجي يصف الواقع المحلي، لا فرق بين واقع أوروبا وواقع الشرق. فالاستبداد واحد، لا فرق بين أباطرة أوروبا وقياصرتها وبين خلفاء بني عثمان. لا فرق بين الآخر والأنا. لا يقصد حكما بعينه بل قصد فقط تنبيه الغافلين عن الجذور التاريخية للداء الدفين.

والكتاب مصدر ببيت شعرى وشطر أو بشعر منثور يدل على أنه كلمة حق وصيحة في واد، مثل يوحنا المعمدان. إن ذهبت اليوم مع الريح فإنها في الغد تكون ريحاً قادرة على اقتلاع أوتاد الطغيان.

والكتاب يشمل مقدمة وتسعة عناوين أشبه بالأبواب والفصول. فبعد البسملة والحمدلة تشير المقدمة إلى ظروف تأليف الكتاب وأنه من أواخر مؤلفاته عام (١٣١٨هـ - ١٩٠٠م). نشره مقالات في بعض الصحف المصرية في عهد عباس حلمي الثاني، ولا ضير في مدحه أسوة بالقدماء، ربما طبقاً للقول المأثور «وداوني بالتي كانت هي الداء». ثم تم جمعه في كتاب متوجها إلى الناشئة العربية المعقود عليها آمال الأمة. لذلك أتى الأسلوب سهلا، والفكر واضحاً، أشبه بالمقال الصحفي منه بالبحث الفلسفي، وبالخطاب العام للناس منه إلى الخطاب الخاص للمتخصصين «وإني تخيرت أن أتكلم في هذه المواضيع إجمالاً واقتضابًا على أسلوب شبيه بالخطابة».

كما تضع المقدمة الكتاب في علم السياسة الموجود لدى كل الأمم المتمدينة وهو علم شامل يضم فنون التاريخ والأخلاق والأدب والحقوق. برز فيه الرومان الجمهوريون أجداد الإيطاليين الحاليين، وكتب فيه غريغوريوس اليوناني رسائله، وفي فارس كتبت «كليلة ودمنة» سياسية أخلاقية. وفي الثقافة الإسلامية «نهج



عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الأعمال الكاملة، مع دراسة عن حياته وآثاره
بقلم: محمد عمارة،
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠ ص ٣٢٨ - ٤٣٨

البلاغة» و«كتاب الخراج» بين الدين والسياسة. وواضح قلة معلومات الكواكبي في التراث السياسي الإسلامي الذي يتجاوز ما ذكر بكثير.

ويضع علماء الإسلام في القرون الوسطى مع أنهم عاشوا في الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي الأول طبقاً لتحقيبها الخاص خارج تحقيب الحضارة الغربية. ألف فيه علماء الإسلام ممزوجاً بالأخلاق مثل الرازي والطوسي والغزالي والعلائلي كما كان الحال عند الفرس، وممزوجاً بالتاريخ عند ابن خلدون وابن بطوطة على طريقة المغاربة.

ويسمي علماء الإسلام في عصر الإصلاح الديني في نهاية الفترة الثانية من الحضارة الإسلامية، عصر الشروح والملخصات والموسوعات الكبرى، وبداية الثالثة، المتأخرين من الشرقيين في تركيا الذين لهم تآليف في علم السياسة مستقلة وممزوجة مثل أحمد جودت باشا، وكمال بك، وسليمان باشا وحسن فهمي باشا. والعرب قليلون مقلون باستثناء رفاعة بك، وخير الدين باشا التونسي، وأحمد فارس، وسليم البستاني، والمبعوث المدني. فالأتراك كانوا في دولة الخلافة، والعرب كانوا في الأطراف. هذا بالإضافة إلى ما كتبه العرب في الصحف والمجلات.

أما المتأخرون من أهل أوروبا أي المتأخرين بالنسبة للحضارة الإسلامية والمحدثين بالنسبة للغرب فهم الذين توسعوا في علم السياسة وألفوا فيه المجلدات الضخمة دون أن يذكر أسماء المؤلفين أو المؤلفات.

وتبدأ مباحث الموضوع على نحو تساؤلي حول طبيعة الاستبداد، وأن المستبد شديد الخوف، واستيلاء الجبن على رعية المستبد، وأثر الاستبداد على الدين والعلم والمجد والأخلاق والتربية والترقي والمجد والمال، وأعوان المستبد ومن يتحمل الاستبداد وكيفية التخلص منه واستبداله.

ولا توجد إجابات واحدة لهذه الأسئلة. بل تتعدد الإجابات تشخيصاً للداء واقتراحاً للدواء عند فريقين: أهل النظر والكلام: المادي، والسياسي، والحكيم، والحقوقي، والرباني، وأهل العزائم: الأبي، والشهم، والمتين، والفدائي (المفادي). فعند المادي الداء القوة والدواء المقاومة. وعند السياسي الداء استعباد البرية، والدواء استرداد الحرية. وعند الحكيم الداء القدرة على الاعتساف، والدواء الاقتدار على الاستنصاف. وعند الحقوقي الداء تغلب السلطة على الشريعة والدواء تغليب الشريعة على السلطة، وعند الرباني الداء مشاركة الله في الجبروت، والدواء توحيد الله حقاً. أما أهل العزائم، فعند الأبي الداء مد الرقاب للسلاسل، والدواء الشموخ عن الذل، وعند الشهم الداء التعالي على الناس باطلاً، والدواء تذليل المتكبرين، وعند المتين الداء وجود الرؤساء بلا زمام، والدواء ربطهم بالقيود الثقال، وعند الفدائي الداء حب الحياة والدواء حب الموت.

ما هو الاستبداد؟

الاستبداد لغة هو الاستئثار بالرأي دون مشورة. ويقصد به استبداد الحكومات خاصة، وعند السياسيين هو تصريف فرد أو جماعة في حقوق الناس بلا خوف تبعة أو مساءلة. وله ألفاظ مشابهة مثل: استعباد، اعتساف، تسلط، تحكم. وتصبح صفات لأشخاص مثل: مستبد، حاكم بأمره، حاكم مطلق، ظالم، جبار. أما المستبد بهم فهم أسرى، أذلاء، مستصغرون، وفي مقابل الألفاظ المرادفة للاستبداد هناك شرع مصون، حقوق محترمة، حس مشترك، حياة طيبة. وفي مقابل صفات المستبدين، عادل، مسئول، مقيد، دستوري، وفي مقابل المستبد بهم محتسبون، أباة، أحرار، أحياء.

والاستبداد معنى صفة للحكومة المطلقة العنان التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء بلا حساب أو عقاب أو قيد. وأشكالها كثيرة، الغلبة أو الوراثة



قراءة جديدة للكواكبي في:

"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"

وربما الدستور الذى لا ينفذ. وتشارك كلها فى غياب الرقابة والمحاسبة (يضرب المثل بخلافة عثمان بن عفان، والجمهورية «الحاضرة» فى فرنسا فى مسائل النياشين وبنما ودريفوس). ولم تستمر حكومة مدنية مسئولة أكثر من نصف قرن باستثناء الحكومات فى إنجلترا بسبب يقظة الإنجليز والحكومات البدوية التى تهرب عشائرها فى حالة الضيم (يضرب المثل بملوك تبع وحمير وغسان التى لم تعرف حكم الاستبداد).

وقد صور الحكماء المتأخرون المستبد على انه يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم. يرى الرعية كالغنم لا يود منها إلا الطاعة والتذلل والتملق. هو عدو الحق والحرية يتجاوز الحد لأنه لا يرى حاجزاً أمامه. وهو مستعد بالفطرة للخير والشر، والرعية تتركه للشر وتتنازل عن دورها فى دفعه نحو الخير.

وربما كان تعريف الاستبداد فى حاجة إلى مزيد من التحليل النفسى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى والقانونى والأيديولوجى. ربما آثر الكواكبى ترك ذلك فيما بعد فى فصوله السبعة التالية عن الدين والعلم والمال والأخلاق والتربية والمجد والترقى. ومع ذلك فالمستبد لديه عقدة نفسية، إحساساً بالضعف يتحول إلى قوة، وعقدة نقص تتحول إلى عقدة عظمة كما هو الحال فى القاتل الذى لا يستطيع قتل ذبابة. وينتمى إلى طبقة اجتماعية دنيا يعوضها بالصعود السريع إلى الطبقة العليا عن طريق الاستبداد. وهو عقائدى يمتلك الحقيقة المطلقة، يرى فى استبداده خلاص الناس من حكم البشر تحقيقاً للحاكمية وتطبيقاً للشريعة الإسلامية. فهو المهدى المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وهو الفقير الذى يريد أن يتحول إلى غنى عن طريق الاستبداد وليس عن طريق الكسب المشروع. وهو الذى يريد أن يشرع للاستبداد بالقانون. فالتحليل اللغوى والنظرى لا يكفى لتحديد الاستبداد وظروف نشأته.



عبد الرحمن الكواكبى

صور الحكماء المتأخرون المستبد على أنه يتحكم فى شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم. يرى الرعية كالغنم لا يود منها إلا الطاعة والتذلل والتملق

الاستبداد والدين

وهو الاستبداد الدينى. ويعتمد الكواكبى هنا على مادة وافدة من الغرب، رأى المحررين السياسيين من الإفرنج على نشأة الاستبداد السياسى من الاستبداد الدينى أو على الأقل العلاقة بينهما، وهو رأى صائب فيما يتعلق بالدين التاريخى القديم كاليهودية والمسيحية، فى القسم التاريخى من التوراة والرسائل المضافة إلى الإنجيل. وهو غير صائب فى الجوانب التعليمية الأخلاقية فى الديانتين. فالدين يدعو البشر إلى الاستسلام لقوة هائلة تعلم كل شىء، وتقدر على كل شىء، ويخافها البشر. ثم يقوم المستبد السياسى على هذا البناء النفسى للدين ويتمثل الله بحيث لا يعود فرق بين الله والسلطان وقد حدث ذلك فى فرنسا وفى روسيا. قصر المستبد هو هيكل الخوف. والملك الجبار هو المعبود، وأعوانه هم الكهنة. ومكتبته المذبح المقدس. والأقلام هى السكاكين. وعبارات التعظيم هى الصلوات. والناس هم الأسرى الذين يقدمون القرابين.

ثم جاءت البروتستانتية فكانت دفعا نحو الحرية أكثر من الكاثوليكية. فالإصلاح الدينى شرط الإصلاح السياسى. لذلك ازدهرت الديمقراطية فى إنجلترا التى تبنت أحد فروع البروتستانت وهى الإنجليكانية.

وقد بدأ حكماء اليونان ذلك من قبل حين بشروا بعقيدة الشرك فى الألوهية لمقاومة الاستبداد السياسى. فهناك صلة بين تعدد الآلهة عند اليونان كما هو الحال فى الأساطير وبين الديمقراطية عند اليونان. وقد استمد اليونان هذه التجربة من الآشوريين الذين أخذوها من المصريين. فللعدالة إله، وللحرب إله وللبحار إله، وللأمطار إله توزيعا للقوى الألوهية على أكثر من إله، وإله الآلهة الحكم بينهم حين الخلاف والترجيح بين آرائهم. وقد تم التعبير عن ذلك بصور أدبية ساحرة وأساليب بلاغية بديعة حتى اشرأبت النفوس بها مما سهل بعد ذلك على الجبابرة التنازل عن جبروتهم لأن ما يحدث فى السماء أولى أن يحدث على الأرض. وانصاع الملوك مكرَهين.

وقامت مدن أثينا وإسبرطة على هذا الأساس. وسارت اليونان مسار الرومان، وازدهرت ديمقراطية الرومان. وكل نظم جمهورية أو ملكية مقيدة إنما ترجع إلى هذا العهد القديم.

ومع ذلك فالتشريك بالرغم من فائدته العملية إلا انه باطل نظرياً. وضرره أكثر من نفعه. لذلك قاومه الدين، اليهودية والنصرانية والإسلام، فى التوراة والإنجيل والقرآن. فقد فتح التشريك باباً للمشعوذين ومدعى الألوهية. وبدلاً من أن يكون وسيلة للقضاء على الاستبداد السياسى أصبح وسيلة لتشريعه باسم الدين، وأضفى على السلطان صفات الألوهية فأفسدت إسرائيل التوحيد بتأليه بعض الأسباط الملوك والأحبار. وأفسد النصارى التوحيد بتعظيمهم وتقديسهم الرهبان والقدّيسين بل وتأليه المسيح وأمه، والوقوع فى التشبيه والتجسيم بدلاً من فهم لغة الأبوة والنبوة فهما مجازياً. وبدأ ذلك بولس فى رسائله ويوحنا فى رؤيته وإنجيله ورسائله. وهو ما لاحظه النقاد الغربيون للكتب المقدسة والنقاد المسلمون مثل ابن حزم وابن تيمية فى تطور العقيدة النصرانية.

ولا ينطبق ذلك على القرآن فى رأى الكواكبى بل ربما على الممارسات العملية للمسلمين حكاماً ومحكومين. ومع ذلك من السهل على المستبد إيهام العوام بانه لا فرق بين صفات الله وصفات السلطان، بين الفعال المطلق والحاكم بامره. كلاهما ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، بين المنعم وولى النعم، بين جل شانه وجليل الشأن. بل لقد ادعى بعض المستبدين الألوهية وتصوروا أن الله هو المستبد الأعظم، والاستعانة بالدين على ظلم المساكين. فالدين «أفيون الشعب» (والنماذج من أبناء داود، وقسطنطين، وفيليب الثانى الإسبانى، وهنرى الثامن الإنجليزى، والحاكم الفاطمى، والسلاطين الأعاجم المنتصرين لغلاة الصوفية).

لذلك جاء الإسلام ليجعل من عقيدة التوحيد وليس التشريك أساساً نظريا للحرية والشورى، بين الديمقراطية والارستقراطية. ومارسه الخلفاء الراشدون وبعض حكام المسلمين بعدهم مثل عمر بن عبد العزيز والمهدى العباسى ونور الدين الشهيد. فكانوا نماذج للحكم الذى يقوم على الحرية والعدالة، والمساواة بين الحاكم والمحكوم فى الرأى والنصيحة وفى الكسب والمال جمعاً بين الحرية والاشتراكية. والقرآن مملوء بالآيات ضد الاستبداد، إحياء للعدل والمساواة وإعطاء نماذج من قصص الأنبياء، بلقيس وقومها وموسى وفرعون. وهناك آيات مباشرة تحض على الشورى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتحذر من الاستبداد فى الرأى. كما نبه الحديث على ذلك.

ثم ترك المسلمون أصول دينهم وأخذوا أقوال غيرهم، واقتبسوا مقام البابوية واحترام الأعاظم وطاعة الكبراء طاعة عمياء، وقاموا مقام البطارقة والكردينالية والأسقفية، وحاكوا مظاهر القديسين والرهبان. وقلدوا رجال الكهنوت، وشاركوا مراسم الكنائس وزينتها. وتبركوا بالأثر، وقالوا بالحلول. ووقعوا فى الأشكال والرسوم والقرابين والموالد، والأعلام والنياشين. بل وحذروا من آيات بعينها وأحاديث بعينها تحض على مقاومة الظلم والاستبداد كما أخفى النصارى واليهود آيات من الإنجيل والتوراة. وجاءوا من المجوسية باستطلاع الغيب من الفلك، والتعامل مع الكواكب خشية أو طمعاً. ولفقوا من الأساطير والإسرائيليات علوماً «لدنية»، الهدف منها استعباد الناس. وقد حدث نفس الانحراف عند اليهود والنصارى. وصاغوا عقائد فى الاختيار والتثليث لا أصل لها فى الإنجيل والتوراة مستمدة من نواميس المصريين الأقدمين والأساطير والآثار والألواح الآشورية. وكلها تؤدى إلى الاستبداد. ومع ذلك ظل القرآن حافظاً لشعور المسلمين من قبول الاستعباد وحاثاً لهم على الحرية والجهر بالحق.

وبدلاً من هذا الموقف الدفاعى وتجريم التاريخ كان يمكن البحث فى علم العقائد عن الجذور النظرية للاستبداد مثل التصور الهرمى والمركزى والرأسى والتراتبى للعالم الذى يجعل العلاقة بين طرفين الأعلى والأدنى وليس التصور الأفقى للعالم الذى يجعل العلاقة بين طرفين بين الأمام والخلف، بالإضافة إلى إعطاء الأولوية للقضاء والقدر على حرية الاختيار، وللطاعة للإمام على

الخروج على الحاكم الظالم، ولحديث الفرقة الناجية على التعددية الفكرية وحق الاختلاف.

الاســـتــبـــداد والعلم

وهو الاستبداد العقلي. ولقد قاوم الاستبداد العلم، واضطهد المستبدون العلماء نظراً لما يمثله العلم من حرية الرأي. فكما أن الاستبداد ضد الدين فإنه أيضاً ضد العلم. وكما كفّر المستبدون المفكرين الأحرار اضطهدوا العلماء أصحاب النظر العلمي الحر كما حدث في موضوع إعجاز القرآن الذي اقتصر على البلاغة أو الإخبار بالغيب دون التطرق للإعجاز العلمي. فالقرآن متجدد في فهمه مع الزمان والحدثان. وكل ما فيه برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان.

لقد كشف العلم في الغرب الحديث حقائق موجودة في القرآن تصريحاً أوتلميحاً منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، مستورة لا يدركها أحد، مثل أن مادة الكون هي الأثير التي وصفها القرآن في بدء التكوين، وأن الكائنات في حركة دائبة، وأن الأرض سبع، وأن لولا الجبال لترنحت الأرض، وأن التغيير في التركيب الكيماوي ناشئ عن اختلاف النسب والمقادير، وأن في الجماد حياة، وأن الإنسان ترقى من الجماد، وأن ناموس موسى اللقاح في الذباب، بالإضافة إلى التصوير الشمسي، وتسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء، ووجود المكروب وتأثيره على الأمراض.

والحقيقة أن موضوع الإعجاز العلمي للقرآن قد استشرى في الفكر العربي المعاصر كجزء من مشروع أسلمة المعرفة. وهو يؤدي إلى عكس ما يهدف إليه الكواكبي، حث الدين على العلم. فهو يبدأ من العلم الغربي الذي اكتشفه غير المسلمين بمناهج تجريبية خالصة والنظر في الطبيعة كما فعل علماء المسلمين الأوائل. ثم يكتفي بقراءة القرآن من خلاله انتقاء. فالفضل للغير، العالم وليس للمؤول للقرآن. وأين كان المؤولون لآيات الإعجاز قبل أن يكتشف علماء الغير قوانين الطبيعة؟ ألا يعتبر ذلك الاستحواذ على جهد الغير وفضله؟ وماذا يفعل المؤولون للآيات إذا ما تغير العلم هل يتغير التأويل، ومن ثم يتم ربط القرآن الثابت بالعلم المتغير، ويصبح الأصل فرعاً والفرع أصلاً؟ ألا يؤدي ذلك إلى وهم المسلمين بأن لديهم العلم سلفاً فيتبلدون في حين يبحث علماء الغير في مظاهر الكون فيتيقظون؟ ولا تنفع نظرية التسخير، أن الله سخر للمسلمين الغربيين لخدمتهم. الغرب يبدع العلم في الدنيا دون بغية الآخرة. والمسلمون ينقلون العلوم عن الغرب المسخر لهم بغية الآخرة. فالغرب له نصف الحقيقة، الدنيا، والمسلمون لهم الحقيقة كلها، الدنيا والآخرة! وقد كان موقف العلماء والقدماء من المسلمين هو موقف علماء الغرب حالياً، النظر في الطبيعة ومعرفة قوانينها. وكان العلم العربي الإسلامي في بدايات عصر النهضة الأوروبي أحد مصادر نهضة العلم الأوروبي الحديث.

وبعد هذا الاستطراد عن الإعجاز العلمي للقرآن يعود الكواكبي إلى معارضة المستبد لنور العلم وبحث العلماء حتى لا تستنير الرعية فتثور على الاستبداد السياسي، وتبقى في جهلها فتطيع وتستكين. بل إن المستبد يخشى علوم اللغة لأنه يعلم أن دواء اللسان عقل ودواء اللغة فكر. كما لا يخشى المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد لأنها اغتراب للناس خارج العالم مع أن المعاد قادر على تحرير الوجدان من الخوف من الحاضر والاتجاه نحو المستقبل وطلب الشهادة، فإن أعظم شهادة كلمة حق تقال في وجه حاكم ظالم. إنما يخاف المستبد من العلوم النظرية ومنها العلوم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي تدفع إلى حرية الفكر، ومن العلوم العملية المتعلقة بعلوم الحياة والكون والحقائق التي لا يمكن للمستبد تغييرها. الاستبداد والعلم إذن ضدان. لذلك يخشى المستبدون العلماء لأن العلم من الله. إذ يعرف العلم أن الحرية أفضل من الحياة. لذلك خشي المستبدون في الشرق من العلماء حتى من قول «لا إله إلا الله» وفهم معناها، تحرر الوجدان الإنساني من كل قيد، والإعلان عن الحق في مواجهة الباطل، والعدل ضد الحكم. فالشهادة بالقول تعني الشهادة بالفعل. ولا فرق بين الشاهد والشهيد.

المستبد عاشق للخيانة والعلماء أعداؤه. وهو سارق مخادع والعلماء منبِّهون محذِّرون. له سيئاته التي لا يفسدها عليه إلا العلماء المصلحون. يبغض المستبد العلم لسلطانه على النفوس وزعزعة طاعتها للحكام والبحث عن الحقائق المستقلة عن آرائهم وسلطانهم. الاستبداد ضد الحرية والعلم يقوم على حرية البحث والنظر. لذلك كان العوام قوام المستبد نظراً لميلهم إلى التقليد والتبعية وتأليه الحكام. فيذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل. ولا شك أن خوف المستبد من رعيته أشد من خوف الرعية من بأسه في حين يأمن العادل قومه ويأمنه (مثل المستبد نيرون وتيمور، ومثل العادل أنوشروان وصلاح الدين). ونظراً لخطورة الخوف في الديانات الثنوية القديمة فقد أقيم له هيكل لعبادته اتقاء لشره. وكلما ضعفت السياسة في أمة عظمت القصور ومراسم التشريفات وأبهات السلطة والصولجان. ويبدو ذلك في لغات الأمم. فتكثر ألفاظ التعظيم في الفارسية وتقل في العربية.

الاســـتــبـــداد والمال

وهو الاستبداد الاقتصادي عن طريق قوة المال. فالمال كل شيء: القوة مال، والعقل مال، والعلم مال، والدين مال، والثبات مال، والجاه مال، والترتيب مال، والاقتصاد مال. فالمال كل ما لدى الإنسان من قدرة على الفعل. المال عند الاقتصادي ما ينتفع به الإنسان، وعند الحقوقي ما يجري فيه المنع والبذل، وعند السياسي ما تستعاض به القوة، وعند الأخلاقي ما تحتفظ به الحياة الشريفة. (بعد تعريف الاستبداد يعقد الكواكبي مقارنات بين الاستبداد من ناحية والدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية والترقي تباعًا قبل الاستبداد والتخلص منه. وآثرنا تغيير الترتيب بعد الدين والعلم وتقديم المال ثم الأخلاق والتربية وتأخير المجد قبل الترقي حتى يبدو العرض أكثر ترابطًا من الدين والعلم إلى المال إلى الأخلاق والتربية إلى المجد والترقي).

وإذا كان النوع الإنساني لا يأكل بعضه بعضا إلا أن الإنسان أكل لحم أخيه الإنسان حتى أتى حكماء الصين والهند فأبطلوا أكل اللحوم كليّاً. ثم أتت الشرائع الدينية الأولى بتخصيص القربان للمعبود أو للنيران. وافتدى به إبراهيم إسماعيل. واستعاض عنه المسيح بالخبز داخل الكنائس وليس خارجه. وما زال أكل لحم الإنسان موجوداً عند بعض القبائل الزنجية. ثم أتى الاستبداد ليحيي هذا الأثر القديم وأحياها بصورة أدهى وأمر. فقد جعل البشر، أعداء وأصدقاء، طعمة للظالمين وامتصاص حياة الزراع والعمال، وأكل ثمار الغير، واغتصاب الأموال والجهد والعمل. فلا فرق بين أكل لحوم البشر في الماضي ونهب



الأعمار وإزهاق الأرواح وسلب العمل إلا في الشكل. فالاستبداد الاقتصادي من صاحب رأس المال للعامل صورة من صور الاستبداد السياسي. علاقة الغني بالفقير هي علاقة القوي بالضعيف، علاقة الظالم بالمظلوم. ولا فرق بين استبداد الرجال واستبداد النساء، نصف البشر.

ويتعاون رجال الدين ورجال السياسة ورجال الاقتصاد على استبعاد البشر. ويستولي ما لا يزيد على ١٪ من البشر على مقدرات وإيرادات وأرزاق ٩٩٪ منهم ترف وإسراف في جانب، وفقر وضنك في جانب آخر. وينضم إلى رجال الاقتصاد التجار والمحتكرون ضد الزراع. ويستعمل الاستبداد الاقتصادي كل القيم الإنسانية بما في ذلك الجمال للإثراء لصالح رب المال والجمال والاتجار بأعراض الناس وأجساد النساء كما هو الحال في تجارة الجنس(وهو ما فعلته كاترين كما يروى المؤرخ كريستوفر بحمل النساء على الخلاعة في المراقص حتى هب الشباب للعمل للإنفاق عليهن وضاعفت خزينتها في خمس سنوات).

الاستبداد بسلب أموال الناس وحقوقهم غصبا باسم تشريعات باطلة ومن ثم كان حفظ المال في أيدي الناس أصعب من كسبه.

والاستبداد مقرون بالثروة، فالأغنياء أصدقاء المستبدين. لذلك يعظم الذل في الثروة، ذل الأغنياء للمال، وذل الفقراء للأغنياء.

وقد وردت كثير من الأمثال العامية والأقوال المأثورة بمدح المال فهو يحل المشكلات، والطريق إلى العز. ومع ذلك فإن للمال آفات كثيرة على الحياة الشريفة مثل الترف والسرف. فزيادة المال عن الحاجة بلاء.

وبالرغم من أهمية المال والثروة في نهضة الأمم، فالاقتصاد عصب الدول إلا أن الزهد في المال قيمة. فالغنى غنى القلب (يستشهد الكواكبي بحديث «اسألوا الله الكفاف من الرزق» وبحديث «لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له واد آخر»). والفقير من استغنى عن الناس. ولا يعني ذلك التباطؤ في الكسب بل رعاية الطرق الشريفة والحاجات الأساسية الضرورية للحياة الإنسانية. فلا أفضل من إنسان يأكل من عمل يده.

والمال نعمة من الله فاض بها على الطبيعة ولا يملك أحد تخصيصها لنفسه إلا بعمل أو بمقابل. فالعمل مصدر الرزق، والجهد تعويض عن الكسب. والتمول أي الادخار جزء من طبيعة الإنسان والحيوان على السواء وقت الحاجة وساعة القحط أو الجوع كما هو الحال في قصة يوسف.

وتنتظم المعيشة بالاشتراك العمومي الذي جاء به الإسلام في القرون الأولى. فالحكم الإسلامي ديمقراطي اشتراكي. وهو ما عم بعد ذلك في العالم المتمدن الإفرنجي، وتدافع عنه الجمعيات التي تطالب بالمساواة والتقارب في الحقوق والأحوال المعيشية بين البشر ضد استبداد المال وتراكم الثروات. وهو ما حاولته الشريعة الإسلامية من خلال أنواع الزكاة، جزءا من أربعين من رؤوس الأموال، يفيض من الأغنياء إلى الفقراء. أما الأراضي الزراعية فملك للأمة وليست للأفراد، يستفيد منها عامة المسلمين وليس أغنياؤها فقط. هذا بالإضافة إلى الصرف على المحتاجين من العوض والدية والتكفير عن الذنوب. ومصادر بيت المال من خراج وعشور تصرف على جموع الأمة، الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وفي الرقاب والعاملين عليها. ولذلك ثلاثة شروط، الأول إحراز المال بوجه مشروع حلال مقابل عمل وجهد. والثاني عدم التضييق على حاجات الغير مثل احتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو امتلاك الأراضي (حمى إيرلاندا ألف مستبد

قراءة جديدة للكواكبى فى:

"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"



فى الاستبداد يغيب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة والنقد للحكام ومراجعته. لذلك أطلقت الأمم الحرة حرية الرأى والتعبير فى المطبوعات والمجالس النيابية للرقابة على المسئولية والحكام

مالى من الإنجليز ليتمتعوا بثلثى أو ثلاثة أرباع ثمرات أتعاب عشرات الملايين من البشر. وهو أيضًا حال ريف مصر. ولا يختلف عن ذلك سكان لندن على أرصفة الطرقات وهى من الأمم المتمدنة. لذلك لا تجيز الصين أن يمتلك شخص واحد أكثر من مقدار معين، خمسة أفدنة، واقتدت روسيا فى ولاياتها بالصين).

والثالث عدم تجاوز المال قدر الحاجة لأن الإفراط فى الثروة مهلكة. الفوائد القليلة على الأموال تشجيع للاستثمار. أما الربا الفاحش فاستغلال للضعفاء والمحتاجين. ليس الدافع على الاستثمار الطمع أو الربح بل تحقيق المنافع العامة. وإن ثروة بعض الأفراد فى الحكومات العادلة أضر بكثير منها فى الحكومات المستبدة لأنهم يصرفون الأموال لإفساد الأخلاق فى حين أن المستبدين يعرفونها فى مظاهر الأبهة والعظمة إرهاباً للناس. وتزول الثروة عندما يغتصبها الأقوى أو عندما تندلع ثورات الاشتراكيين أو حتى الفوضويين.

وهناك فرق بين الاستبداد الغربى والاستبداد الشرقى. الاستبداد الغربى يجمع بين الاستبداد السياسى والاقتصادى، ويعين الأمة على الكسب. لذلك كان أحكم وأرسخ مع بعض اللين. فى حين أن الاستبداد الشرقى سياسى خالص لا يدفع الناس إلى الكسب. لذلك كان سريع الزوال. إذا زال الاستبداد الغربى فإنه يكون لصالح الحرية والعدل. وإذا زال الاستبداد الشرقى فلصالح استبداد آخر. لذلك تفوق الغرب باستمرار، وسار الشرق فى مكانه فى دورة أبدية.

كان يمكن تحويل هذه الاشتراكية الأخلاقية التى تقوم على الزكاة والصدقات والكفارات إلى اشتراكية علمية تقوم على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وتحديد سياسة الأجور طبقا للجهد العضلى، ومنع تجميع رؤوس الأموال فى أيدى القلة. بل إن تحليل لفظ المال لغوياً يبين أنه ليس جوهراً أو اسماً يشير إلى مسمى فى الخارج بل هو مصدر مركب من «ما» اسم صلة و«ل» حرف جر مما يبين أن المال علاقة، وأن الملكية وظيفة اجتماعية، فالمالك له حق التصرف والانتفاع والاستثمار ولكن ليس له حق الاستغلال أو الاحتكار أو الاكتناز.

الاستبداد والأخلاق

والاستبداد ليس فقط دينيًا أو عقليًا أو اقتصاديًا بل هو استبداد أخلاقى نظراً لأثر الاستبداد فى أخلاق المستبد وفى أخلاق المستبد بهم على نحو سلبى، فالمستبد به يكفر بالأخلاق وبالقيم التى يمارسها المستبد والتى يعينه الناس عليها حتى المستبد بهم. يفقد حب وطنه وأهله، ويضعف ولاؤه لأمته. لا يحرص على بقاء شيء. وقد يتعود على الاستبداد فيصبح كالحيوان المطيع لصاحبه لا فرق فى ذلك بين شباب وشيوخ.

يسلب الاستبداد المستبد راحته الفكرية ويحيله إلى شقى ثقيل الهم حتى أنه يفقد التمييز بين الخير والشر. فيستولى الاستبداد على العقول الضعيفة خاصة عقول العامة من خلال مظاهر الأبهة والعظمة التى يحيط المستبد بها نفسه. فتشوش عليها الحقائق، وتغيب عنها البديهيات. فالاستبداد قادر على قلب الحقائق فى الأذهان، واستعمال الأديان لتبريره مع أن وظيفة الحكومات خدمة الناس وتحقيق مصالحهم. قد يوحى الاستبداد بحسنات له مثل تحقيق المنفعة، وحسن الإدارة، وسرعة التنفيذ، وطاعة الأوامر، وتليين الطباع، ويدفع على احترام الناس بعضهم لبعض. والحقيقة أن ذلك يتحقق قهراً لا طوعاً، وجبراً لا اختياراً، وعن اضطرار وليس عن طبيعة.

وإذا كان العدل فى أخلاق البشر يقوم مقام العناية فى إنماء الشجر يكون الاستبداد مفسدة للأخلاق لأن الاستبداد قضاء على القوانين، وتحكم بالإرادة الفردية. بل إن الحيوان يخضع لقانون الغاب. لذلك سلب الفقه الرقيق إرادته الحرة وجعله تابعاً لمولاه. لا يخضع الاستبداد لنظام أو عقل أو منطق بل لمطلق الإرادة التى تجعل الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، مرة اشتراكية ومرة رأسمالية. ويجبر الناس على التبرير طبقاً لإرادة المستبد وليس طبقاً للحسن والقبح فى ذاتهما.

فى الاستبداد يغيب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة والنقد للحكام ومراجعته. لذلك أطلقت الأمم الحرة حرية الرأى والتعبير فى المطبوعات والمجالس النيابية للرقابة على المسئولية والحكام. وقد وضع القرآن التشريعات لحماية هؤلاء المحتسبين دون أن يذكر الكواكبى نظام الحسبة فى الإسلام ويعنى الوظيفة الأساسية للحكومة الإسلامية.

وإذا كانت الخصال أولاً حسنة طبيعية كالصدق والأمانة والهمة والمدافعة والرحمة وقبيحة طبيعية كالرياء والعدوان والقسوة، وثانياً خصالاً كمالية مثل العفو وتقبيح الطمع وهو ما يدركه العقل ويحث عليه الشرع، وثالثاً خصالاً اعتيادية وهو ما يكسبه الإنسان بالوراثة أو التربية أو الألفة فإن الاستبداد من النوع الثالث الذى يأتى اكتسابا من الناس وتعودا عليه ولا يتفق مع العقل والنقل أو مع الضرورة والاختيار. وإذا ساءت الأفعال ساءت الظنون فالفلاح فى الشرق يأمن الإفرنجى فى معاملته ويثق بوزنه وحسابه ولا يأمن بنى جلدته. والإفرنجى إذا تعود على الخيانة فإنه يأمن الشرقى ولا يأمن ابن جنسه. وهى تفرقة أصولية بين الضروريات والحاجيات والتحسينات يوظفها الكواكبى فى تصنيف الفضائل الخلقية.

وفى الاستبداد تقل مشاركة الناس فى إدارة شئونهم، وتقل المشاركة فى الحياة العامة. والمشاركة من أعظم أسرار الكائنات ويقارن الكواكبى بين أخلاق الشرقيين والغربيين فى المشاركة تحت الوهم الشائع أن الشرقيين أقل مشاركة من الغربيين (يستثنى الكواكبى من ذلك اليابانيين والبوير). وهو موضوع الاستبداد الشرقى الشهير الذى تعرض له فلاسفة الغرب خاصة مونتسكيو. يرجعه البعض إلى الجهل أو عدم التعاون أو المرض أو عدم التمسك بالدين أو فقدان الحرية السياسية.

الغربى قوى النفس شديد المعاملة ولكنه حريص على الاستئثار والانتقام، مادى النظرة. لم يبق من مبادئ المسيحية لديه شيء. الجرمانى جاف الطبع لا يعتبر الضعيف جديراً بالحياة. يجعل الفضيلة فى القوة، والقوة فى المال. العلم من أجل المال، والمجد من أجل المال. واللاتينى مطبوع على العجب والطيش. يرى العقل فى الأخلاق، والحياة بلا حياء، والشرف فى الزينة، والعز فى الغلبة.

وأهل الشرق أديبون يغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب واتباع الوجدان والعواطف والفتوة والقناعة. ومع ذلك يتهاون فى المستقبل. ويقلد الغربى. والعجيب أن يغلب على الشرقيين الاستبداد وهم جماعة تقلل من تسلط الفرد، ويغلب على الغربيين الحرية وقيمهم تقوم على الفردية التى تسمح بظهور الفرد والزعامة الفردية. فى الشرق جماعة بلا رقابة على الحكام، وفى الغرب أفراد تراقب الجماعة سلوكهم طبقاً للعقد الاجتماعى. فى الشرق نبوة وولاية وزعامة، وفى الغرب حكمة وعقد ومراجعة. وهى مقابلات شائعة فى الفكر الغربى فى القرن التاسع عشر أثناء انتشار النظريات العنصرية ومحاولات تحديد خصائص الشعوب.

وقد سلك الأنبياء فى إنقاذ الأمم مسالك عدة منها تحرير الوجدان الإنسانى من تعظيم أحد إلا الله أو الإذعان لسواه، وحث البشر على التمسك بنور العقل وحرية الإرادة من أجل القضاء على الاستبداد العقلى والإرادى. وقد تابع الحكماء السياسيون الأقدمون الأنبياء لتحرير الضمير الإنسانى من الاستبداد عن طريق التربية وتهذيب الأخلاق. أما المتأخرون الغربيون فقد آثر البعض منهم تحرير البشر من الدين إلى فضاء العقل والطبيعة، فالفطرة كافية للنظام، والعلم المتحرر من تبرير الدين كما كان الحال فى الحضارات القديمة المصرية والآشورية أو المنحصر فى طبقة الأشراف عند الغرناطيين والرومان أو عند النخبة من الشبان فى الهند واليونان القادرة على ذلك. ثم جاء الإسلام وأطلق حرية العلم للجميع وانتقل إلى أوروبا فساعدها على التحرر.

لقد ساعدت الظروف الحكماء الغربيين على اختصار الطريق. بدءوا مستبدين وانتهوا متحررين. ومن حكمائهم من لم يغال ويتطرف فى رفض الدين وجعله المصدر الأول للاستبداد بل أصلحوا الدين لإصلاح الأخلاق وتغيير المجتمع. وما أحوج الشرق إلى مثل هؤلاء الحكماء بوذيين ومسلمين ومسيحيين ويهود. لا يبالغون أو يتطرفون، ويصلحون الدين دون رفضه أو إبقائه على ما هو عليه عن طريق التعليم والتربية من أجل تغيير الوضع القائم حتى تظل الأمم الشرقية فى التاريخ ولا تنقرض كما انقرض الأشوريون والفينيقيون.

الاستبداد والتربية

إذا كانت الأخلاق هى الفضائل النظرية فإن التربية هى تهذيب الأخلاق أى الأخلاق العملية، وتحويل الفضائل النظرية التى يضعها العقل والفطرة إلى سلوك يومى وممارسات عملية. التربية علم وعمل. والعمل بالنية والعزم المسبق.

فقد خلق الله فى الإنسان استعداداً للصلاح واستعداداً للفساد طبقاً للحديث الشهير (إنما الأعمال بالنيات). فالتربية عامل مساعد للفطرة. يصعد إلى مرتبة الملائكة أو يهبط إلى مستوى الحيوان. وهذا هو معنى الأمانة التى حملها الإنسان ورفضت السماوات والأرض أن يحملنها وحملها الإنسان، الاستعداد للنمو نحو الكمال والنقص، نحو الخير أو الشر، إلى الحرية أو إلى الاستبداد. الإنسان كالغصن الرطب إما أن ينمو مستقيماً أو يميل على جنبه فيعوج.

والاستبداد أسوأ وسيلة للتربية. يؤدى إلى إفساد الفطرة بدنًا وروحًا ويورث البدن

الأسقام. والروح توقف العقل عن النماء. التربية والاستبداد عاملان متضادان. ما تبنيه التربية يهدمه الاستبداد.

والتربية ملكة تحصل بالتعلم والتمرين والعقيدة والاقتباس. أهم أصولها وجود المربين، وأهم فروعها الدين كوازع سياسى والمثابرة على العمل. والاستبداد ريح صرصر عاتية، يفسد الدين فى أهم ركيزته وهى الأخلاق، ويبقى على العبادات لأنها تلائمه، حركات طاعة ورموز خضوع لا تفيد فى تطهير النفوس. لا تنهى عن منكر ولا تأمر بمعروف. فاستولى الاستبداد على النفوس، لا فرق بين الله والسلطان، ورد الفعل عليهما بالكذب والخداع والرياء والنفاق أوالخوف والانزواء والانطواء حتى يصبح كالأسير الأليف والحيوان المستأنس مع حاكمه ومع ربه.

تربية الجسم فى السنتين الأوليين وظيفة الأم، وحتى السابعة وظيفة الأبوين، والانتقال من العقل إلى البلوغ وظيفة المعلمين والمدارس، ثم تربية القدوة بالأقربين والخلطاء إلى الزواج وظيفة الصدفة، ثم تربية المقارنة وهى وظيفة الزوجين إلى الموت أو الفراق. فهناك خمس مراحل للتربية لكل منها مربٍ طبقاً لمراحل العمر.

ليست التربية مجرد جهد فردى أو جماعى محدود بل هى تربية اجتماعية سياسية. إذ إن التربية الفردية تخضع للهيئة الاجتماعية والقانونية والسياسية.

والحكومات المنتظمة هى التى تتولى تربية الأمة. وهى التى تنشىء قوانين النكاح، وتفتح بيوت العطاء، وتقيم المدارس للتعليم الإلزامى، وتسهل الاجتماعات وتشيد المسارح، وتؤسس المنتديات، وتقيم المكتبات والمتاحف والنصب التذكارية، وتسن القوانين للمحافظة على الآداب والحقوق، وتسهر على حفظ العادات القومية واحترام الملة. تقوى الآمال وتيسر الأعمال، وتؤمن العاجزين، وتكرم الرواد. ومن ثم يحيا المواطن مطمئناً فى حياته ومماته، وتحيا الأمة بحياة مواطنيها ورضاهم عنها. أما النظم المستبدة فهى غنية عن التربية لأنها أشبه بنظم الأحراش فى الغابات التى لم تهذبها يد بشرية.

يعيش الإنسان فى ظل العدل والحرية، نشيطاً على العمل، راضياً بأعماله، سعيدا بآماله، ناجحاً كان أم أقل نجاحاً. أما أسير الاستبداد فيعيش خاملاً خامداً ضائع القصد حائر الاتجاه، لا فرق بين حياته وموته. يشعر بآلام الأسر كما يشعر المستبد بلذة القوة والاستبداد. فيلجأ إلى الدين والتعويض فى السعادة الأخروية مع أن الدنيا ممر الآخرة.

وقد عبرت الأمثال العامية والأقوال المأثورة عن ذلك والتى تحبذ الخمول، وتبرر المصائب (وذلك مثل: «الدنيا سجن المؤمن»، «المؤمن مصاب»، «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه»، «هذا شأن آخر الزمان»، «حسب المرء لقيمات يقمن صلبه»). مع أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ضد الكسل والبطالة والهروب إلى الآخرة فراراً من الدنيا(مثل: «إن الله يكره العبد البطال»، «إذا قامت الساعة وفى يد أحدكم غرسة فليغرسها).

وقد وقع نفس الشيء عند اليهود والنصارى، واقتبسوا من التوراة والإنجيل آيات تبرر الظلم والخضوع للسلطان. والنص صريح على رفض الظلم (من التوراة: «يد الله على قلب الملك»، ومن الانجيل «اخضعوا للسلطان ولا سلطة إلا من الله»، «الحاكم لا يتقلد السيف جزافاً. إنه مقام للانتقام من أهل الشر». وفى الرسائل «فلتخضع كل نسمة للسلطة المقامة من الله». ومن الوعظ الإسلامى الحكومى «السلطان ظل الله فى الأرض»، «الظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه»، «الملوك ملهمون». والآيات الصريحة فى رفض الظلم مثل ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

الاستبداد يضطر الناس إلى إباحة الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل وهى أخلاق عبيد السلطة. ويتربون على ذلك فى المدارس . صحيح أن لمستوى المعيشة بين الغنى والفقر دخلاً فى التربية ومع ذلك يظل عامل الحرية أو الاستبداد هو الأقوى. فالمستبد به كالنائم المزعوج بالأحلام، لا يعلم شيئاً من العالم المحيط به. فالتربية الصحيحة غير مقصودة ولا مقدورة فى ظلال الاستبداد إلا تخويفاً من الظالمين. والإقناع خير من الترغيب والترهيب. والمدارس تقلل الجنايات لا السجون. والقصاص قلما يفيد فى العقاب. والقصاص فى الإسلام يعنى المساواة وليس العقوبة. تهدف التربية إلى إعداد العقل المتميز وحسن التفهم والإقناع والتمرين والتعود، وحسن القدوة والمثال، والمواظبة والتمادى.

الاستبداد والمجد

الاستبداد أصل كل فساد وأثر سيىء فى كل واد. يفسد الدين والعقل والمال والأخلاق والتربية. يفسد الطموح والسعى إلى العلى، ويحوله إلى تكبر وتسلط وطغيان. يحول المجد إلى تمجد. المجد مطلب طبيعى شريف لا يترفع عنه نبى أو زاهد. يعبر عن السعى نحو الأكمل والأفضل. وهو من الجد والاجتهاد والسعى الدءوب، تحمل الأمانة والمسئولية تحقيقاً لغاية الإنسان فى الحياة. يسعد الإنسان به. ويلتذ بها الساعى له مثل عظم لذة العبادة لله والعلم للحكماء على جميع أنواع المباهج الدنيوية. والمجد أفضل من الحياة. فالحياة بلا مجد خمول وكسل، وقنوع ويأس. المجد مفضل على الحياة عند الأحرار، والحياة مفضلة على المجد عند المستبد بهم وهو ما خلط على ابن خلدون حتى حين فضل الحياة على الإقدام على الخطر. لهذا استشهد أئمة آل البيت وفضلوا المجد على الحياة. كما أن الحيوان يرفض التناسل وهو فى الأسر فى قفص. فلا يتكاثر إلا إذا كان حراً طليقاً فى الطبيعة.

ويتطلب المجد البذل والتضحية فى سبيل الجماعة، بتعبير الشرقيين فى سبيل الله أو الدين، وبتعبير الغربيين فى سبيل الإنسانية أو الوطنية طبقاً لظاهرة التشكل الكاذب، التعبير عن نفس المعانى بألفاظ مختلفة من الموروث أو الوافد. وتكون التضحية بالمال، وهو مجد الكرم أقل أنواع المجد أو بذل العلم النافع وهو مجد الفضيلة أو بذل النفس وهو مجد النبالة أعلى أنواع المجد، المجد على الإطلاق، مجد النفوس الكبيرة.

والتمجد نقيض المجد. هو صفة الإرادات المستبدة والمتعاونين معهم، أصحاب الألقاب وحملة النياشين. وقد يؤدى إلى دعوة الألوهية أى خداع العامة. المتمجدون أعداء العدل وأنصار الجور للتغرير بالأمة وسوقها، مستعملاً أعوانه الذين مثله بعد إغرائهم بالمناصب والمراتب. يعتمد المتمجد على دعوة الأصالة وتعنى الشرف والرتبة والعائلة والقبيلة والأصل الوراثى والنسب، وليس معناها الحالى الدفاع عن الهوية. وهى ثلاثة أنواع: بيوت العلم والفضيلة، وبيوت المال والكرم، وبيوت الظلم والإمارة وهو أكبر الأقسام. فالحكم الوراثى غير شرعى لأنه يقوم على أصالة الأجداد، الأصالة بهذا المعنى القبلى جرثومة البلاء، تستتر وراء العظمة الوراثية والأبهة الحالية. وهو ما أدانه القرآن صراحة بإدانة الإسراف والترف وتداول المال بين القلة (وهى آيات مثل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾).

المستبد الذى يضع التاج على رأسه والصولجان فى يده والعبيد حوله بالمراوح يرى نفسه إلهاً. والرعية مبهورة بمستبدها مسحورة ببهائه. وكل ذلك أوهام.

والاستبداد عام وشامل فى الحكم وفى المجتمع، فى الدولة والمؤسسات من الحاكم إلى الشرطى إلى الفرّاش إلى الكنّاس. كل أعلى يستبد بالأسفل منه. والناس على دين ملوكهم.

ويشهد العقل والتاريخ أن المستبد الأعظم فى الأمة هو اللئيم الأعظم فيها. ولما كان حريصاً على ظلم الناس فإنه يستعمل أعواناً من جنسه لتكوين عصابة الاستبداد.

ويجهل المستبد أن الناس أعداؤه لظلمه وأنه لا يأمن على نفسه وحياته من الثورة ضده. كما لا يأمن الوزير من صولة المستبد الذى فوقه أو المستبد به الذى تحته. وزير المستبد هو وزير المستبد الأعظم وليس وزير الأمة مهما تشدق بالرغبة فى الإصلاح ورعاية مصالح الناس. وهو لا أخلاق له ولا ضمير. المستبد لا يستصنع إلا الأراذل والأسافل وخربى الذمم بالرغم من ندم البعض منهم. وفى الحقيقة أن المستبد فرد عاجز، لا حول له ولا قوة إلا بالمتمجدين طلاب المناصب والرتب. والأمة الأسيرة لا يفك أسرها إلا العقلاء الأحرار.

الاستبداد والترقى

إذا كان المجد هو طلب الرقى الذاتى والسعى نحو العمل فإن الترقى هو التقدم فى التاريخ. فالحركة سنة الكون، صورة الألوهية، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. والحركة فى التاريخ نوعان، تقدم ونكوص، إقدام وإحجام على نحو أفقى. وهو ما يسعى إلى أعلى وإلى أسفل نهضة وسقوط، قيام وقعود على المستوى الرأسى. وهو صريح بنص القرآن والحديث .

والترقى على أنواع: ترقى فى الجسم، وهو الترقى البدنى. وترقى فى العائلة والعشيرة، وهو الترقى الاجتماعى. والترقى فى القوة بالعلم والمال وهو الترقى الاقتصادى، والترقى فى الملكات بالخصال والمفاخر وهو الترقى الثقافى والحضارى. وهناك ترق آخر بالروح، والشوق إلى المعاد. ونقيض هذه الأنواع كلها ما سمى بالقضاء والقدر، وهو عجز طبيعى ناتج عن الاستبداد. وإذا كان القدر مرة لصالح الترقى ومرة ضده فإن الاستبداد هو الطريق إلى الانحطاط والتأخر والفناء. بل يدفع إلى طلب التسفل دون الرفعة. الترقى والانحطاط حركتان جدليتان حتى فى الحيوان مثل الاندفاع والانقباض. وهو ما عناه القرآن بابتلاء الإنسان بالخير والشر. هو جدل الإيجاب والسلب، المزاحمة والتدافع فى الحياة.

والمستبدون بهم لا حراك فيهم، منحطو الإدراك والإحساس والأخلاق. هم أشبه بسكان القبور، لا أموات ولا أحياء، شقاء مريد، بعيداً عن مفاخر الإبداع وشرف القدوة، نوم ويأس، غباء وجهل، فقدان الثقة بالنفس وضياع الحزم، ندب وبكاء، حرص على الراحة، وتباطؤ فى السعى، رضى وخنوع، وإلقاء المسئولية على الأقدار، سجود لغير الله،وقبول للتفاوت بين الناس وهم أكفاء، انحناء وخضوع، ذل وخنوع، وقد خلق الناس جميعاً إخواناً أسوياء. هذا بالإضافة إلى الخوف والخشية وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهر بالحق والشهادة وباقى أركان الإسلام دعوة للتحرر دون الخنوع.



كتاب الزاوية

من شعر «صلاح عبد الصبور»

ولد صلاح عبدالصبور فى ٣ مايو ١٩٣١ بالزقازيق وحصل على ليسانس الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٥١، بدأ حياته مدرساً ثم عمل فى «روزاليوسف» و«الأهرام» ثم انتدب مديراً للنشر بوزارة الثقافة وعمل مستشاراً ثقافياً بالسفارة المصرية فى الهند عامى ١٩٧٧ و١٩٧٨ ثم رئيساً لهيئة الكتاب.

حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٥ ثم جائزة الدولة التقديرية للآداب عام ١٩٨١، وقد ألَّف للمكتبة العربية أكثر من عشرين كتاباً، منها ٦ دواوين شعرية، منها «الناس فى بلادى» و«أقول لكم» و«أحلام الفارس القديم» و«إبحار فى الذاكرة»، أما مسرحياته الشعرية فمنها «مأساة الحلاج» و«مسافر ليل» و«ليلى والمجنون» و«الأميرة تنتظر» و«بعد أن يموت الملك».. وهو أحد روّاد حركة الشعر الحديث ومؤسس مدرسة الشعر الحر فى مصر. توفى فى ١٤ أغسطس ١٩٨١.

ثلاث صور من غزة

يا أيها الصغارْ
عيونُكُمْ تحرقنى بنارْ
تسألنى أعماقُها عن مطلعِ النهارْ
عن عودةٍ إلى الديار
أقول.. يا صغارْ
لننتظر غداً
لو ضاع منا الغد، يا صغارُ
ضاعَ عُمْرُنا سدى

إن لم تكن الأمة مسئولة عن نفسها حريصة على حريتها استبدت بها أمة أخرى كما هو الحال فى الوصايا على السفيه المقررة فى الشرائع. والله لا يظلم الناس بل الناس أنفسهم يظلمون

والوحدة قوة باسم الاتحاد الوطنى كما هو الحال فى الغرب أو الإخاء الدينى كما هو الحال فى الشرق. الرباط فى الغرب جنسى وليس مذهبياً، سياسى وليس دينياً، نقداً مبطناً للدولة العثمانية التى يتشاحن فيها الأعاجم والأجانب. والحل هو الأمة والوطن. ولماذا يكون العربى أشد استخفافاً بأخيه العربى من الغربى وقد أصبح دينه المال وغايته الربح؟ الغربى أقوى من الشرقى علماً وثورة ومنعة. لذلك تكون له السيادة الطبيعية إذا واطن الشرقيين. الغربى يعرف كيف يسوس. فاستعمر الأرض، واستوطن الشرق، ولا يريد الخروج منه (مثل الروس مع البولنديين والتتار، والهولنديين فى الهند، والروس فى قازان، وفرنسا فى الجزائر، والإنجليز فى بلاد العرب). فى حين بقى المسلمون فى الأندلس وتركوا وراءهم العلم والعمران. فلماذا يكون الشرقى أقل من الغربى؟ السبب لأنه يقبل الاستبداد الذى يؤدى إلى الخمول والموت («نحن ألفنا الأدب مع الكبير، ولو داس رقابنا. ألفنا الثبات، ثبات الأوتاد تحت المطارق. ألفنا الانقياد ولو إلى المهالك. ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا، والتذلل لطفا، والتملق خصاصة، والكهنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضا بالظلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غروراً، والبحث عن العموميات فضولاً، ومد النظر إلى الغد أملاً طويلاً، والإقدام تهوراً، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفراً، وحب الوطن جنوناً»).

هناك أمم عادلة فى التاريخ (مثال ذلك: الجمهورية الثانية للرومان، الخلفاء الراشدون، أنوشروان، عبد الملك الأموى، نور الدين الشهيد، بطرس الكبير). وفيها يكون الحكام أمناء على سلامة الأبدان والاعتناء بالشئون العامة، والحريات الفردية، والرقابة على السلطة، والحقوق العامة، وتطبيق العدل، والحفاظ على الأموال، ورعاية القيم والشرف. يتحقق الترقى فى التاريخ بأصول الحكومات المنتظرة فى وجه الاستبداد. القوة للشرع ولا نفوذ إلا نفوذ الشرع. الشرع هو حبل الله المتين. والأمة رقيبة على حسن تطبيقه كما تشهد بذلك الآيات مثل ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾.

ونظراً لرغبة الكواكبى فى الجمع بين النظر والعمل، بين البحث العلمى والممارسة السياسية فقد ساد «الاستبداد والترقى» الأسلوب الخطابى، فى الشخص الثانى المخاطب الجمع بحيث أصبح الخطاب الفلسفى أشبه بالخطبة السياسية للاستنهاض. ومع ذلك فإنه يكشف عن بداية التحول من المجتمع الدينى إلى المجتمع المدنى، ومن العثمانية إلى الوطنية.

التخلص من الاستبداد

لا توجد أعظم من مدرسة التاريخ الطبيعى والعمومى، ولا برهان أقوى من الاستقراء للتعرف على وسائل التخلص من الاستبداد. فلقد عاش الإنسان دهوراً طويلة لا يعرف نظاماً إلا الشيوخ الأكثر خبرة أو الأقوى بنية، فى حالة البداوة. عشائر وقبائل. يقرر بنفسه بما له من احترام عند الآخرين أو باستشارة حكماء القبائل فى نظام إدارى بسيط وقواعد قضائية قليلة. تحكم بالحدس والوجدان. وهو ما سماه ابن خلدون «البدو».

عاش النصف الآخر فى قرى ومدن فظهرت الطبقات الاجتماعية، الغنى والفقير، والسياسية، الرئيس والمرؤوس، مما استلزم أشكالاً متطورة من الحكومات درسها الغرب الحديث بعد أن مارستها الإنسانية قبله. وانقسمت الأمم إلى أحزاب سياسية تختلف فيما بينها فى كيفية تطبيق أشكال الحكومات، بديهية فى الغرب، غامضة فى الشرق.

والاستبداد هو الحكم الذى لا توجد بينه وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم. ولا عبرة فيه بيمين أو عهد أو دين وتقوى أو حق وشرف أو عدالة ومقتضيات المصلحة العامة.

ويتطلب ذلك عدة مباحث تدور حول محاور ستة: الأمة، والحكومة، والحقوق، والوظائف، والقوانين، والخدمات، وأهمها الحكومة أو الحكم الذى به يتعلق الاستبداد.

أولاً: الأمة والفرق بينها وبين الشعب. هل هى ركام مخلوقات أو جمعية عبيد لمالك متغلب، أم جمع يربطه الجنس والوطن وحقوق مشتركة؟

ثانياً: الحكومة، هل هى تسلط على الرقاب تفعل ما تشاء أم وكالة سياسية عن الأمة لإدارة شئونها العامة؟ وما نوعيتها، الملكية المطلقة أم المقيدة، ونوع القيد أو الرياسة الانتخابية مدى الحياة أو موقوتة؟ هل تنال بالوراثة أو العهد أو الغلبة؟ وهل يتحدد ذلك بالمصادفة أم بالكفاءة وشروطها؟ وما وظائف الحكومة، إدارة شئون الأمة حسب الرأى والاجتهاد أو تكون مقيدة بقانون يعبر عن رغبات الأمة؟ وما العمل إذا اختلفت الحكومة مع الأمة فى اعتبار الصالح فهل الأمة فوق الحكومة؟ وما هى حقوق الحاكمية، تخصص الحكومة لنفسها ما تشاء من مراتب العظمة ورواتب الحال، تهب

قراءة جديدة للكواكبى فى:

”طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد“



وتمنع ما تريد أم طبقاً لوكالة الأمة؟ وهل تطيع الأمة الحكومة على الإطلاق أو عن طريق الإقناع حتى تأتى الطاعة اختياراً وعن رضى؟ وهل هناك رقابة على الحكومة من الأمة أو وكلائها، أم أنها غير مسئولة تفعل ما تشاء. وكيف يتم رفع الاستبداد، من الحكومة ذاتها أم من عقلاء الأمة؟

ثالثا: الحقوق العمومية لمعرفة هل الحكم ملك أم أمانة ونظارة على الأملاك العمومية مثل الأراضى والأنهار والسواحل والمعادن والقلاع والجيوش والمعاهدات وتامين وظائفها؟ هل تتصرف فيها الحكومة بإرادتها أم هناك مساواة فى الحقوق بين الناس، فصائل وبلداناً وأدياناً؟ وهل تملك الحكومة السيطرة على الأعمال والأفكار أم أنها جزء من الحقوق الشخصية تدخل فى إطار حرية الفكر؟

رابعاً: وظائف الحكومة ومهامها فى وضع الضرائب بإرادتها المطلقة أم بمشاركة إرادة الأمة؟ وإعداد المنعة، بالقوة والتجنيد الإجبارى والتسليح ضد العدو الخارجى أولقهر الأمة وضد رغبتها؟ والحرص على الأمن العام مسئولية الأفراد أو الحكومة نيابة عنهم؟ وهل يتم توزيع المناصب على أقارب الحاكم ومعارفه أو على كافة القبائل والطوائف بحيث تكون الحكومة جزءاً مصغراً من الأمة دون ذكر الكفاءة والقدرة والأهلية؟ وهل تجتمع السلطات السياسية والدينية والتعليمية فى سلطة واحدة أم يتم التفريق بين السلطات؟

خامساً: القانون وحفظ السلطة فيه بحيث لا تكره الحكومة الناس خارج القانون، وتأمن العدالة القضائية بحيث لا يكون العدل ما تراه الحكومة بل ما يراه القضاة. هل حفظ الدين والآداب للحكومة أم للقضاء، ودور الحكومة فى حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية واللغة والعادات والآداب العمومية دون أن تتدخل الحكومة فى أمر الدين ما لم تنتهك حرمته، وتعيين الأعمال بقوانين وحدود وسلطة الشرطة والتزامها بالقانون، وطريقة سن القوانين، تعبيراً عن إرادة الحاكم أو جماعة منتخبة من قبل الأمة. وهل القانون هو حكم القوى على الضعيف أم أحكام يتساوى أمامها جميع الناس بصرف النظر عن الطبقة، وله احترامه وسلطانه على الجميع.

سادساً: تيسير الخدمات العامة مثل التوسع فى الزراعة والصناعة، وإلى أى حد يمكن تركه للقطاع الخاص أم للقطاع العام بلغة العصر؟ والتوسع فى العمران وإلى أى حد تتدخل الحكومة فيه ومراعاة الاعتدال فيه دون بذخ وإسراف؟ والترقى فى العلوم والمعارف ودور الحكومة فى ذلك ونسبته إلى المبادرات الخاصة، وهل يكون التعليم جبراً أم اختياراً فرضاً من الحكومة أم حراً مطلقاً؟

وفى مبحث رفع الاستبداد يضع ثلاث قواعد: الأولى كون الأمة التى لا يشعر أكثرها بألام الاستبداد لا تستحق الحرية، والثانية أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم بالحكمة والتدرج، وتغير إحساسات الناس وأمزجتهم، وإلا وقعت الفتن. ومن يدرى ربما يكون الثوار الجدد أشد استبدادا من المستبدين القدماء. ولا يثور العامة ضد المستبدين إلا فى حالات مخصوصة، مشهد دموى لمظلوم، هزيمة المستبد فى الحرب، إهانته للدين، أزمة اقتصادية خانقة، مجاعة عامة، نقض لقوانين البلاد الموروثة، تضييق ينتهى بمشاركة النساء فى الثورة عليه، موالاته للعدو. والثالثة تهيئة البديل عن الاستبداد قبل مقاومته ولا يكون بديلاً على الإجمال بل برنامجاً تفاصيلياً يقتنع به الناس موافقاً لرأى الأغلبية التى عانت من الاستبداد. بالإضافة إلى وضوح الغاية وسهولة الاتصال (وقد كانت صعوبة الاتصال بين أنصار على أحد أسباب عدم نجاحه ومن والاه من أئمة آل البيت). فما هو شكل الحكومة البديلة عن الاستبداد؟

إن لم تكن الأمة مسئولة عن نفسها حريصة على حريتها استبدت بها أمة أخرى كما هو الحال فى الوصايا على السفيه المقررة فى الشرائع. والله لايظلم الناس بل الناس أنفسهم يظلمون.

من الواضح فى تصور الكواكبى لوسائل التخلص من الاستبداد أن الغرب لديه نموذج للتحديث، الغرب الليبرالى، الحكومة المقيدة، المسئولة أمام البرلمان، والتعددية الحزبية، والأغلبية والأقلية، وسيادة القانون، والمساواة فى الحقوق والواجبات. والحكومة أى السلطة هى مركز الدولة كما هو الحال فى الفكر السياسى الدينى، والتركيز على الإمامة وصفات الإمام أكثر من المؤسسات ووسائل الرقابة على الإمام.

وواضح من المقارنات بين الاستبداد من ناحية، والدين والعلم والمال، والأخلاق والتربية، والمجد والترقى من ناحية أخرى أهمية الاستبداد والدين، والاستبداد والترقى، فكما أن الدين يمكن أن يكون مصدراً للاستبداد سواء فى تصوراته للعالم أو فى مؤسساته يمكن أن يكون مصدراً للتحرر، «أفيونا للشعب» أو «زفرة للمضطهدين». كما أن الدين يمكن أن يكون عقبة فى سبيل التقدم إذا ما قام على الاستبداد وكما كان الحال فى العصر الوسيط الأوروبى، ويمكن أن يكون دافعاً على التقدم كما كان الحال فى تراثنا القديم. ويظل السؤال قائماً، ومن الذى يقوم بتحديد أى الوظيفتين وفى أى ظرف تاريخى؟ ومن الذى يضع الجرس فى رقبة القط؟ هذا هو السؤال. ■

كتاب الزاوية

من شعر «صلاح عبد الصبور»

أحلام الفارس القديم

لو أننا كنا كغصنىْ شجرَهْ
الشمسُ أرضعتْ عروقنا معًا
والفجرُ روّانا ندى معًا
ثم اصطبغنا خضرةً مزدهرهْ
حين استطلنا فاعتنقنا أذرُعا
وفى الربيع نكتسى ثيابَنا الملوّنَهْ
وفى الخريف، نخلع الثياب، نعرى بَدنَا
ونستحم فى الشتا، يُدفئُنا حُنوُّنا
لو أننا كنا بشطِّ البحرِ موجتينْ
صُفِّيتا من الرمالِ والمحَارْ
تَوَّجتا سبيكةٌ من النهار والزَّبَدْ
أسلمتا العنان للتيّار
يدفعُنا من مهدنا للحْدنا معا
فى مشية راقصة مُدندنهْ
تشربُنا سحابةٌ رقيقهْ
تذوبُ تحت ثغرِ شمسٍ حلوة رفيقه
ثم نعودُ موجتين توأمينْ
أسلمتا العنانَ للتيارْ
فى دورة إلى الأبدْ

أيمـــن الصيـــاد

لم يأت ١١ سبتمبر بأكثر من «تعرية» وعد العولمة الأمريكى بأن عالم ما بعد الحرب الباردة قد تطور إلى عالم الانفتاح بعد الانغلاق السوفيتى الذى هدد حريات العالم

لا جديد.. فى العالم الجديد!

عندما نشرت الصحافة الأمريكية قبل أسابيع نصوصًا كاملة «مثيرة» لمحادثات هاتفية بين أمراء الأسرة الحاكمة السعودية، صدم الأمر - أو ربما «المحتوى» - كثيرين ممن تسنى لهم فى عالمنا العربى - وهم قلة على أية حال - الاطلاع على المقالة. ولكن - رغم الضجة «المكتومة» حول الأمر أو بالأحرى «النشر» - تبقى حقيقة أن التنصت.. ومن ثم التسجيل ليس جديدًا. وإنما «النشر» هكذا، صراحة ودون مواربة، هو الجديد، وتبقى حقيقة أن الحدث، ومثله كثيرٌ - رغم ما يبدو من تباين فى درجة اللون - يعكس حقيقة أن العالم لم يتغير - راديكاليًا - بعد الحادى عشر من سبتمبر كما يعتقد الكثيرون، وإنما ما تغير فعلاً هو درجة الوضوح أو الصراحة.. أو «البجاحة» إذا استعرنا تعبيرًا لغويًا يصف «بعضَ الصراحة» أحيانًا.

فبدلاً من شعارات للعولمة تقول: «نطمح فى تعاون دولى عالمى يزيل الحدود والقيود.. إلخ»، أصبح المبدأ معلنًا: «من ليس معنا فهو ضدنا.. وعليه أن يتحمل النتائج».

واللهجة شبه الدبلوماسية التى استمرت لسنوات تؤكد على اهمية وقف العنف فى الضفة والقطاع أو فى الشرق الأوسط (يتجنب الأمريكيون عادة استخدام تعبير «الأرض المحتلة»)، تحولت على لسان كوندوليزا رايس مستشارة الرئيس الأمريكى للأمن القومى إلى: «لإسرائيل الحق فى أن تدافع عن نفسها بالصورة التى تراها.. وعلى عرفات أن يوقف الإرهاب الفلسطينى فورًا..» مؤكدة أنه «يتعين التعامل مع حزب الله بصفته منظمة إرهابية.. وأن بعض الإرهاب الحالى ضد إسرائيل، شىء لا يمكن للولايات المتحدة أن تتحمله..» (!) طبقًا لتصريحات رايس لصحيفة «عربية» بعد ساعات من تصريحات نشرتها صحيفة أمريكية يتغزل فيها شارون فى سيقان السيدة الأمريكية الرشيقة.

(نص كلام شارون فى النيوزويك: «علىّ أن أعترف.. لقد كان من الصعب أن أركز فى الحديث مع كوندوليزا رايس لأن لديها ساقين جميلتين..»).

الإنترنت فى الزمن

حقيقة الأمر أن رايس لم تكشف عن ساقيها - كما فعلت ملكة سبأ - لشارون الباحث الدءوب عن «عرش سليمان». كما أنها لم تُقصِّر ما اعتادته من ثياب. وهى - ربما - لم تضع ساقًا على أخرى كما كانت تفعل دائمًا السيدة أولبرايت وزيرة خارجية كلينتون فى حضرة الزعماء العرب. كل ما هنالك أن رايس أصبحت أكثر «وضوحا».. وصراحةً. ولمن يريد أن يقارن - أو يطابق إذا صحت لديه الرغبة فى ذلك - أن يرجعَ إلى مقالٍ مطول كانت السمراءُ الأنيقة قد نشرته قبل عامين فى دورية أمريكية أكاديمية متخصصة، ناقشت فيه «استراتيجيات السياسة الأمريكية فى قرن جديد». يومها كانت كوندوليزا خارج الإدارة، بما تقتضيه - أو كانت تقتضيه - من دبلوماسية فى القول، أو تغليف للتعبير.

فى عالم الواقع إذن، ورغم ضجيجٍ علا صوتُه.. يبدو أن السياسة «هى هى» كما يقول العربُ القدامى والعامةُ المحدثون. لا الأهداف «الاستراتيجية» تغيرت.. ولا المبادئ تحولت.

فى العالم الآخر «الافتراضى» The Virtual World كما يُوصَفُ دائمًا وبحق مجتمع الإنترنت، يبدو أن الصورة أيضًا لا تختلف كثيرًا.

فقبل أيام فقط من الحادى عشر من سبتمبر الشهير كانت مجموعة من عملاء الـ FBI فى تكساس تتجه إلى إحدى أكبر شركات استضافة مواقع الإنترنت Hosting Company فى أمريكا. لتفتش وتصادر وتعطّل عددًا من الأجهزة الخادمة Servers التى تحمل محتويات مواقعَ عربيةٍ وإسلاميةٍ مهمة مثل بوابة

Congressional Statement
Federal Bureau of Investigation:
On Cyber Security
August 29, 2001



الأمـــــــــريكى!

«عروب» الفلسطينية aroob.com والجزيرة نت aljazeera.net التابع لقناة الجزيرة القطرية.

والثابت أن الإجراء الذى كان مخالفًا للقوانين التى كانت ساريةً وقتها، حدث قبل أن ينطلق نفير الهستريا الأمنية الذى ترددت أصداؤه لاحقًا صباح ذلك اليوم «السبتمبرى» لتعصف بأوضاع قانونية مستقرة، وبكيانات وجماعات.. وحسابات «سياسية قبل مصرفية».. وبعد كل ذلك، وربما قبله، بالخصوصية والاستقلالية .. والأمان.

ما حصل فى شركة الكمبيوتر فى تكساس فى أغسطس الماضى من اجتياح رجال المباحث الفيدرالية الأمريكية لأجهزة استضافة مواقع الويب متجاهلاً جوهر فلسفة الإنترنت ذاتها القائمة على الحرية والتواصل والعولمة، لم يكن بعيدًا عنه ما حدث فى الأسبوع نفسه على الناحية الأخرى من العالم فى «ديربان» حين شهدت فعاليات مؤتمر مناهضة العنصرية مواجهة عنيفة بين إرادة «الحكومة» الأمريكية واتجاهات المنظمات غير الحكومية NGOs ببساطة وبحسم أن يكون للآخرين حقّ فى نشر ما يرونه على الشبكة الدولية ذاتها، مما يمثل نموذجًا صارخًا لازدواجية المعايير والوصف ليس من عندى بل جاء ضمن تعليق لجماعة Internet Freedom على مقالة الكاتبين الأمريكيين.

الحدث إذن، إلى جانب أحداث أخرى ذات صلة، ربما مثلت إرهاصات مبكرة - سارعت بها توابع زلزال سبتمبر - لتكريس ما أسمته جماعات الدفاع عن الحريات المدنية «إمبريالية الإنترنت»، والتى تعكس واقع توازن القوى الحقيقى حتى فى العالم التخيلى (٧٠٪ من البنية الأساسية لشبكة الإنترنت مملوك لشركات أمريكية).

١١ سبتمبر إذن - على عكس ما قد يظنه البعض - لم يأت بأكثر من «تعرية» وعد العولمة الأمريكى بأن عالم ما بعد الحرب الباردة قد تطور إلى عالم الانفتاح بعد الانغلاق السوفياتى الذى هدد حريات العالم. ففى هذا العالم «اليوتوبى» كان يُفترض أننا انتقلنا إلى عالم بلا حدود تسيح فيه المعلومات والتجارة والأفكار، والتى - بحكم الفكرة ذاتها - لاينبغى أن تكون مقبولةً «فقط» عندما تكون أحادية الاتجاه وإمبريالية المصدر. إلا أن قوانين الطبيعة والتاريخ للأسف تقول بأن الافتراضات المتعلقة بالأمانى - فى نهاية المطاف - تظل «نظرية» حينما تصطدم بقوى لها بالضرورة موازين.. ورياح لها بالصيرورة اتجاه. والمعادلات تحكم بالطبيعة الحسابات.

كشف ١١ سبتمبر القناع اللامع لبشرى العولمة ليترك الحقيقة سافرة «خيوط اللعبة ما زالت فى أيدى اللاعبين الكبار التقليديين ولم تخرج من قاعات دوائر الأمن والاستراتيجية وما زالت محكومة بجبروت تلك الدوائر وصرامة بوصلتها.

هيســــــتريا أمنيــــة

حالة الهيستريا الأمنية التى ضربت الولايات المتحدة مواطنين ومؤسسات، بعد الحادى عشر من سبتمبر، والتى طالت - على الأقل عند العامة - أشخاصاً لمجرد أنهم يحملون الاسم: «أسامة»، وصلت إلى درجة أن المدعى العام الأمريكى عقد مؤتمراً صحفياً طارئاً أعلن فيه أن «الحكومة لاتستبعد أن يكون «الإرهابيون خططوا لهجمات الكترونية بالإضافة إلى الهجمات الفعلية..» وذلك كرد فعلى فورى وجاهز على انطلاق فيروس الكمبيوتر Nimada بعد أيام من الهجمات، رغم أنه لم يكن أبداً الأول ولن يكون الأخير فى هذا العالم الغامض المثير (عدد الفيروسات التى تم اكتشافها حتى تاريخ كتابة هذه السطور يزيد على ثمانية وخمسين ألفاً، أو على وجه الدقة ٥٨٣٧١ فيروساً)

وفيروسات الكمبيوتر التى ظهر الجيل الأول منها عام ١٩٨٧ فى أحد المختبرات الجامعية لأغراض بحثية عبارة عن برنامج كمبيوتر صغير الحجم (بريمج) له القدرة على ربط نفسه بالبرامج الأخرى، وكذلك إعادة إنشاء نفسه حتى يبدو كأنه يتكاثر ويتوالد ذاتيًا، مما يتيح له القدرة على الانتشار فيفسد عمل برامج الحاسب المختلفة، أو حتى نظام التشغيل نفسه.

ولا يقتصر انتشار فيروس الحاسب الآلى على النظام أو الحاسب الذى يتواجد به، ولكنه ينتقل أيضًا إلى نظم أخرى ذات صلة ببعضها، وقد تتحقق هذه الصلة عن طريق تبادل الوسائط التخزينية (الأسطوانات المرنة أو المدمجة... إلخ) والمصابة بالفيروس، كما تتحقق بدرجة أكثر انتشارًا من خلال الشبكات التى تربط أجهزة الكمبيوتر ببعضها سواء كانت صغيرة فى داخل المكتب نفسه LAN أو ذات نطاق أوسع WAN أو حتى تلك «العالمية» الأكبر على الإطلاق (الإنترنت) والتى تصل فعليًا، وعلى مدار الساعة بين ملايين الأجهزة فى أرجاء العالم قاطبة، سواء كان ذلك الجهاز فى مطبخ مراهق فى كوالالمبور أو فى إحدى الغرف المحصنة تحت الأرض فى البنتاجون.. أو حتى على حجر ذلك المسافر فى القطار السريع الذى يشق دلتا النيل فى طريقه إلى القاهرة.

ومن ذلك يتضح إمكانية انتقال الآثار التخريبية لفيروس الكمبيوتر من مدينة إلى أخرى أو من بلدة إلى أخرى أو من قارة إلى قارة وفى وقت قصير للغاية قد لا يتعدّى الدقائق أو الثوانى المعدودة، كما يتضح فى الوقت نفسه مدى خطورة انتشار الفيروس، إذا كان من النوع المؤثر، سواء على المستوى الفردى أم الجماعى، أم القومى.

ويختلف أثر فيروس الكمبيوتر من واحد إلى آخر، فمنها ما هو «طيب» لاتنتج عنه أضرار تُذكر، ويقتصر على مداعبتك بإظهار رسالة براقة تحتل فجاة شاشة الجهاز لتعلمك «أنه هنا.. ومع تحياتى». ومنها ما هو شرير، يصل فى شره إلى حد احتلال جهازك «متخفياً» ليتخذ منه منصة لمهاجمة كل أصدقائك الذين تتصل بهم عن طريق البريد الالكترونى منتحلاً صفتك دون أن تدرى، ومنها ما يضع فى

والمفترض أنها - وفقًا للمبشرين - تمثل أحد أركان «العالم الجديد». يومها انتصرت الإرادة الأمريكية «بإجماع الحكومات».

ويومها - وقبل الحادى عشر الشهير - بات السؤال حول «معنى العالم الجديد» مثقلاً بعلامات الاستفهام.

وإذا كانت القاعدة الأمريكية تقول بأن أصوات الإعلام تمهد لأفعال الساسة، فقد لايكون بعيدًا عن ماحدث فى تكساس المقال المطول الذى نشرته صحيفة الـوول ستريت جورنال فى ١٣ أغسطس ٢٠٠١، لدانيال بايبس (أكاديمى) وستيف إيمرسون (صحافى) والذى نشر أيضا فى اليوم نفسه على الإنترنت بعنوان «مواجهة قوى الإرهاب تدعو السلطات الأمنية فى الولايات المتحدة إلى إغلاق عشرات مواقع الإنترنت العربية والإسلامية المؤيدة للفلسطينيين» والتهمة كالعادة «معاداة السامية». والمثير أن المواقع التى ذكرها وعددها الكاتبان فى مقالهما هى ذاتها التى استهدفها مكتب التحقيقات الفيدرالى فى غارته يومها على الشركة التى تجددت متاعبها بالطبع بعد أحداث سبتمبر وما تبعها من قوانين.

وهنا لابد من ملاحظات ثلاثة:

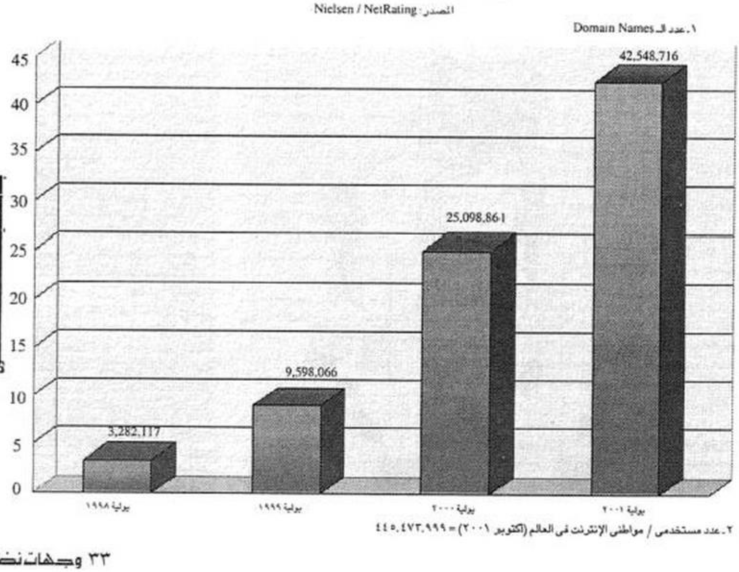
١ـ أن استهداف تلك المواقع حدث قبل الحادى عشر من سبتمبر.

٢ـ أن الكاتبين يمثلان فيما عرف عنهما مصدراً استشارياً مهماً للجان الكونجرس الأمنية والمختصة بالشؤون الخارجية، وكذا أيضاً لوكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالى، وأن آراءهما المعلنة تتلخص فى أن إسرائيل على حق فى كل ما تفعله، وأن العرب والمسلمين لا يفهمون سوى لغة القوة التى تمارسها إسرائيل و«هى محقة فى ذلك».

٣ـ المقال الذى نشر على الإنترنت يُنكر

الامبراطورية: نمــو الإنتــرنت فى العالــم

المصدر: Nielsen / NetRating



٢. عدد مستخدمى / مواطنى الإنترنت فى العالم (أكتوبر ٢٠٠١) = ٤٤٥،٤٧٣،٩٩٩

جهازك. وبالتالى فى الشبكة المتصل بها بابا خلفياً Back Door يسمح للآخرين لاحقًا بالتسلل للشبكة عبره للعبث بالبيانات المخزنة عليها.

وهناك أنواع مختلفة من الفيروسات، منها التقليدى الذى لايصيب الجهاز إلا إذا وقع مستخدمه فى شرك «الغواية والغفلة»، وحاول فتح ملف مرفق مع رسالة اليكترونية (يحمل عادة اسما مغرياً مثل Naked Wife أو New Job ويتخفى الفيروس داخله). ومنه ما هو أكثر ذكاء ويعرف بالـ Worms ويعمل مثل دودة الأرض فينتشر فى أرجاء الشبكة مخربًا أو ملتهمًا ما بها من بيانات. أما فيروس حصان طروادة Trojan Horse فقد أخذ مبرمجه الفكرة اليونانية القديمة فى إخفاء الجنود داخل الحصان الخشب.

مـراهقـون.. ومتـمـردون

وتحمل بعض الفيروسات المدمرة الشهيرة والتى يخلقها عادة «مراهقون عباقرة» راغبون فى إثبات ذواتهم، أو متمردون على قيم الرأسمالية والعولمة، أسماء مثيرة لها مدلولها. فمازال الجميع يذكر فيروس «تشيرنوبيل» والتى كانت كارثة المفاعل النووى الروسى التى ضربت أوكرانيا فى ٢٦ أبريل عام ١٩٨٦ هى الحافز وراء إطلاقه وتسميته بنفس الاسم. وبرمجته بحيث ينام متخفيا داخل جهاز الكمبيوتر طيلة العام ولا ينشط للعمل إلا فى السادس والعشرين من أبريل من كل عام (تاريخ الكارثة) مذكرًا بها لا أكثر. مثلما هو الحال مع فيروس «مايكل أنجلو» القديم الذى ينشط فى ٢٦ مارس من كل عام ليمسح معلومات القرص الصلب للأجهزة المصابة به فى احتفال مجنون بذكرى ميلاد فنان عصر النهضة «مايكل أنجلو»!!.

و تشيرنوبيل فيروس مدمر يعمل على إعطاب الجهاز تماما، بعكس فيروس I Love You الشهير واسع الانتشار الذى خرج من الفليبين فى ٤ مايو ٢٠٠٠ ليحتل رأس قائمة الفيروسات الأكثر شهرة Top Ten قبل أن يخطفها منه فيروس Melisa الذى اجتاح العالم العام الماضى. ويعتمد كلاهما على استخدام أنظمة البريد الإلكترونى التى صارت أساسًا للتراسل فى عالم اليوم. ويستهدف الفيروس أساسًا أجهزة الكمبيوتر التى تعمل «بنظام ويندوز» الذى تنتجه شركة مايكروسوفت العملاقة وبخاصة تلك التى تستخدم نظام «إكسبلورر» لتصفح الإنترنت، الذى تنتجه الشركة «المحتكرة» ذاتها. ويظهر الفيروس فى البريد الإلكترونى على صورة رسالة بعنوان «أحبك» Love You أوفى حالة فتحها ينتشر الفيروس بأن ينسخ نفسه ليرسل أتوماتيكيًا رسالة مشابهة Infected لكل عناوين البريد الإلكترونى المسجلة لدى المستخدم. قبل أن يتسلل فى هدوء فى بنية الحاسب محدثًا آثاره التخريبية.

والمثير أن آلية عمل فيروس مليسا ذى الاسم الرقيق تشبه إلى حد كبير الطريقة التى يعمل بها الفيروس الذى عرف باسم «بن لادن» وكلاهما ينتمى إلى فئة Internet Worms. وفيروس بن لادن - إذا استخدمنا الاسم من باب خطأ مشهور أفضل من صواب مهجور - ظهر فى آسيا بعد أسابيع من هجمات سبتمبر. واسمه الحقيقى Toal حسب المعاجم المتخصصة فى الموضوع. إلا أن مبتكريه - والذين ربما استهدفوا أتباع المنشق السعودى - ضمنوه ملفا يحمل اسم بن لادن مرفقًا برسالة تُرسلُ تلقائيًا إلى آلاف العناوين المسجلة فى البريد الالكترونى.

ورغم حقيقة عدم صحة ما يشيع أحيانا بين العامة من خلط بين فيروسات الحاسب والفيروسات العضوية الطبيعية التى تهاجم الكائنات الحية، وتتكاثر ذاتيًا فى داخلها، وتصيبها بالأمراض الفتّاكة، إلا أنه من المثير أن نعلم أن فيروس الحاسب يحمل مجموعة من الخصائص التى يتميز بها الفيروس الطبيعى. وذلك كمايلى:

١- يقوم الفيروس العضوى بتغيير الخصائص العضوية لخلايا الجسم، مؤثرًا على كيفية قيامها بوظيفتها الأصلية. وهو الأمر نفسه الذى يحدثه فيروس الحاسب حين يقوم بتغيير وظائف البرامج الأخرى، أو إرباك نظام التشغيل ذاته.

٢- يتكاثر الفيروس العضوى ويتسبّب فى إنشاء فيروسات جديدة. ويشبه فى ذلك ما يقوم فيروس الحاسب حين يعيد إنشاء نفسه (Reproduce itself) فيظهر وكأنه يتكاثر ذاتيًا.

٣- الخلية التى تُصاب بالفيروس العضوى لا تُصاب بالفيروس نفسه مرة ثانية، وكذلك فيروس الحاسب الآلى، لا يصيب برنامجًا مصابًا.

٤- الجسم الذى ينقل إليه الفيروس الطبيعى العدوى قد يظل مدة طويلة دون ظهور أعراض المرض عليه، وكذلك أنظمة الحاسب المصابة بالفيروس قد تبقى مدة طويلة دون ظهور أعراض تخريبية عليها.

٥- فى بعض الحالات يقوم الفيروس العضوى وفيروس الحاسب بتغيير شكليهما؛ حتى يصعب اكتشافهما والتغلب عليهما.

وتبقى حقيقة أنه مثلما هناك فيروس جديد يظهر كل يوم تقريبًا، تحرص برامج مقاومة الفيروسات على تطوير نفسها باستمرار لتتمكن من حماية الأجهزة والشبكات وإبقائها فى حيز الأمان الذى يظل ممكنا فى كل الأحوال إذا توافر الوعى التقنى الكافى. وتبقى الإصابة فى كل الأحوال، كما يقول اختصاصيو أمن المعلومات، «مسؤولية كل مصاب».

الصـــــينيـــــون

التحذير من هجمات فيروسية كان موضوعا رئيسا لتقرير أعده مكتب المباحث الفيدرالية الأمريكى FBI تحت عنوان Cyber Security وتم عرضه أمام لجنة خاصة من الكونجرس يوم ٢٩ أغسطس ٢٠٠١ (قبل أيام فقط من ضربة الحادى عشر من سبتمبر). وكانت مناسبة التقرير الاستجابة لحالة الاهتمام الإعلامى ومن ثم فى الكونجرس - والمبالغ فيها من وجهة نظر المتخصصين - بانطلاق فيروس Code Red بإصدارتيه (الأولى يوم ١٣ يوليو ٢٠٠١ والثانية مع بداية أغسطس) والذى كان مطوروه قد نجحوا فعلاً فى توجيه ضربة موجعة إلى الشبكة العنكبوتية، مما تسبب فى إبطائها ونشر البلبلة بين جمهور مستخدميها فى العالم.

ومعلوم أن كود ريد، الاسم الذى ترتعد منه فرائص جميع المتطوعين الجُدُد فى قوات مشاة البحرية الأمريكية (مارينز)، يشير إلى عقوبات جسدية ونفسية قاسية وغير إنسانية، هدفها الإخضاع بالقهر والترويع. وأحياناً تصل القسوة إلى حد الموت، لذا يُمنع كود ريد رسمياً، لكنه يُطبق عبر طرق غير شرعية، وفى ظل إنكارٍ متواصل.

وربما كان للاسم Code Red دلالته فالفيروس الذى ضرب قرابة ١,٥ مليون كومبيوتر فى أمريكا، إضافة إلى ستة ملايين جهاز فى سائر أنحاء العالم، و جاء انتشاره مواكباً لأزمة طائرة التجسس الأمريكية على السواحل الصينية كان دائمًا يترك رسالة على شاشة الجهاز المصاب تحمل عبارات: «الموقع اخترقه الصينيون».

ويدخل كود ريد الجهاز، ولكنه لا يحاول الوصول إلى الملفات الرقمية وضربها، كما غيره من فيروسات المعلوماتية. لكن ما يفعله أبسط وأعمق: إنه يتمترس فى الكومبيوتر ويتكاثر، كما الأرنب فى الجحر، ويرسل نسخاً لا نهائية من البيانات الموجودة على الجهاز المصاب إلى جهاز آخر على الشبكة فيصيبه بالشلل قبل أن يكرر السيناريو ذاته.. وهكذا دواليك. إلى الموقع الذى يريد ضربه.

ويهتم الفيروس بالوصول إلى الأجهزة التى تتضمن جبالاً من المعلومات، مثل مواقع الجامعات الكبرى والموسوعات الضخمة والمؤسسات العلمية وأرشيفات الوثائق وغيرها. ويُنتج الفيروس النسخة تلو النسخة من تلك الأرتال الرقمية ويرسلها، عبر البريد الالكترونى، إلى عناوين المواقع التى يستهدفها، وكأنه يحرّك جبالاً من رمال على الطرقات العامة، فتكون النتيجة بطئًا فى الحركة وصعوبة شديدة فى التنقل بين المواقع، مما يصيب خدمات الشبكة بالتوقف.

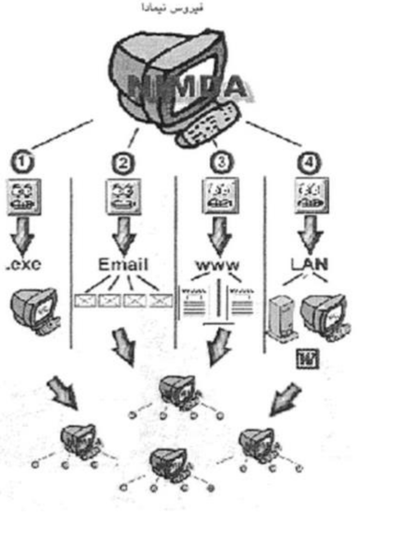
وكان الفيروس الذى ضرب قبل الحادى عشر من سبتمبر قد أجبر وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) على إغلاق مواقعها، وأربك خبراء أف بى آى واختصاصيى حماية أمن العمل المعلوماتى، الذى بات عصباً أساسياً فى الاقتصاد.

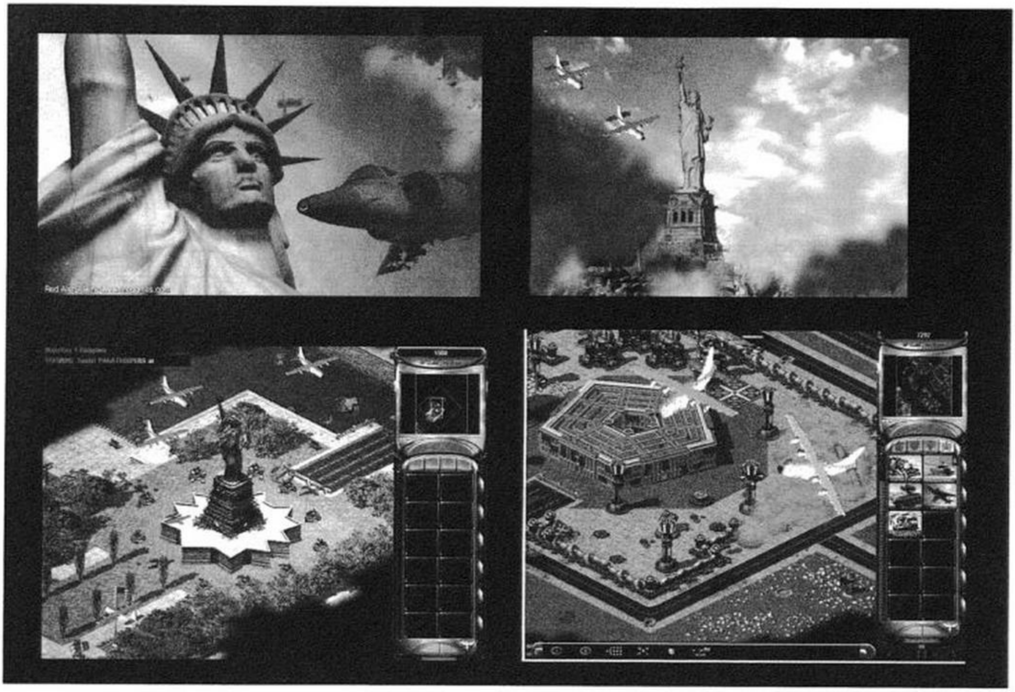
هل فعلها الصينيون كما يذهب تقرير الـ FBI إلى الاعتقاد. أم هم مراهقو الجيل الذى ينمو فى عصر المعلوماتية والشبكات. والذين تحدد تفاعلاتهم سمات العصر الرقمى والشكل سريع التغير للإنترنت، حتى لو لم يحركهم سوى النزق ونزوات المراهقة. أم هم تلك الفئة من الشباب المتمرد (النسخة الحديثة من لابسى قمصان جيفارا والمعتصمين بميادين باريس فى الستينيات) والمعارضون للعولمة وللتلوث البيئى، والمتظاهرون فى سياتل وديربان ضد النسخة الأمريكية المتسلطة وغير العادلة للعالم الجديد.

التشـغـيـر والتـعـبـيـر

أيًا ما كان الأمر فإن تقرير الـ FBI المتشائم أمام الكونجرس والذى تحدث طويلاً عن الحرب المعلوماتية والمخاطر اللانهائية «المحتملة»، سبقته كالعادة تقارير صحفية وتصريحات علنية متكررة بدأت مع بداية القرن الجديد، وبالتحديد فى فبراير ٢٠٠٠

فيروس نيمادا





Red Alert 2 هى واحدة من مئات الألعاب الإلكترونية المخصصة للكمبيوتر. والمثير أن ابنى الصغير فاجأنى يوم كانت إحدى شبكات التلفزة تستعرض أهم لقطات العام المنصرم بأن لعبته الكمبيوترية (الأمريكية) تسمح له فى إحدى مراحلها بأن يفعل الأمر ذاته، ويهاجم بطائرته المعالم الرئيسية للولايات المتحدة مثل البنتاجون وتمثال الحرية ومركز التجارة العالمى.. إلخ، وأنه فى تلك الحالة يحصل حتماً على نقاط إضافية !!

حين حذر لويس فريه مدير مكتب التحقيقات الفيدرالى الأمريكى يومها من أن «عمليات اختراق أنظمة الكمبيوتر باتت تمثل تهديدا للأمن القومى والاقتصادى للولايات المتحدة» وأن المشكلة تتفاقم بسرعة، بالرغم من أن مكتب التحقيقات قد نجح فى تطوير قدراته على التصدى لهذه الهجمات.

وكان من الطبيعى تماما وقتها أن تخرج وزيرة العدل لتطالب «بموازنة» تخصص لهذا الغرض.

وفى فبراير أيضاً من العام التالى ٢٠٠١ خرجت صحيفة USA Today الأمريكية لتعلن«أن إسلاميين متشددين بينهم أسامة بن لادن يضعون صورا ورسائل مشفرة على مواقع شهيرة على الإنترنت» ويستخدمونها فى التخطيط لهجمات ضد الولايات المتحدة وحلفائها. ونقلت الصحيفة عن مسؤولين قانونيين أمريكيين وخبراء «أن المتشددين يستخدمون البريد الالكترونى والملفات المحفوظة على الكمبيوتر لإخفاء خرائط وصور عن أهدافهم وتعليمات بتنفيذ هجمات عبر منتديات الحوار والصفحات الإباحية ومواقع أخرى على الإنترنت».

ويبدو أن مقال الصحيفة الأمريكية كان يتحدث عن تقنية للتشفير يعرفها القليلون من المتخصصين وتعرف بـ Steganography وتقوم على فكرة الحبر السرى التقليدية. إذ يستطيع المتخصص وباستخدام أكواد معينة أن يخفى نصوصاً وخرائط فى ملفات صور أو حتى ملفات MP3 الموسيقية. التى يتم تبادل الملايين منها كل يوم عبر الانترنت.

وفى عرف كاتب المقال الذي نقلته كل وسائل الإعلام فى حينه، فالانترنت أصبحت مجالا جديدا لصناديق« بريد الجواسيس». حيث يجرى تشفير الرسائل بواسطة برامج وضعتها جماعات تؤيد الخصوصية عبر الانترنت .ومن الممكن ان تخفى هذه البرامج خرائط وصورا داخل صفحات قائمة على مواقع مختارة .ويجرى فك الرسائل المشفرة باستخدام «زر خاص» أو شفرة معينة يضعها المتلقى.

وأوردت الصحيفة أن مسؤولين رفضوا ذكر المواقع التى جرى إخفاء هذه المواد عليها مستشهدين بدواع أمنيةبالرغم من أن الخبراء أوضحوا – والكلام مازال للصحيفة الأمريكية – انه يصعب على اجهزة الأمن تعقب هذه الرسائل.

تقرير الصحيفة الامريكية أشار بالتالى إلى ان جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية كتب فى تقرير لجلسة مغلقة للجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ: «إن الجماعات الارهابية بما فى ذلك حزب الله وحماس وجماعة القاعدة التى يرأسها بن لادن تستخدم بدرجة كبيرة الملفات المحفوظة على الكمبيوتر والبريد الالكترونى لمساندة هذه العمليات». وأن بن لادن بدأ يستخدم الملفات المشفرة منذ خمسة أعوام«إلا انه زاد من استخدامها فى الآونة الأخيرة بعدما كشف مسؤولون أمريكيون أنهم يسجلون مكالماته الهاتفية عبر القمر الاصطناعى فى افغانستان ويتعقبون نشاطاته.

الفـــزع.. والمبـــالغـــة

لم تكن أصداء حديث ممثل الـ FBI أمام الكونجرس فى التاسع والعشرين من أغسطس قد خفتت بعد، حين جاءت أحداث سبتمبر الدرامية لتلقى بالزيت على النار. ولتعيد تدوير التقارير الصحفية القديمة. فحديث الـ USA Today فى بداية العام عن تقنيات التشفير والـSteganography اضافت إليه التقارير الجديدة كلاما جدياً حول أن «الارهابيين يحصلون على معلوماتهم وخرائطهم من المواقع الحكومية على الانترنت» وأن بإمكانهم عن طريق تقنيات الاختراق Hacking التى يدمن احترافها المراهقون، أن يتسببوا فى تهديدات ومخاطر تتجاوز بمراحل ماحدث فى ١١ سبتمبر.

حالة الفزع التى اجتاحت الولايات المتحدة والتى كان لها جانبها «الانترنتى» بالضرورة، أدت إلى إجراءات ذات طابع بوليسى طالت الشبكة الدولية. إذ سرعان ما اختفت معلومات - استمرت هناك لسنوات - عن الأسلحة البيولوجية والكيماوية من المواقع الحكومية والخاصة على الانترنت، إضافة إلى معلومات عن عمل الاستخبارات والتجسس، وكذلك خرائط ذات طابع أمنى. وأزالت مواقع الحكومة الامريكية معلومات عن الأسلحة الكيماوية، وأخفت وكالة حماية البيئة صفحات تتعلق بالمصانع الكيماوية واستعداداتها فى مواجهة حالات الطوارئ. وأزيلت خرائط تظهر عليها المواقع العسكرية

برامج الـ FBI استهدفت إعداد قوائم لأولئك الذين تكثر زياراتهم (قراءتهم) لمواقع معينة، أو ذات مضمون بعينه على الشبكة الدولية

الأمريكية من موقع وكالة التصوير والخرائط، وقيد موقع خدمات المعلومات الجغرافية، الدخول إلى خرائطه التى تظهر عليها طرق الولايات المتحدة ومواقع المبانى والمنشآت الحكومية وخطوط سكك الحديد وممرات أنابيب النفط وغيرها. ولوحظ اختفاء المعلومات المتعلقة بنشاط الاستخبارات، خصوصاً الأمريكية منها، من المواقع الحكومية والخاصة على حد سواء. وأزالت الرابطة الفيدرالية لعلماء أمريكا قواعد البيانات التى تتحدث عن نشاط الحكومة والجيش والمؤسسات الأمنية. واختفت من الموقع عينه، مئات الصفحات التى تظهر تراتبية عمل الحكومة الأمريكية واستخباراتها، إضافة إلى الصفحات التى تتحدث عن الأسلحة الكيماوية التى يصنعها الجيش الأمريكى.

وفيما لم تحدد الجهة المسؤولة عن هذه الخطوة غير المسبوقة فى تاريخ الانترنت، رأى كثيرون انها تتعارض مع الحق فى المعرفة والاطلاع، وتهدد البحث العلمى الذى استقرت آلياته على التراكم المعرفى القائم على حرية تدفق البيانات. مشككين فى جدوى تلك الخطوة، و منبهين إلى استحالة التمييز بين ماهو بيانات «ضارة» وأخرى حميدة. إذ إن المعلومات المحايدة Plain عن تطوير النظم الكهربية الخاصة بتشغيل قطارات الأنفاق، والتى يظل نشرها ضروريًا لإمكان إحداث ذلك التطور قد تفيد من يفكر فى إحداث كارثة. بالإضافة إلى أن إخفاء مراكز طبية لتقارير تحدثت عن نقص فى الاستعدادات فى مواجهة استخدام الغازات السامة، ينتهك حق الناس فى المعرفة ومن شانه ان يكون معوقًا لآليات المراقبة والمحاسبة من جانب دافع الضرائب فى بلد ديموقراطى. فضلاً عن أن «جماعات الإرهاب» ربما كانت قد حصلت على هذه المعلومات عندما كانت متاحة فى أوقات سابقة. وفضلاً عن حقيقة كونها متاحة على مواقع غير رسمية، إضافة إلى وجودها فى المكتبات العامة كما قال جراى باس المسؤول فى إحدى جماعات الدفاع عن حرية المعلومات، محتجاً بان «روح المجتمع المدنى قد فقدت، تحت مبررات الأمن وهو أمر لن نسمح بحدوثه فى أمريكا».

الإجراءات التى توجها فى نهاية المطاف قانون باتريوت USA PATRIOT ACT الذى وقعه أخيراً الرئيس الأمريكى بوش، والتى لاقت انتقادات عنيفة من جماعات الحقوق المدنية، لم تسلم من هجوم جماعات الدفاع عن حرية الانترنت وهى بالمناسبة جماعات قوية، إذ أشار بيان لها حمل عنوانًا تهكميًا «Osama Bin Cyber Terrorist Doesn't Exist» إلى خرافة «مايسمونه بإرهاب الإنترنت..» مذكرين بخرافة الـ Y2k أو فيروس الألفية الذى قالت التقارير على مدى عام كامل أنه سيتسبب فى لحظة الانتقال من قرن إلى آخر فى كوارث لن يكون أقلها سقوط طائرات وفيضانات واصطدام قطارات (نتيجة توقف متوقع لأجهزة الكمبيوتر الرئيسة التى قالوا أنها ستعجز عن إدراك التاريخ الجديد) ليلتها - يقول البيان - لم يتجاوز الأمر إطفاء «عمدى» للأنوار لإتاحة الفرصة أمام قبلات العام الجديد. وذلك بعد أن حققت الشركات التى روجت للذعر العام أرباحا خيالية مقابل «تسويق الحلول».

وتظهر بداهة حجة جماعات الدفاع عن حرية الانترنت بالنظر إلى مدى التواضع المريع فى تصميم موقع حكومة أفغانستان الطالبانية والذى يؤكد على بدائية أفعال المجموعات المشتبه بها إذ إنها تميل فى الغالب إلى اعتماد أساليب بدائية فى الاتصال، وكذلك فى نقل الأموال والتصرف بها. وأن الكثير من مستويات العمل يتم عبر إدارة مباشرة، تعتمد على العقود الشفوية والكلام المنقول من الشفة إلى الأذن وأهل الثقة، والعمل فى استقلالية نسبية بناء لتوجهات عامة، وما إلى ذلك من أساليب. وتميل المجموعات المتهمة كما يبدو من التحقيقات الرسمية إلى نقل الأموال مباشرة وإلى السفر واللقاء الشخصى المباشر كاسلوب للاتصال.

ويبقى لافتًا للانتباه بلا شك انه فى صخب الحديث عن إرهاب الـ High Tech وبين أكداس أوراق التحقيق فى أحداث ١١ سبتمبر (بلغت آلاف الصفحات) لم تكن هناك غير وثيقة واحدة. ولم تكن غير ورقة استنسخت بخط اليد والتى قيل أن محمد عطا أرسلها لشركائه متضمنة تعليمات الليلة الأخيرة. لم نسمع هنا عن Palm أو PDA أو غيرها من الوسائل التقنية المحمولة يدويًا لتدوين المذكرات أو الرسائل. كما لم نسمع عن تقنيات الـ Bluetooth المهيأة للتراسل. كما كان مثيرًا أن تكون رسالة البريد الإلكترونى الوحيدة التى أشير إليها هنا هى تلك الغرامية المرسلة من المهندس المصرى إلى صديقته الإسكندنافية.

والحال أن ميل هذه المجموعات إلى التقنيات البدائية، واستخدامها غير المتطور للانترنت، هو الخيط الذى جمع آراء خبراء، مثل جايمس بامفورد، مؤلف كتاب جسد من الأسرار و قصر اللغز اللذين يتحدثان عن وكالة الأمن القومى. وكما ناقش سايمون ريف الخبير فى الموضوع احتمال استخدام بن لادن أسلوب التشفير المعقد «ستيجانوجرافى»، مؤكداً انه لا توجد أدلة على استخدامه من قبل المجموعات الملاحقة، والتى تعطى انطباعاً قوياً عن ميلها إلى أساليب بدائية تماماً.

مكارثيـــــــــة..

الحاصل أنه سواء كان بن لادن يخفى تعليماته داخل صور جنسية عارية.. أو كان الأمر كله لايعدو أن يكون مبالغة استوجبتها متطلبات سياسية أو أطر ثقافية «هوليوودية» مهووسة بالصرعات التقنية. فإن الثابت أن الإدارة الأمريكية أو بالأحرى «القوى الأمريكية» التى انتبهت مبكرًا إلى ماتمثله «ديموقراطية / اشتراكية» الانترنت من تهديد للأسس المستقرة لقوة الرأسمالية المتمثلة فى الاحتكار والسيطرة. كانت قد بدأت قبل سنوات من كارثة سبتمبر فى اتخاذ خطوات تدريجية «لإعادة الإمساك بالزمام..» حسب تعبير لويس فريه مدير الـ FBI أمام لجنة خاصة بالكونجرس، كانت مدعوة لتأييد اتخاذ إجراءات خاصة توفر قدرًا من التحكم والمراقبة لمايجرى هناك فى ذلك العالم «المفتوح والمتاح على مصراعيه».

فى هذا الإطار اتخذت الحكومة الأمريكية مبكرًا قرارات حازمة بمنع تصدير تقنيات المساعدة على التشفير، وكذا أجهزة السوبر كمبيوتر (عدا المصدرة لإسرائيل) وفى مطلع التسعينيات حاولت السلطات سجن فيل زيمرمان (أمريكى الجنسية) مبتكر برنامج Pretty Good Privacy PGP والذى يضمن سرية المعلومات الشخصية على الانترنت، قبل أن تنجح جماعات الحريات المدنية فى الدفاع عنه.

إلا انه وفى إطار تبرير معارضتها السماح بحرية تداول برامج التشفير طرحت إدارة الرئيس الأمريكى بيل كلينتون القضية على النحو التالى: «إذا صنع أحدهم برنامج تشفير قوياً لا تستطيع الأجهزة الأمنية اختراقه، ألا يشكل ذلك أداة مثلى فى يد جماعات إرهابية؟» يومها عقدت الإدارة الأمريكية صفقة مع شركة AT&T للاتصالات، تسمح للشركة بإنتاج رقيقة كومبيوتر متخصصة بالتشفير، شريطة أن تكون متصلة سراً مع أجهزة الأمن الالكترونى فى أمريكا. وهو الأمر الذى يعرف تقنيا بـ Kleptography ورغم إلغاء الصفقة عندما أثار الكشف عنها كثيرًا من الجدل، إلا أن أحداث سبتمبر وتوابعها كشفت عن أن الأجهزة الأمنية كانت قد أطلقت يدها منذ زمن طويل فى استعمال برنامج كارنيفور. وهو البرنامج الذى طورته قبل سنوات المباحث الفيدرالية الأمريكية FBI (كشف عنه لأول مرة بداية عام ٢٠٠٠) لمراقبة البريد الالكترونى وأنماط تصفح الانترنت.

ويُشبه نظام كارنيفور ببساطة ذلك الرجل الذى يسترق النظر متلصصًا من فوق كتفيك، لا ليشاركك قراءة صحيفتك المفضلة كعادة رفيق القطار «ثقيل الظل»، وإنما ليعرف عند أى الصفحات تتوقف ولمن تقرأ من الكُتاب. فالعارف لآليات تصفح الانترنت يعلم أن الدخول إلى الشبكة يتم بواسطة الاتصال بين حاسبة وكمبيوتر آخر «خادم» يؤمن له الاتصال معها. وعند زيارة أى موقع والدخول إلى أى صفحة على الإنترنت، يرسل الموقع نسخة من الصفحة المطلوبة، فتصل إلى الخادم أولاً، فيرسل نسخة منها إلى المستعمل.

وهذه الآلية البسيطة هى التى يتم اعتراضها بواسطة نظام كارنيفور الذى يقوم خفية بوضع برنامج معين بين حاسب المستخدم والحاسب الخادم. فيتعرف على الصفحات التى يزورها المستخدم، ويقارن محتوياتها مع قاعدة البيانات التى لديه وفى حالة وجود مايستلزم التوقف عنده يقوم



**شبكة «إيشلون» الضخمة
التى بإمكانها التنصت على كافة الاتصالات
بجميع أنواعها فى العالم كله، لم تفلح فى منع هجمات
الحادى عشر من سبتمبر، كما لم تفلح
حتى فى التنبؤ بحدوثها**

تلقائيًا بارسال نسخة من الصفحة التى زارها المستخدم مع الرقم التعريفى IP لجهازه إلى الـ FBI والتى يصبح بوسعها بالتالى إعداد قوائم لأولئك الذين تكثر زياراتهم (قراءتهم) لمواقع معينة، أو ذات مضمون بعينه على الشبكة الدولية... ويالها من «مكارثية» جديدة فجة، للتفتيش فى اهتمامات الناس هذه المرة، وليس فقط فى أفكارهم. الأمر الذى أدى إلى احتجاجات لجماعات الدفاع عن الحقوق المدنية على الانترنت، خصوصاً حق الأفراد فى حماية الحياة الشخصية. وتُشَبه تلك الجماعات - وأشهرها بريطانية - عمل هذا البرنامج الذى طورته الأجهزة الأمنية وغيرت اسمه ليصبح DSS1000 بدخول الشرطة البيوت وتفتيشها دون أى إذن.

أيًا ما كان الأمر فان هوس مابعد ١١ سبتمبر دفع بالنتين من كبريات شركات خدمة الإنترنت فى الولايات المتحدة إلى الإعلان عن استعدادهما التام للتعاون مع جهود الـFBI فى هذا الصدد، وقالت الشركتان وهما أمريكا أون لاين و إيرث لينك انهما ستتعاونان مع اف بى آى فيما يتعلق بمعلومات المستخدمين وكلمات مرورهم فور أن يطلب منهم ذلك. الإجراءات ذات الطابع البوليسى الواضح، والتى اعترض عليها - بطبيعة الحال - المدافعون عن الحريات، شكك المعلوماتيون أيضًا فى جدواها - إلا فى فى حالة كونها انتقائية - مذكرين بان عدد مشتركى شبكة أمريكا أون لاين يزيد على واحد وثلاثين مليون مشترك فيما يزيد عدد مشتركى إيرث لينك على خمسة ملايين شخص. ولأن هناك أكثر من ٢٢,٥ مليار رسالة بريد إلكترونى يتم تبادلها سنويا، فضلا عما يزيد على ٤ مليارات صفحة على الانترنت بكل لغات العالم (٤٢٥٤٨٧١٦ High Domain Names فى أول يوليو ٢٠٠١) فإن الحديث عن «انفجار المعلومات» الذى قد يؤدى إلى تراكمها بدلا من تفاعلها، يصبح منطقيًا. ويصبح التذكير بان شبكة «ايشلون» المعقدة (كشف النقاب عنها قبل حوالى عامين) والتى بإمكانها التنصت على كل الاتصالات بجميع أنواعها فى العالم كله، لم تفلح فى منع هجمات الحادى عشر من سبتمبر. كما لم تفلح حتى فى التنبؤ بحدوثها. رغم أنها تصب تقاريرها من مراكزها المنتشرة عبر العالم إلى وكالة الأمن القومى الأمريكية NSA على مدار الساعة.

يعرف المعلوماتيون أن غزارة المعلومات والاتصالات، كسمة من سمات العصر الرقمى، لها عواقب وخيمة على من يتعاطاها. وقد تشكّل عبئاً ثقيلاً عليه لا يقوى على تحمّله. وينطبق هذا الأمر على جهاز أمنى، أو على شركة تجارية أو صناعية تضطرّ أحياناً إلى شراء مواد / معلومات، تكون متوافرة فى قواعد بياناتها من دون أن تدرى. والقول بأن «أمريكا لم تكن تعلم بما تعلم به أمريكا» ليس بعيداً أبدًا عن الصواب. فالأجهزة الأمنية الأمريكية تتلقى أطناناً من المعلومات كل يوم، ولكن تبقى المشكلة فى تحليلها واستخلاص النتائج. فالمقاتلات المجهّزة بوسائل رصد معلوماتية متطوّرة جداً، ربّما استطاعت كشف الطائرات المخطوفة فى حينه، ولكن - وبحكم مسافة حتمية بين الآلة والإنسان - لم يكن بمقدورها أبدًا أن تكشف النيّة. إذ رغم توافر البيانات وأجهزة المحاكاة، تظل الحقيقة الأزلية تتمثل فى أن «الخريطة ليست الأرض». ويبدو أن القول المنسوب لشاعر أمريكى ينطبق أيضا على طبيعة شبكات الاتصالات والمعلوماتية، التى ربّما فاقت تضاريس أفغانستان وعورة بتشابكاتها وخفاياها واستحالة السيطرة عليها.

وربما يظل مثيرًا - رغم مافيه من مصادفة - أوجه الشبه بين الهيكلة العنكبوتية للانترنت والهيكلة نفسها المعروفة حتى الآن لما يسمى بتنظيم «القاعدة». فرغم أن «القاعدة» - لغويًا - تفترض محلاً وجهة وأرضًا ومساحةً وحدودًا، إلا أن الأمريكيين قالوا - مبكرًا - أنها تمتد من أستراليا وجزر ماندناو شرقًا إلى كاليفورنيا وأناوا غربًا (٦٣ دولة حسب تصريحات بوش)، وكذلك الإنترنت. فعلى عكس الدولة، لاتتحدد الشبكة بالمكان، كما أنها لاتعرف الجغرافيا. وعندما يتحدث البنتاجون عن ضرب الدول التى تقدم ماوى Hosting لخلايا التنظيم، يتذكر المعلوماتيون فورًا أن اللفظة هى التى تستخدم تقنيًا لتعريف أجهزة الكمبيوتر التى تستضيف مواقع الانترنت وجعلها جزءًا من الشبكة. كما أن البناء اللاهرمى واللامركزى للانترنت الذى تربط نقاطه (Nodes) شبكة أقرب ببيت العنكبوت. لايختلف كثيرًا عن وصف الأجهزة الأمنية الأمريكية لشكل الروابط بين خلايا «القاعدة».

وأيا ماكان أمر التشابه «الشكلى»، يعتقد نشطاء حقوق الإنسان - حتى فى أمريكا - أن الربط القسرى بين ماهو منسوب للقاعدة، وبين حرية الانترنت، غير مبرر. وأن استغلال مناخ الفزع العام فى تقنين مامن شانه تهديد قيمة الحرية ذاتها قد تصير له نتائج وخيمة. ويُذكر أولئك بماحدث فى مطلع الخمسينيات حين تعرض المجتمع الأمريكى لحملة اعتقالات وملاحقات استهدفت كبار موظفى الدولة، ثم لم تلبث أن اتسعت لتشمل السياسيين والأكاديميين ونجوم السينما والمسرح. ولقد عرفت فى حينه بـالماكارثية نسبة إلى بطلها السناتور جوزيف ماكارثى (مثل الحزب الجمهورى فى الكونجرس من عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٢) بعد أن نجح فى تعبئة الرأى العام بسبب الرعب الذى أحدثه تورط أمريكا فى حرب كوريا. يومها كان الجنرال دوايت أيزنهاور وعالم الذرة أوبنهايمر والمخرج والممثل البريطانى الأصل شارلى تشابلن من بين الذين طالتهم قائمة الاتهام.

ويقول أحد المعلقين الأمريكان أن قانون وزير العدل اشكروفت يشبه الإجراءات الاضطرارية التى طُبقت عام ١٩٣٣ ضد الشيوعيين فى ألمانيا. يومها افتعل النازيون حريق الرايخستاج واتهموا الحزب الشيوعى بانه يهدف إلى التنكيل باعضائه. ومع أن المقارنة غير صحيحة لأن الإدارة الأمريكية لم تفتعل ماحدث فى ١١ سبتمبر، لكنها على الأقل استفادت من تاثيرات الذعر لتقوى من سيطرة الاستخبارات وأجهزة الأمن على مرافق الحياة.

هل تسمحون لى بان أستعير ماقاله كريس ايفانز مؤسس حركة حرية الانترنت Internet Freedom: «حتى لو كسب بوش ورجاله الحرب ضد الإرهاب، فإنه يبدو من المؤكد أن كلنا سنخرج فى النهاية خاسرين..»

أو لعل الأنسب للسياق، وللمناسبة.. و«للعصر» أن نستعيد قولاً أمريكيًا صرفًا للعالم والسياسى الأمريكى بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠): «ان الذين يتنازلون عن حرياتهم الأساسية مقابلَ الحصولِ على قدرٍ مؤقتٍ من الأمن، لايستحقون الحرية ولا الأمن. ولن يتمكنوا من الحصول على أى منهما».

كان الاعتقاد يومًا بان شبكة الانترنت: ذلك العنكبوت الديموقراطى الذى ينسج خيوطه حول العالم، والتى أحدثت تغييرًا ثقافيًا أكثر عمقًا ممًا أحدثته مطبعة جوتنبرج فى العصور الوسطى، والتى بكل المقاييس تعتبر أكبر امبراطورية ظهرت فى التاريخ، تعدُنا بعالم متكافئ، لاحدود فيه قائمةً على الجنس أو الدين أو اللون أو البلد أو القوة والضعف. حيث يكفى أن تمتلك متصفحًا وحسابًا للبريد الالكترونى لتقف على قدم المساواة مع كل الآخرين من مواطنى هذا العالم التخيلى.

خلاصة الأمر إذن، أن ماكان يتم سرًا أو على استحياء قبل ١١ سبتمبر من اجراءات للحد من حرية وشيوعية (بالتعبير اللغوى لا السياسى) الانترنت، أصبح معلنًا.. بل ومقننًا. وانه فى عالمِ أحادى القطبِ والقوة، ويحكمه شعارُ «من ليس معنا فهو ضدنا».. وفى عالم تصدر فيه القرارات فى «ديربان» بإملاء القوة، لا بإرادة المجتمعين، يصبحُ العمل على الحد من حرية الانترنت من جانب القوة الوحيدة «طبيعيًا».. ويصبح ضروريًا الدفاع عن تلك الحرية من جانب الذين يأملون فى إيجاد عالم آخر أكثر عدلاً. ■



مواقع ذات صلة:

American Civil Liberties Union:
http://www.aclu.org
Internet Freedom:
http://www.netfreedom.org

عن البيئة والسياسة وقضية دفء الأرض

رشدى سعيد

قضية البيئة من القضايا التى أفرزها العصر الحديث ولم يبدأ أحد فى الكلام عنها أو طرحها على ساحة العمل السياسى إلا فى أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين عندما تنبه الناس خاصة من سكن منهم المناطق الصناعية إلى مقدار الدمار والتلوث الذى أحدثه النمو المتسارع للصناعة

كان للقرار الذى اتخذه الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فى شهر مارس سنة ٢٠٠١ وبعد أقل من شهرين من توليه السلطة بانسحاب الولايات المتحدة من بروتوكول كيوتوالذى كانت الإدارة الأمريكية السابقة قد وقعته فى آخر سنة ١٩٩٧، أثر كبير على المهتمين بقضايا البيئة وسبب لانزعاج الكثير من الدول.. فقد كان هذا البروتوكول نتاج عمل مضنٍ أخذ السنوات الطوال للوصول إليه، وكان يُعد واحداً من أعظم الإنجازات فى مجال الحفاظ على البيئة بسبب أنه يعالج قضية عابرة للحدود ومؤثرة على كل الدول وهى قضية التغيرات المناخية التى يمكن أن تحدث لكوكب الأرض نتيجة الاستخدام المفرط والمتسارع للموارد وعلى الأخص الوقود الحفرى الذى يسود عالم اليوم والذى يرى الكثير من المشتغلين بالعلم أنه يمكن أن يسبب ازديادا كبيرا فى انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون فى الجو العالمى بنسب تزيد بكثير على قدرة امتصاص الأرض لها مما يمكن أن يؤدى إلى ازدياد حرارة كوكب الأرض وإلى إحداث تغيرات مناخية ستكون سببا للكوارث التى يمكن أن تطول سكان هذا الكوكب.

وقد تم الوصول إلى هذا البروتوكول بعد جدل استمر لسنوات طوال بين المشتغلين بالعلم عن أثر هذا الغاز وغيره من الغازات التى توجد فى جو الأرض والتى توصف بأنها غازات الاحتباس الحرارى على ميزان البيئة العالمى رجحت فيه كفة أولئك الذين يعتقدون بأن الاستخدام المتزايد للوقود الحفرى سيؤدى إلى اختلال هذا الميزان وإلى دفء العالم وهو الرأى الذى نال تأييداً شعبيّاً وسياسيّاً فى الكثير من الدول الصناعية وعلى الأخص فى غرب أوروبا.. ويهدف بروتوكول كيوتو إلى خفض نسبة انبعاثات الغازات المسببة لظاهرة الاحتباس الحرارى والتى تؤدى إلى دفء الأرض وفيه تعهدت الدول الصناعية بخفض هذه الانبعاثات من أرضها إلى أقل من نسبة انبعاثاتها فى سنة ١٩٩٠ بمقدار ٧٪ وذلك خلال الفترة بين سنتى ٢٠٠٨ و٢٠١٢.

كان إقدام الرئيس الأمريكى على الانسحاب من هذا البروتوكول على الرغم من معرفته أنه سيسبب إزعاجاً وعدم قبول من معظم دول العالم وعلى الأخص من دول غرب أوروبا مقصوداً فى ذاته أراد أن يبين به للعالم وبكل الوضوح استقلالية القرار الأمريكى وشكل التوجهات الأيديولوجية لإدارته الجديدة التى تعبر عن مصالح واهتمامات الذين ساعدوه فى الوصول إلى مركزه الجديد، ولعدد طويل من السنين كان اليمين الأمريكى غير راض عن الكلام الكثير عن قضية البيئة وما يحدث لها من فساد وما يجرى بشأن إصلاحها من قرارات تحد من نشاطه.. وكانت قضية إيقاف هذا الكلام الذى استطاعت مجموعة صغيرة من المفكرين أن تفرضه على جدول أعمال رجال السياسة، وأن تجعله واحداً من أبرز القضايا التى تشغل الرأى العام أحد أهم بنود جدول أعمال اليمين الأمريكى.

وقضية البيئة هى من القضايا التى أفرزها العصر الحديث والتى لم يبدأ أحد فى الكلام عنها أو طرحها على ساحة العمل السياسى إلا فى أواخر ستينيات وأوائل سبعينيات القرن العشرين، عندما تنبّه الناس خاصة من سكن منهم المناطق الصناعية إلى مقدار الدمار والتلوث الذى أحدثه النمو المتسارع للصناعة والتوسع الكبير فى استخدام المنتجات الاصطناعية لتكثيف إنتاجية الأرض الزراعية ومكافحة الآفات والحشرات فقد بدا للكثيرين أن هذا الاستخدام المفرط الذى تتسارع معدلاته مع مرور الزمن سيؤثر على ميزان البيئة المحيطة بالإنسان خلال عقود قليلة وسيؤثر بالسلب على نوعية حياته وعلى صحته الجسمانية والنفسية.

على أن درجة الوعى بهذه الآثار ليست واحدة فى كل البلاد الصناعية فهى عالية فى غرب أوروبا واليابان حيث يكتظ السكان فى المدن وتظهر هذه الآثار بصورة واضحة وهى فى أدناها فى الولايات المتحدة.. حيث لا تبدو هذه الآثار لافتة للانتباه لذلك النصف من السكان الذى يعيش فى متسعات الأرض التى لازالت الولايات المتحدة تتمتع بها والتى تصل فى مساحاتها إلى أبعاد قد تدهش الكثيرين أن يعرفوها.. فبالولايات المتحدة من الأرض التى تستخدم لرعى الأبقار ما يكاد أن يتساوى ومساحة أوروبا الغربية بكاملها.. وسكان مثل هذه المناطق لا يعيرون قضية البيئة اهتماماً كبيراً فالأرض التى يعيشون عليها واسعة لا يستطيعون تصور إفسادها بإلقاء عوادم مصنع فى نهر أو ببث دخانه فى الهواء.. كما أنه من الصعب عليهم أن يروا محدودية الموارد الطبيعية فلازالت الأرض التى يعيشون عليها مليئة بالأشجار كما أن البحار من حولهم غنية بالأسماك والقشريات، والجبال بكر تنتظر من يكشف عن معادنها وثرواتها المخبأة التى لا يرون أن فى استغلالها إخلالا بشىء.. وهم يتفقون هنا مع الكثير من رجال الأعمال الذين يرون فى القوانين التى يدعو إليها حماة البيئة والخائفون عليها عبئاً على مصالحهم وتعطيلاً لأعمالهم وزيادة تكلفة منتجاتهم وتقييداً لحرية استغلال الموارد الطبيعية التى منحها الخالق للناس لاستخدامها.

والمتتبع لنتائج الانتخابات وتطور الفكر السياسى فى البلاد الصناعية التى تأخذ بالنظام الديمقراطى لابد أن يلحظ أن الولايات المتحدة تقف وحيدة بين جميع هذه البلاد من حيث تأرجح نظرة أهلها إلى قضية البيئة، ففى الوقت الذى لا يشوب أغلبية سكان أوروبا الشك فى أهمية هذه القضية فإننا نجد أن هذه القضية لا تنال إجماع السكان بالولايات المتحدة ويكاد أن ينقسم المجتمع بشأنها إلى نصفين متساويين فى الأعداد.. فهناك ذلك النصف من السكان الذى يعيش فى معظمه بالمدن الكبيرة والذى يجابه فى كل يوم المشاكل والقضايا الجديدة التى أفرزتها التطورات السريعة والمتلاحقة لتقنيات العصر والتى تأتى قضية البيئة وما تفرع عنها من قضايا أخرى فى مقدمتها والتى يحتاج حلها إلى الخروج على الكثير مما درج عليه الناس من عادات وتقاليد ومبادئ وأفكار لعهود طويلة.. وهناك ثانياً ذلك النصف الآخر الذى يعيش فى معظمه فى متسعات الأرض بعيداً عن المدن الكبيرة والذى لايزال متمسكا



بالكثير من عادات وأفكار الأجداد حتى وإن استخدم مستحدثات العصر من عدد وآلات.

وصورة الحزبين الكبيرين بالولايات المتحدة عند الكثيرين هي أنهما يعبران عن توجهات هذين النصفين من السكان.. فالحزب الديمقراطي مشغول باهتمامات ذلك النصف الذى يسكن في أغلبيته المدن وعلى الأخص من سكن منهم في قلبها والذى هو أكثر تقبلاً للآراء والتجارب الجديدة وأكثر استعداداً لاقتحام مشاكل العصر ومحاولة إيجاد الحلول لها. أما الحزب الجمهوري فهو مشغول في الأساس بقضايا النصف الآخر من السكان والذى يعيش في معظمه في البرارى وخارج المدن وأكثر مؤيديه من المحافظين ممن لا يريدون أن يهزوا المراكب السائرة أو أن يغيروا من مسارها.. ولابد من التاكيد هنا على أن الخطوط التى تفصل النصفين ليست قاطعة فهناك من سكان المدن من يتفقون في نظرتهم مع السكان في خارجها والعكس صحيح. كما أن الحزبين الكبيرين ليسا بالضرورة على طرفي نقيض لأن كلا منهما مضطر لأن يضفي الكثير من المرونة والوسطية على آرائه وأفكاره حتى يحصل على أكبر دعم من كل قطاعات الناخبين مما يدفعهما للاتجاه بسياساتهما نحو الوسط وهو ما يسبب في الكثير من الأحيان غضب قطاعات مهمة من أنصارهما.

وبطبيعة الحال فإن هناك الكثير من القضايا التى تفصل النصفين من السكان اللذين يمثلهما الحزبان الأساسيان بالولايات المتحدة اخترت أن أبرز منها قضية البيئة لكى أقدم للقارئ تفسيراً للسبب الذى دفع الرئيس الأمريكى أن يقدم على إعلان انسحاب الولايات المتحدة من بروتوكول كيوتو.. فقد فعل الرئيس الأمريكي ذلك لأنه كان يعبر عن آراء الذين صوتوا له سواء من سكان البرارى أو من رجال الأعمال خاصة رجال البترول الذى خرج هو نفسه من بينهم والذين لا يريدون أن يروا مزيداً من القيود على أعمالهم أوعلى الاستخدام الحر للوقود والبحث عنه في كل مكان يرونه مناسباً لاحتمال وجوده.

غازات الاحتباس الحرارى وظاهرة دفء الأرض

يعالج بروتوكول كيوتو أحد أوجه قضايا البيئة ذات الأبعاد العالمية والتى تتعلق بظاهرة تزايد دفء الأرض، والتى يعزوها المشتغلون بالعلم إلى ازدياد نسب غازات الاحتباس الحرارى في الجو عاماً بعد آخر بسبب زيادة النشاط الإنسانى وتسارع معدلاته.. وغازات الاحتباس الحرارى هى تلك التى توجد في جو الأرض بنسب صغيرة جداً وتسبب دفء الأرض، فمن خلالها تنفذ إشعاعات الشمس ذات الموجات المتوسطة والطويلة إليها وبواسطتها تحتفظ الأرض بهذه الإشعاعات لأنها تعيق هروبها عندما ترتد من سطحها، ولولا هذه الغازات لكان كوكب الأرض باردا وبلا حياة مثله مثل باقى الكواكب والأجرام السماوية التى لا توجد باجوائها هذه الغازات ذات الخواص الفريدة.. تاثير هذه الغازات هى أنها تحبس الحرارة في جو الأرض كما يحبس الزجاج الحرارة في الصوبة الزجاجية، ومن غازات الاحتباس الحرارى غازات ثانى أكسيد الكربون والميثان وبخار الماء وأكسيد النتروز والأوزون وغيرها من الغازات التى توجد في جو الأرض بنسب صغيرة جداً.

وزيادة نسبة هذه الغازات في الجو يؤدى إلى حبس المزيد من الحرارة في الأرض فتدفأ ويتأثر مناخها وتتغير مراكز الضغط الجوى فيها وتختلف مواقع المناطق الممطرة والجافة بها وتمتد الصحارى وتتغير أمكنة الأراضى الصالحة لزراعة المحاصيل. كما يؤدى ارتفاع درجة حرارة الأرض إلى تقلص مساحة الغطاء الجليدى فوق القطبين وفوق قمم الجبال وإلى ذوبان ثلوجها وانسياب مياهها إلى البحار فيرتفع منسوبها وتغرق المناطق الساحلية الواطئة والعامرة بالسكان. وكل هذه الظواهر قد حدثت بالفعل ورصد الكثير منها خلال المائة عام الأخيرة فقد ارتفعت درجة حرارة الأرض خلال هذه السنوات بحوالى نصف درجة مئوية كما ارتفع منسوب البحر خلالها بين ١٠ و٢٠ سنتيمترا.

ويعود ارتفاع نسبة غازات الاحتباس الحرارى إلى زيادة انبعاثاتها في الجو نتيجة التزايد المتسارع لمختلف الأنشطة الإنسانية.. وقد زادت كمية غاز الميثان المنبعثة في الجو حتى تضاعفت نسبتها خلال الخمسين سنة الأخيرة نتيجة اتساع عمليات التحلل العضوى التى تصاحب التزايد السكانى وتضخم مساحات القمامة خارج المدن واتساع مساحات زراعة الأرز وانتشار حظائر تربية الماشية وازدياد حدائق الغابات. كما زادت أيضاً نسبة ثانى أكسيد النتروز نتيجة ازدياد استخدام المخصبات الأزوتية في الزراعة. أما أكبر الزيادات وأكثرها أثراً فقد حدثت في غاز ثانى أكسيد الكربون بسبب التوسع الكبير الذى حدث في استخدام الوقود الحفرى (الفحم والبترول والغاز) منذ بدء عصر الصناعة بل ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية. ولثانى أكسيد الكربون أهمية خاصة في دورة الحياة ذاتها فهو المصدر الرئيسى للكربون الذى يدخل في عملية التمثيل الضوئى في الأجزاء الخضراء من النباتات والتى يتم فيها تخليق المركبات العضوية المعقدة من تفاعل مواد بسيطة مثل الماء وثانى أكسيد الكربون.. وفي ميزان الطبيعة الأولى فيما قبل عصر الصناعة كانت كمية غاز ثانى أكسيد الكربون الموجودة فيها والتى كان مصدرها ما يخرجه الحيوان منه أثناء عملية التنفس أو ما ينبعث منه من حرائق الأخشاب التى كانت تشكل المصدر الأساسى للطاقة فيما قبل عصر الصناعة، معادلة على وجه التقريب للكمية التى يمتصها النبات في عملية التمثيل الضوئى. فلما جاء عصر الصناعة تغيّر الميزان تماماً فقد أدى التوسع في حرق الفحم ثم البترول والغاز إلى زيادة نسبة غاز ثانى أكسيد الكربون التى أطلقت في الجو إلى درجة فاقت قدرة النبات بل والطبيعة كلها على استيعابه فزادت نسبته في الجو من ٢٧٠ جزءا في المليون عند بدء عصر الصناعة إلى ٣٨٠ جزءا في المليون في تسعينيات القرن العشرين.. وحدثت أسرع معدلات الزيادة في العقود الثلاثة الأخيرة حين زادت نسبته بأكثر من ١٥٪ دفعة واحدة.

وعلى الرغم من أن هناك الكثيرين من المشتغلين بالعلم ممن يجزمون أن العالم في طريقه إلى الدفء

بسبب تكاثر هذه الغازات فإن هناك عددا آخر من العلماء ممن لا يظنون أن لهذه الغازات أية علاقة بدرجة حرارة كوكب الأرض التى تقلبت عبر السنوات المائة والثلاثين الماضية والتى لدينا قياساتها المرصودة.. فقد حدثت أكبر الارتفاعات فى درجة حرارة الأرض فى الستين سنة التى سبقت سنة ١٩٣٨ ثم انخفضت بعد ذلك وحتى سنة ١٩٧٥ بمعدلات خشى بعض المشتغلين بالعلم أن تكون نذيرًا لبدء عصر جليدى جديد.. ثم انعكس الاتجاه بعد هذه الفترة وحتى وقتنا هذا.. ومثل هذه التقلبات تثبت أنه لا توجد علاقة بين درجة حرارة الجو ونسبة غازات الاحتباس الحرارى به والتى تزايدت بصورة مستمرة عبر السنوات المائة والثلاثين الماضية.

بروتوكـــول كـيـــوتو

ومهما كان من هذه الخلافات بين المشتغلين بالعلم بشأن ظاهرة دفء الأرض فإن شعوراً قوياً ساد الدوائر السياسية العالمية منذ آخر سنوات الثمانينيات من القرن العشرين بأن خللاً كبيراً يحدث فى ميزان البيئة المحيطة بالإنسان زاده إلحاحاً ما شهده ذلك العقد من الاضطرابات الجوية العنيفة التى طالت الكثير من أرجاء الأرض وزادت فيه الأعاصير والفيضانات - وعم الجفاف مناطق كثيرة كانت تنعم عادة بالأمطار - وفى سنة ١٩٨٨ باركت جميع الدول فكرة تشكيل هيئة علمية دولية لدراسة هذه التغيرات المناخية ومعرفة أسبابها وأبعادها تحت رعاية الأمم المتحدة وأوكل تشكيلها والإشراف عليها إلى منظمتى الأرصاد الجوية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة.. ومن اللافت للنظر أن تشكيل هذه الهيئة التى ضمت ألفى عالم ومتخصص تم برضاء جميع الدول وبمباركة جميع الاتجاهات السياسية بما فى ذلك اليمين نفسه الذى تطلع إلى التوصيات التى كان يتوقعها منها لكى تساهم فى الخلاص من نشاط تنجيم واستخدام الفحم الحجرى فى أوروبا وبالتالى من عمال مناجمه ونقاباتهم التى كانت تتسم باليسارية والمجابهة.. وكانت نقابة عمال الفحم ببريطانيا من أنشط النقابات العمالية وأكثرها عداء لحزب المحافظين ولرئيسته فى ذلك الوقت مارجريت تاتشر.. ومن الطرائف فى هذا المقام أن عداء هذه السيدة لنقابة عمال الفحم بالذات كان أحد دوافعها لإنشاء مركز هاولى للتنبوءات الجوية أحد أكبر مراكز دراسات المناخ فى العالم.

وأدت توصيات هذه اللجنة الدولية إلى عقد اجتماع «قمة الأرض» الدولى فى ريو بالبرازيل فى سنة ١٩٩٢ حيث تم توقيع الاتفاقية الإطارية للتغيرات المناخية من ١٥٥ دولة والتى دخلت حيز التنفيذ فى شهر مارس سنة ١٩٩٤ بتصديق الدول الخمسين عليها. وتلى ذلك التحرك الدولى الذى تم فى إطار مؤتمر برلين الذى عقد فى جنيف سنة ١٩٩٥ للبحث فى الخطوات التنفيذية لتطبيق توصيات الاتفاقية الإطارية والتى كان فى مقدمتها تلك التى سيتم بمقتضاها خفض انبعاثات غازات الاحتباس الحرارى والتى تعددت الآراء بشأن تحديدها من بين العديد منها ونسبة هذا الخفض والجدول الزمنى لتنفيذ هذا الخفض.

وأثار صدور مقترحات برلين لخفض غازات الانبعاث الحرارى مخاوف الكثيرين وخاصة من بين أحزاب اليمين فى مختلف أرجاء العالم الصناعى وعلى الأخص فى الولايات المتحدة إلا أن جهود الناشطين البيئيين الذين وجدوا تاييداً من الكثير من دول أوروبا خاصة تلك التى تحكمها أحزاب يسار الوسط - والتى تشكل أحزاب الخضر رافداً مؤثراً فيها - قد أفلحت فى سنة ١٩٩٧ فى تحرير بروتوكول كيوتو فى المؤتمر الدولى الذي عقد فى تلك المدينة. شهد صراعاً لم يحسمه إلا قرار الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس بل كلينتون بالتوقيع عليه فى اللحظة الأخيرة للمؤتمر. وفى هذا البروتوكول تعهدت ٣٨ دولة صناعية بخفض نسبة انبعاثاتها من غازات الاحتباس الحرارى حتى تصل بها إلى نسبة تقل عن انبعاثاتها فى سنة ١٩٩٠ بمقدار ٧٪ وذلك فى مدى العشرة إلى الاثنى عشر عاماً المقبلة.

وقبل أن يجف مداد التوقيع على هذا البروتوكول كان هناك هجوم عليه من دوائر اليمين ومن رجال الأعمال وهدد مجلس الشيوخ الأمريكى فور التوقيع على البروتوكول بانه سيرفض الموافقة عليه.

وشنت ضد البروتوكول حملة ضخمة قادها بعض المشتغلين بالعلم تشكك فى صحة ظاهرة دفء الأرض التى انبنى عليها وتثير التساؤلات عما إذا كانت زيادة درجة حرارة الأرض التى حدثت فى السنوات الأخيرة تشكل اتجاهاً عامًا أم انها حالة من نظام كونى ترتفع فيه الحرارة وتنخفض بسبب عوامل كثيرة غير زيادة نسب غازات الاحتباس الحرارى فى الجو. لازال أمامنا عمل كثير حتى نحصرها ونعرف آثارها.. ناهيك عن صراع المصالح التى كان سيحسمها الالتزام بخفض نسب غازات الاحتباس الحرارى وعلى الأخص غاز ثانى أكسيد الكربون الذى سيستدعى خفضه إلى الإقلال من استخدام الطاقة المولدة من الوقود الحفرى والتى خشيت الدول والشركات المنتجة له من تاثيره على نشاطها وأرباحها.. كما خشيت الكثير من الدول على ما يمكن أن يتركه الإقلال من استخدام الوقود الحفرى من أثر سلبى على اقتصادياتها وجملة ناتجها القومى ومعدلات نموها ومستوى معيشة أهلها. وقدرت بعض مراكز البحوث غير الحكومية بالولايات المتحدة أن مثل هذا الخفض الذى تقرر فى بروتوكول كيوتو قد يؤدى إلى خسائر فى جملة الناتج القومى لهذه البلاد قد تصل إلى حوالى ٤٠٠ مليار دولار فى كل عام وإلى زيادة فى أسعار الكهرباء قد تصل إلى أكثر من ٨٦٪ من سعرها الحالى.

وشاركت الدول المنتجة للبترول فى هذه الحملة فقد خشيت أن يؤدى الإقلال من استخدام الوقود الحفرى إلى تقلص دخولها وقامت بعمل الدراسات لتقدير ما يمكن أن ينالها من خسائر فى حالة تطبيق بروتوكول كيوتو فى مقال الأستاذ حسين عبدالله فى وجهات نظر (عدد مايو ٢٠٠١) عرض لدراسات دول الأوبك فى هذا الخصوص.

المتتبع لنتائج الانتخابات وتطور الفكر السياسى فى البلاد الصناعية التى تأخذ بالنظام الديمقراطى لابد أن يلحظ أن الولايات المتحدة تقف وحيدة بين جميع هذه البلاد من حيث تأرجح نظرة أهلها إلى قضية البيئة



وجاءت ذروة هذه الحملة بإعلان الرئيس جورج دبليو بوش بانسحاب الولايات المتحدة من الالتزام بهذا البروتوكول فى شهر مارس الماضى مما كاد أن يجهز عليه كلية لأن نفاذه كان معتمداً على تصديق خمسين دولة من الضرورى أن تشكل انبعاثاتها من غاز ثانى أكسيد الكربون ما لا يقل عن ٥٥٪ من جملة الانبعاثات الكلية لهذا الغاز فى العالم، ولما كانت انبعاثات هذا الغاز من الولايات المتحدة وحدها تزيد على ٣٦٪ من جملة انبعاثاته فى العالم فقد كان واضحاً أن انسحاب الولايات المتحدة يمثل ضربة قاضية له.. وقد راح كل الأمل فى نفاذ البروتوكول بعد أن أعلنت اليابان التى تمثل انبعاثاتها من غاز ثانى أكسيد الكربون ٨,٥٪ من جملة انبعاثات هذا الغاز انسحابها أيضاً.

وعلى الرغم من كل هذه المصاعب التى كادت أن تئد البروتوكول إلا أن اللوبى الأوروبى استطاع أن يعيد اليابان إلى قائمة الدول التى أمكن له أن يحصل على موافقتها على بروتوكول جديد ومقبول لعدد كبير من الدول الصناعية لمجابهة مشاكل تقلبات المناخ ودفء الأرض.. وعرض هذا البروتوكول الجديد فى الاجتماع الدولى الذى عقد بمدينة مراكش بالمغرب فى شهر نوفمبر سنة ٢٠٠١ وتم الاتفاق عليه من ١٦٠ دولة لم تكن الولايات المتحدة من بينها.. وفى هذا البروتوكول الجديد التزمت أربعون دولة صناعية بإنقاص انبعاثاتها من غازات الاحتباس الحرارى بنسبة ٥,٢٪ عن نسبة انبعاثاتها فى سنة ١٩٩٠ فى خلال الأحد عشر عاماً القادمة. ولازال أمام نفاذ هذا البروتوكول الجديد ضرورة موافقة عدد كاف من الدول الصناعية التى لا تقل جملة انبعاثاتها من غازات الاحتباس الحرارى عن ٥٥٪ من الجملة الكلية لهذه الانبعاثات على مستوى العالم.. ويبدو من واقع المناقشات التى تمت فى اجتماع مراكش، أن كبرى الدول الصناعية خارج الولايات المتحدة كاليابان وروسيا وبريطانيا قد وافقت على المضى قدماً فى إجراءات وضع هذه الاتفاقية محل النفاذ.

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن الإدارة الأمريكية لم تُبدِ اهتماما كبيرا باجتماع مراكش وكان وفدها إليه على مستوى صغار الموظفين ومشاركتها فى مناقشاته هامشية تماماً.. هذا على الرغم من أن مجلس الشيوخ الأمريكي كان قد أوصى الإدارة الأمريكية فى شهر أغسطس ٢٠٠١ بأن تهتم باجتماع مراكش وأن تشارك فيه بطريقة فعالة وأن تتقدم إليه بمقترحات جديدة تحمى المصالح الأمريكية وتحافظ على نموها الاقتصادى ويجرى تطبيقها على جميع البلاد بما فيها الصين والهند وغيرها من الدول تحت التنمية والتى كانت معفاة من تطبيق خفض انبعاثات الاحتباس الحرارى فى بروتوكول كيوتو..

وفى خلال الأشهر الثلاثة التى انقضت منذ صدور هذه التوصية وحتى انعقاد مؤتمر مراكش كانت هناك إشارات متضاربة حول موقف الإدارة الأمريكية من هذه التوصيات، ففى الوقت الذى وعد فيه كولن باول وزير الخارجية بأن يعد مقترحات جديدة تتماشى وتوصية المجلس لعرضها على مؤتمر مراكش بررت السيدة كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومى الأمريكى أن الإدارة الأمريكية ليست لديها أية نية لإعداد مثل هذه المقترحات وهو الموقف الذى أخذت به الإدارة الأمريكية. وهذا الموقف هو موقف غلاة اليمين ممن لا يريدون للولايات المتحدة أن تلتزم بأى شىء أمام المجتمع الدولى ويطالبون بأن تكون لها حرية العمل دون رقيب والذين لا يريدون أن يروا أى قيد على حرية استخدام الموارد وعلى الأخص الوقود، فهى مواقف لا يشاركهم فيها الكثيرون حتى من بين رجال الأعمال أنفسهم والذين يرون أن القيد على استخدام الوقود الحفرى آت لا محالة إن لم يكن بسبب الفساد البيئى الذى يرونه آتياً فسيكون بسبب الضغوط الدولية ومن هنا جاءت توصية مجلس الشيوخ فى شهر أغسطس الماضى بضرورة المشاركة الفعالة فى مؤتمر مراكش.. معبرة عن رأى أغلبية رجال الأعمال الذين يريدون تخطيط استثماراتهم وبناء مصانعهم لتتماشى مع ما سوف تأتى به الاتفاقيات الدولية من التزامات نحو غازات الانبعاث الحرارى.. فالذين يخططون لإصلاح أو تعديل أو بناء محطات توليد الكهرباء على سبيل المثال يريدون أن يعرفوا مقدماً حدود التزاماتهم نحو البيئة حتى تجىء مصانعهم متماشية معها ودون الحاجة إلى إجراء تعديلات فيها.. وكانت الإدارة الأمريكية الجديدة قد استثنت غاز ثانى أكسيد الكربون من بين الملوثات الخارجة من هذه المحطات واكتفت بتقنين تحديد كمية الملوثات الغازية الأخرى مثل ثانى أكسيد الكبريت وأكسيد النتروجين والزئبق.. إلا أن هذا التقنين لم يقنع بناة هذه المحطات لأنهم يرون أن تحديد انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون آت لا ريب، ولذا فإنه من الأفضل للولايات المتحدة أن تشارك بفعالية فى وضع القوانين المنظمة لشئون البيئة خاصة ما كان منها عابراً للحدود كما هو الحال فى انبعاثات غازات الاحتباس الحرارى.

ولعل أهم ما جاء به بروتوكول مراكش من مبتكرات يمكن أن تجذب الدول وخاصة الصناعية منها لقبوله هو تلك الحزمة من الإجراءات والآليات التى يمكن أن تقلل من الآثار التى ستأتى مع خفض استخدامات الوقود وانبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون على اقتصاديات هذه البلاد والتى شملت إعطاء هذه الدول الفرصة لبناء رصيد يخفف من درجة الخفض عن طريق توسيع المساحات الخضراء بها.. فمن المعروف أن النبات هو أحد مستقرات هذا الغاز والقادر على امتصاصه، وكذلك بتمكينها من شراء ما سمى بأرصدة الكربون وهى أرصدة سيتم طرحها وتداولها فى السوق يمكن فيها لدولة ما أن تشترى من دولة أخرى بعض رصيدها من الكربون إذا رأت هذه الدولة الأخيرة أن تتوقف عند حد معين فى انبعاثاتها من غازات الاحتباس الحرارى يقل عن الحد المسموح لها مما يتيح لها الفرصة أن تبيع هذا الزائد لأية دولة ترغب فى زيادة حد انبعاثاتها من هذه الغازات. والدول المرشحة لأن تكون لها هذه الأرصدة الزائدة هى دول الكتلة الشرقية فى الأساس والتى كانت قد حددت أنصبتها وقت استخداماتها للوقود بطريقة تفتقر إلى الكفاءة ثم تقلصت حاجتها إلى هذه الأنصبة بسبب التراجع الاقتصادى الذى شهدته وبسبب الاستخدام الأكثر كفاءة للوقود بالنسبة لوحدة الإنتاج. وتعتبر روسيا الاتحادية أحد أكبر أصحاب هذه الأرصدة فقد بلغت نسبة انبعاثاتها من غاز ثانى أكسيد الكربون - حسب ما جاء بملحق بروتوكول كيوتو - ١٧,٤٪ من جملة انبعاثات هذا الغاز أو ما يساوى حوالى نصف جملة انبعاثات الولايات المتحدة منه، هذا على الرغم من أن جملة الناتج القومى لروسيا لا يزيد على ٤٪ فقط من جملة الناتج القومى للولايات المتحدة (البيانات عن سنة ١٩٩٩ كما جاء فى تقرير البنك الدولى عن التنمية لسنة ٢٠٠٠/٢٠٠١).

ماذا بعد اتفاقية مراكش؟

بروتوكول كيوتو وصورته المعدّلة فى مراكش هو آخر ما تفتق عنه ذهن المشتغلين بالبيئة لحل مشكلة دفء الأرض التى يعزوها أغلبية المشتغلين بالعلم إلى ازدياد انبعاثات غازات الاحتباس الحرارى خاصة غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يخرج فى جو الأرض من حرق الفحم والبترول والغاز التى زادت معدلات استخدامها زيادة كبيرة خلال الخمسين سنة الماضية.. ومن الواضح أن طريق كيوتو ومراكش قد أصيب بضربة قاضية بانسحاب الولايات المتحدة على السير فيه وإنه لن يؤدى إلى أى إصلاح حقيقى للبيئة أو لتحسين مناخ الأرض حتى وإن اتفقت كل الدول الصناعية خارج الولايات المتحدة على السير فيه. فالولايات المتحدة هى أكبر مستخدم للوقود الحفرى بجميع أنواعه وانبعاثاتها من غازات الاحتباس الحرارى هى أكبر بمسافات شاسعة عن كل البلاد، وهى الآن وتحت الإدارة الجديدة فى طريقها لرفع كل القيود على استخدام الوقود والبحث عنه.. وقد زادت بالفعل نسبة انبعاثات غاز ثانى أكسيد الكربون بنسبة ٣,١٪ خلال العام الماضى حسب ما جاء بنشرة مصلحة الطاقة الأمريكية التى صدرت فى شهر نوفمبر ٢٠٠١ وهى أعلى نسبة تزيدها هذه الانبعاثات منذ سنة ١٩٩٠، كما أن كفاءة استخدام الوقود بالنسبة لوحدة الإنتاج لم تتحسن خلال العام الأخير، ولأول مرة منذ سنوات طوال حسب ما جاء بالنشرة ذاتها، وكان الأمل يحدو الكثيرين من محبى البيئة إلى أن تستمر الولايات المتحدة فى دعمها للبحث العلمى الموجه لهذا الميدان والذى كان قد نجح فى أن يخفض من انبعاثات الولايات المتحدة من غاز ثانى أكسيد الكربون بالنسبة لوحدة الإنتاج إلى نصف ما ينبعث من هذا الغاز فى أوروبا الغربية بالنسبة إلى نفس هذه الوحدة، ومن الواضح أن هناك مجالاً كبيراً للتقدم فى هذا الميدان والذى نالت فيه اليابان قصب السبق فقد كان استخدامها للوقود الأكثر كفاءة قد بلغ بالنسبة لوحدة الإنتاج نصف ما تستخدمه الولايات المتحدة لها.

ومن القضايا الخلافية والتى سيكون لها أكبر الأثر فى الإقلال من أثر بروتوكول كيوتو واتفاقيات مراكش والتى وقفت فيها الولايات المتحدة منفردة عند مناقشة بنود تنظيم انبعاثات غازات الاحتباس الحرارى قضية إعفاء الدول النامية من أى قيد على انبعاثاتها من هذه الغازات.. فقد وقفت وحيدة بين الدول ضد إعطائها هذا الامتياز.. وكانت الدول الأخرى قد رأت أن من العدل ترك الفرصة للدول النامية لكى تلحق بالعصر الصناعى وتنعم بمستوى العيش الذى أتى به دون وضع أية قيود على استخدامها للموارد أو الوقود شأنها فى ذلك شأن ما حدث للدول الصناعية عندما دخلت ذلك العصر. ولما كانت خمسة أسداس البشر ينتمون إلى العالم النامى ولا ينعمون بالمستوى الرفيع للعيش الذى ينعم به السدس الآخر، فإن تصور نجاح حتى ولو ربع هذا العالم النامى لكى يرفع مستوى عيشه إلى مستوى دولة كالمكسيك فى ظرف الثلاثين سنة القادمة (يكون هو نفسه قد تضاعف عدده خلالها) سيكون صعباً وضاغطاً على البيئة والموارد بدرجة قد تضر بالسلم العالمى والأمان الاجتماعى ضرراً بليغاً.. إن هذا الوضع سيضيف عدة ملايين أخرى من السيارات وسيحتاج إلى مد مئات الآلاف من الكيلومترات من الطرق وإنشاء آلاف المطارات ومحطات توليد الكهرباء وغير ذلك من البنى التحتية هذا بالإضافة إلى حرق الملايين فوق الملايين من الأطنان من الوقود مما سيضر بالبيئة وتوازناتها ضرراً بليغاً.

إن طريق كيوتو ومراكش مسدود وكان من الأجدر لمحبى البيئة وجماعات الضغط التى تقف وراءهم من الدعاة والموظفين الدوليين والمهنيين والذين شكلوا وفى حد ذاتهم مجموعات من المنتفعين أن يوجهوا جهودهم نحو حلول تكون أكثر واقعية وأكثر قابلية للتطبيق كالدعوة لدعم البحث العلمى الموجه لإيجاد مصادر جديدة ونظيفة ومتجددة للطاقة حتى يمكن الاستغناء عن استخدام الوقود الحفرى كلية أو على الأقل عن جزء منه.. وفى يقينى أن توفير مثل هذه المصادر هو الذى يمكن أن يجعلنا نتكلم على مستقبل آمن للإنسان على وجه هذه الأرض التى تئن بما يجرى عليها من دمار.

زيادة نسبة الغازات فى الجو يؤدى إلى حبس المزيد من الحرارة فى الأرض فتدفأ ويتأثر مناخها وتتغير مراكز الضغط الجوى فيها وتختلف مواقع المناطق الممطرة والجافة بها وتمتد الصحارى وتتغير أمكنة الأراضى الصالحة لزراعة المحاصيل

وأريد من القارئ فى نهاية هذا المقال أن يتصور معى كم من الوقت والمال كان من الممكن أن يتوفر لو أن جهود بناء وهدم وإعادة بناء بروتوكول كيوتو عبر الثلاث عشرة سنة الماضية قد صرف فى حث الحكومات على إحياء ودعم عمليات البحث العلمى المنظم لإيجاد مصادر جديدة للطاقة غير المفسدة للبيئة والتى كانت قد بدأت منذ عقود ثم تراجعت تحت ضغوط المصالح الخاصة، ألم يكن فى هذا حل سهل لمشاكل البيئة؟ ولكنى أستدرك وأقول إن الحلول البسيطة والسهلة كثيراً ما تكون بعيدة عن العيون!



الإرهاب الرسمى بين الإدانة والنفاق السياسى

حسين الواد



إن الجنرال أوساريس ظل أربعين عاما متلفعا بالصمت ممتثلا لما تدعوه إليه طبيعة المهام المكتومة التى اضطلع بها من وجوب ملازمة السكوت. وعندما قرر أن يخرج عن صمته ذاك الطويل ليدلى بشهادته عما اقترفت يداه فى الجزائر سنتى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ أثناء «حرب» ظلت الحكومات الفرنسية إلى سنة ١٩٩٩ تجحد أنها كانت «حربا»، غضب عليه كثير من الناس

■■ من أغرب ما فى المحاكمة التى تعرض لها الجنرال بول أوساريس فى باريس وصدر فى أعقابها حكم بتغريمه ما يعادل ٧ آلاف دولار فى ٢٥ يناير الماضى أن لا شىء، فى الظاهر، لا فى الكتاب الذى صدر له فى أبريل ٢٠٠١ متضمنا شهادته على حرب الجزائر فى سنتى ١٩٥٥- ١٩٥٧ و لا فى سيرة مؤلفه الشخصية، يدعو إلى الادعاء عليه وجرجرته أمام المحاكم.

فبول أوساريس سلخ عمرا، هو الآن فى آخر الهزيع الأخير منه (ولد سنة ١٩١٨)، فى نصرة الجمهورية سواء بانضمامه إلى «فرنسا» دى جول «الحرة» و مشاركته فى حرب تحريرها، أو بالتحاقه بالهند الصينية لنجدة العساكر الفرنسية المدحورة فى معركة ديان بيان فو، أو بتحوله للجزائر ليقود «فيالق الموت» ممارسا أعمالا قذرة من قبيل الاغتيال والتعذيب والترويع والترهيب، أو بالاضطلاع، فى أجهزة الجيش الفرنسى الخاصة، بتكوين هذا الفريق أو ذاك من فرقها الضاربة.

ليس ثمة، فى الظاهر دائما، من وجهة النظر هذه، ما يدعو القضاء الفرنسى إلى تتبع هذا الجنرال الفانى المنخور فى أرذل العمر بدائه العضال، فالخدمات المفرطة فى السرية والخطورة والقذارة التى أسداها لحكومته، فى نطاق اختصاصه، قد نهض بها بكثير من الحماس والحذق، ترقى بها من رتبة إلى رتبة حتى اختارت الولايات المتحدة الأمريكية أن تستفيد من خبرته فأسهم فى تدريب قواتها الخاصة.

أما الكتاب الذى يتسبب لصاحبه فى هذه المحاكمة فليس بالكتاب الوحيد الذى يتحدث، بكثير من الأدلة والقرائن والشهادات، عما جرى فى حرب تحرير الجزائر من فظاعات. ذلك أن قائمة التآليف والمصنفات فى هذا الموضوع لا يبلغها استقصاء، تكاد تكون مكتبة من المكتبات. ثم إنه ليس بأفضل الكتب أو أكثرها استئثارا بالاهتمام، فهو لا يرقى مثلا لا إلى مرتبة التأليف المدهش الذى كتبه إيف كوريير فى مطولته الشهيرة عن حرب الجزائر ولا إلى مستوى ما كتبه محمد حربى عن تلك الحرب من خلال مجهود محترم فى التاريخ والتنظير، وهذا حتى نكتفى بمثالين فرنسى وجزائرى وإن كان فى سواهما تآليف و شهادات كثيرة لا تقل عنهما قيمة وفائدة وخطورة. من هذه الوجهة أيضا ليس ثمة، فى الظاهر دائما، ما يدعو إلى مقاضاة مؤلف هذا الكتاب.

ثم إن الجنرال أوساريس ظل أربعين عاما متلفعا بالصمت ممتثلا لما تدعوه إليه طبيعة المهام المكتومة التى اضطلع بها من وجوب ملازمة السكوت. و عندما قرر أن يخرج عن صمته ذاك الطويل ليدلى بشهادته عما اقترفت يداه فى الجزائر سنتى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ أثناء «حرب» ظلت الحكومات الفرنسية إلى سنة ١٩٩٩ تجحد أنها كانت «حربا»، غضب عليه كثير من الناس.

قيل، مثلا، إن الشيخ الجنرال قد ملّ الظلام الذى كان يلف عملياته طيلة اضطلاعه بـ«أقذر المهام» و ضاق بالظلام الآخر الذى آلت إليه حياته قبيل الانطفاء، فرغب فى الخروج إلى أنوار الأضواء الساطعة. أدلى أولا بتصريح مطول إلى جريدة لوموند(العالم) ثم أوكل ذكرياته لمن صاغها له كتابا هو هذا الكتاب، واستطاب الأمر فأتبعه، أثناء المحاكمة، بكتاب آخر أسماه «من أجل فرنسا: أجهزة خاصة ١٩٤٢- ١٩٥٤»، نشرته دار دو روشى فى ٢٧٤ من الصفحات.

وتحركت منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان فاستندت «جماعة حقوق الإنسان» إلى ما ورد فى الكتاب من خطير الاعترافات، فادعت على صاحبه يوم ٤ مايو ٢٠٠١ بـ«التبجح بجرائم حرب». وادعت الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان على أوساريس يوم ٧ مايو بارتكاب «جرائم فى حق الإنسانية». وادعت عليه «الحركة المناهضة للعنصرية من أجل الصداقة بين الشعوب» الادعاء نفسه. ورفع عليه أقارب العربى بن مهيدى دعوى بـ«الاغتيال» ما دام قد اعترف (والاعتراف سيد الأدلة) بأن بن مهيدى لم يمت منتحرا وإنما مات شنقا، شنقه بعد سابق إضمار وتدبير أوساريس ومعاونوه. لم تحتفظ النيابة إلا بالادعاء على أوساريس بـ«المشاركة فى التبجح بجرائم حرب» فاتهمت بها كلاً من الكاتب والناشر وشرعت فى مقاضاتهما.

فما الذى فى هذا الكتاب دون سواه مما هو من قبيله قد حرك هذه السواكن وجعلها تضطرب كل هذا الاضطراب؟ علما بأن الحكومة الفرنسية كانت قد أصدرت سنة ١٩٦٢ أمرين بالعفو عن الانتهاكات والتجاوزات والجرائم التى ارتكبت فى الجزائر سواء فى نطاق الانتفاضة الجزائرية أو نطاق التصدى لها لحفظ الأمن والنظام، وأصدرت سنة ١٩٦٨ فى دعم الأمرين قانونا ينص على العفو العام عمّا حصل فى الجزائر طيلة العمل على تحريرها.

يقول الناشر فى التنبيه المختصر الذى صدّر به هذا الكتاب: «قرأنا عن حرب الجزائر كثيرا من المرافعات الأسيانة ومن التبرير الاستذكارى ومن الإدانة القاسية. ومع ذلك فإن الشهادة المباشرة التى يدلى بها اليوم الجنرال أوساريس تأتى منقطعة النظير، والذى نعتقده أنها، بعد أربعين عاما، تساعد على تفهّم ذلك التعقد المفزع الذى اتسم به عهد لم يزل يسكن حاضرنا».

ويقول أوساريس فى التوطئة التى مهّد بها لكتابه: «كنت قد قررت، مثل كثير من رفاقى الذين حاربوا فى الجزائر، أن أظل ساكتا وألا أنسى». (..) «و حتى لو كنت أدرك أن الأحداث التى أسوقها من شأنها أن تصدم – أولئك الذين كانوا يعلمون بها و يودّون أن أظل صامتا وأولئك الذين لم يعلموا و ظلّوا يفضلون ألا يعلموا عنها شيئا – فإنى أعتقد أنه من المفيد اليوم أن نذكر بعض الأحداث التى حصلت. وبما أنى كنت، مثلما نرى لاحقا، على صلة متينة ببعض الفترات الخطيرة من حرب الجزائر، فإنى أقدّر أنه يتعين علىّ أن أتحدث عنها. فالصفحة قبل أن تطوى ينبغى أن تقرأ، وحتى تقرأ ينبغى أن تتمّ كتابتها». ثم يقول بعد التأكيد على أنه يستحيل على الجيش الذى تكلفه أمته بمحاربة عدو يستعمل الرعب والترويع ألا يلجأ إلى استعمال أعنف الوسائل: «فليتذكر الذين يطلعون على هذا العمل أن الهجوم على إطلاق الأحكام أيسر من الفهم، وأن تقديم الاعتذارات أهون على النفس من استعراض الوقائع».

قد يقرأ هذان التصديران على أنهما من مألوف ما أصبح يتعمده كثير من الناشرين والكتاب للفت الأنظار إلى ما يكتبون وينشرون لو لم تكن السنتان ١٩٥٥ و١٩٥٧ وما يلحق بهما متفرّعا عنهما فى صميم ذلك الجرح العميق الذى ظلت تنكأه بكل من فرنسا والجزائر أبسط الأحداث وأوهى الأسباب، فكان المسكوت عنه الذى لا تفتأ أصوات عديدة تنادى بضرورة تجاوزه تنهيبه تلك الأصوات نفسها وهى تنادى بتجاوزه عن طريق ضرورة الخوض فيه.

Général Aussaresses
Services spéciaux Algérie 1955 - 1957

(الجنرال أوساريس)
أجهزة خاصة فى الجزائر ١٩٥٥- ١٩٥٧

Editions : Perrin, 2001.197p.

تحدث أوساريس في كتابه عن وقائع خاضها بأجهزة الجيش الخاصة ضد «فلاقة» (الثوار) جبهة التحرير الوطني والأهالي في مدينة «فيليبفيل» (سكيكدة حاليا) سنة ١٩٥٥ ومدينة الجزائر سنة ١٩٥٧.

خصص لوقائع فيليبفيل الفصول الستة الأولى. فعندما حلّ بها كانت جبهة التحرير قد اتخذت قرارها بنقل المقاومة من الأرياف إلى المدن، وكانت الحكومة الفرنسية قد قررت أن تعمل على القضاء على قادة جبهة التحرير ومنع أي تطور لحرب عصابات المدن.

علم أوساريس بذلك كله عندما حلّ بفليبفيل وبلغه أن جبهة التحرير كانت تعدّ لتفجيرات هائلة اختارت لها يوم ١٨ يونيو تاريخا. استفزّه ذلك التاريخ إذ رأى فيه إهانة شخصية له (١٨ يونيو تاريخ رمز لدى الفرنسيين ولدى أوساريس) فشرع في تجميع المعلومات للوصول إلى مدبّري العمليات، واعترف بممارسة التعذيب. بلغ إلى علمه أيضا أن يوسف زيغود (مسؤول جبهة التحرير على المنطقة) يعدّ لهجوم على المدينة يتم تنفيذه يوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥. روى بكثير من الدقة وقائع الهجوم وتحدث عن كيفية التصدي له.

إذا كانت معركة فيليبفيل لا تكاد تخرج عن نطاق المواجهة المسلحة بين الثوار من جهة والجيش الفرنسي وأجهزته الخاصة وشرطته من جهة ثانية، فإن ما جرى في منجم «الحالية» يدخل في نطاق الإجرام الصريح ففيه أمر أوساريس بتصفية ٦٧ أسيرا من المسلمين.

بعد معركة فيليبفيل ارسل أوساريس الى إنجلترا في دورة تدريبية على القفز بالمظلات في نطاق إعداد فرنسي إنجليزي للحملة على مصر تاديبا لعبد الناصر على دعمه للثورة الجزائرية وتاميم قناة السويس.

أما معركة مدينة الجزائر فقد تحدث عنها المؤلف في معظم الكتاب. فعندما كلفت فرنسا الجنرال ماسّو باسترجاع مدينة الجزائر من سيطرة الثوار واستئصالهم منها، بادر ذلك الجنرال إلى استقدام أوساريس للاستفادة من خبرته في انتصاره الساحق على جبهة التحرير في فيليبفيل.

نزل أوساريس بمدينة الجزائر في الشهر الاول من سنة ١٩٥٧ مدركا إدراك يقين أن الجيش الفرنسي سيلوث يديه باعمال قذرة تمس بسمعته وتلطخها. كانت هذه المدينة وقتها في يد رجال العربي بن مهيدي، ومن خططه أن يبلغ بالإرهاب أقصى الغايات حتى تولي فرنسا راحلة عن الجزائر. أما المهمة التي كلّف بها الجنرال ماسّو فكانت تتمثل في القضاء على قادة جبهة التحرير «في أسرع وقت ومهما تكن الوسائل».

علم أوساريس، عند حلوله بمدينة الجزائر، أن الاستعداد حثيث لتنفيذ إضراب عام كان مقررا ليوم ٢٨ يناير. كان عليه أن يعمل على شلّ حركة الإضراب و إفساده. أعلن منع الجولان واستعان بقائمة كانت لدى الشرطة تتضمن حوالي ألفين من أسماء النشيطين في صفوف جبهة التحرير وشرع في الإيقاف والاستنطاق للوصول إلى القادة والسيطرة على المدينة وخاصة منها قصبتها.

تحدث أوساريس عن دوره في معركة مدينة الجزائر بكثير من النخوة واقفا عند تفاصيل العمليات التي نظمها وقام بها لإفشال الإضراب و ملاحقة رجال جبهة التحرير والقضاء عليهم معرضا بالنفاق المتردد في مواقف الساسة وبتظاهرهم بأنهم لا يرون ولا يسمعون ولا يفهمون ما كان يراه ويسمعه ويفهمه جميع الناس. وفي هذا القسم وردت الشهادات الفظيعة التي تستفز وذكرت الأسماء والرموز التي تلطخت في حرب الجزائر وظلت تناور لتلميع سمعتها.

افترق الذين تحدثوا عن هذا الكتاب على أعمدة الصحف أو في سياق استدعائهم «شهودا» أثناء المحاكمة في الشهادة التي أدلى بها الجنرال فيه. فمنهم من ذهب إلى أن الكتاب لا يضيف شيئا إلى ما يعرفه الجميع عن حرب الجزائر إلا ما يتعلق ببعض الجزئيات التي يتم بها الاغتيال أو التعذيب. ومنهم من استفظع الكتاب واستبشعه فرمى صاحبه بـ «الإجرام في حق الإنسانية» واعتبره «سفاحا». ومنهم من رغب في تفهم الأسباب التي دفعت بهذا الجنرال إلى الإدلاء الآن بشهادة لا تكسب صاحبها فخرا.

إذا كانت الوقائع التي ذكرها أوساريس في شهادته لا تضيف إلا قليلا يسيرا إلى ما يعرفه الجميع عن فظاعات حرب الجزائر حتى أن المجلس الوزاري الذي انعقد يوم ٢ يونيه ٢٠٠١ ورأسه السيد جاك شيراك رئيس الجمهورية وقرر إحالة الجنرال إلى التقاعد المباشر وتجريده من شاراته، اتخذ قراره هذا بناء على أن الكاتب «كشف عما كان يعرفه الناس كافة»، فإن الصيغة السردية التي اعتمدها الراوي كان لها أثر فعّال في الضجة التي قامت حول هذا الكتاب «القضية».

فقد رويت الوقائع على لسان «الأنا» وفق الصيغة المستعملة في الشهادات والتراجم الذاتية والمذكرات. ومن خصائص هذه الصيغة أن «الأنا» ينهض فيها بدور الراوي الذي يضطلع بالقص والحكي وبالدور الذي اضطلع به عندما كان شخصية من الشخصيات التي عاشت الأحداث المروية وشاركت في صنعها. فلهذا «الأنا» موقع في زمن الأحداث والوقائع عند حصولها، وله موقع آخر خارج تلك الأحداث والوقائع عند الاضطلاع بروايتها. وقد كان القراء، ولم يزالوا، يخلطون بين الأنا «الراوي» والأنا «الشخصية» ويعدونهما كائنا واحدا حتى كشفت الأبحاث عن أنهما ليسا كذلك. فالذي يروي الوقائع ليس هو الذي يعيشها، والذي يعيشها ليس هو الذي يرويها.

يوفر هذا الكتاب، بالضجة التي تسبب فيها، مثالا نادرا ما يتوفر في التاريخ للفصل بين الأنا الراوي والأنا شخصية من شخصيات الوقائع التي تروى. فبول أوساريس لا يمثل أمام القضاء لأنه ارتكب أعمالا فظيعة في واقع الأحداث. ذلك أن الاغتيالات التي أمر بها أو قام بتنفيذها والتعذيب الذي مارسه والترويع الذي أشاعه والترهيب الذي نشره أعمال لا يعاقبه عليها القانون لأنها من مشمولات العفو العام الذي كان قد صدر في شأنها. وعندما رأى بعض المتحمسين لمقاضاة الجنرال لارتكابه جرائم ضد الإنسانية، أنه لا يمكن أن تدخل الفظاعات التي اعترف باقترافها في خانة الجرائم التي تسقط بالتقادم أو في خانة العفو العام لأن عددا كبيرا من الأشخاص الذين اختطفهم ما زالوا يعدون مفقودين، وهذا يكسب الإجرام في حقهم صفة الدوام. لم تاخذ النيابة بهذا التخريج مثلما لم تاخذ بغيره من التخريجات التي رمت إلى جعل القوانين تنسحب على ما يسبقها.

ولكن أوساريس إنما يمثل أمام القضاء لأن «الأنا» الراوي روى الوقائع والأحداث على نحو معين وذكرها ذكرا يدخل تحت طائلة القانون. رأت النيابة في الطريقة التي استعملها الراوي في سرد الوقائع «تبجحا وإشادة وتباهيا» بالتعذيب والاغتيال والترويع والترهيب. وهذا جرم يعاقب عليه قانون للصحافة صدر في ٢٩ يولية ١٨٨١ بخمس سنوات سجنا وغرامة مالية.

إذا كان أوساريس لا يمثل أمام القضاء لأنه ارتكب في الواقع الحدثي أعمالا فظيعة، وإنما يمثل أمامه لأنه روى ارتكابه تلك الأعمال في واقع السرد رواية يعاقب عليها نص قانوني قديم فما الذي في هذه الصيغة يزجّ بمستعملها تحت طائلة القانون.

استعمل أوساريس في رواية الوقائع التي استحضرها صيغة «الرؤية من الداخل»، وهي صيغة يرمز لها في علم السرديات بـ «ر=ش»، حيث يعني حرف الراء الراوي ويعني حرف الشين الشخصية. وتتّسم هذه الصيغة بانها الصيغة الأفضل التي تسمح للمضطلع بفعل القص بان يبدي موقفه من الوقائع التي يذكرها مرتين. فهو يفصح عن موقفه من الوقائع عند حصولها عندما كان فاعلا من فواعلها في ما يصطلح عليه بواقع الحدث، ويفصح عن موقفه منها بعد حدوثها في ما يصطلح عليه بواقع السرد. والذي حرص أوساريس على إبرازه، بكثير من الإصرار، أن موقفه من الوقائع عندما كان فاعلا من فواعلها هو عين موقفه منها بعد حدوثها. بل إن أوساريس بعد حصول تلك الوقائع الرهيبة باربعين عاما لم يغير من موقفه منها. لم يعبّر مرة واحدة أثناء السرد عن أي «ندم» تماما مثلما لم يكن قد خامره أثناء القيام بالتقتيل والتعذيب في واقع الفعل أي شعور بالندم. لم يذكر مرة واحدة في واقع السرد والقص انه يحسّ بالرّثاء او الإشفاق أو القلق أو الاستياء أو الأسف تماما مثلما لم يكن قد خالجه أي إحساس بالرثاء أو الشفقة أو القلق أو الاستياء أو الأسف على آلاف الضحايا الذين كان حظهم العاثر قد رمى بهم بين مخالبه في واقع الأحداث. بل إنه قد كان، في واقع الأحداث وفي واقع القص، لامباليا حينا بما كان يأمر به أو يقوم بتنفيذه شخصيا، مرتاحا له أحيانا، راضيا دائما عن قيامه على النحو الأنجع بالمهام التي كانت دولته قد ندبته للنهوض بها.

ففي القسم الأول، وفيه تحدث عن معركة فيليبفيل (سكيكدة) نقرأ قوله عند إزهاقه أول روح من أرواح ضحاياه الذين يعدون بالألوف: «أصرّ الرجل على الامتناع عن الكلام. وجدتني حينئذ مدفوعا إلى استعمال وسائل الإكراه. كانت المرة الأولى التي أمارس فيها التعذيب. لم يكن الأمر يومها مجديا. مات ذلك الشخص دون أن ينبس بحرف. لم أشعر بشيء. لم آسف على موته. إذا كنت قد أسفت على شيء فعلى انه مات قبل ان ينطق». (ص ص ٤٤، ٤٥).

ونقرأ قوله في هذا القسم أيضا عند ذكر الأحداث التي حصلت في منجم الحالية: «أمرت الأسرى بالاصطفاف. من كان ينتمي منهم إلى «الفلاقة» (الثوار) ومن كان عاملا من العملة المسلمين الذين قاموا بمساعدتهم. كان ينبغي أن أصدر الأمر بنفسي. لم أكن لأبالي بشيء. كان لا بد من قتلهم لاكثر ولااقل. فقتلتهم». (ص ٦٧).

وإذا كان أوساريس قد قال في هذا القسم من كتابه عند الحديث عن الأعمال التي ارتكبها «الفلاقة»: «عندما رأيت الأطفال مذبوحين او مدهوسين، والنساء مبقورات البطون مقطّعات الأوصال، أعتقد اني أنسيت معنى الرحمة». (ص ٦٤). فإن قوله هذا يتنزّل، عند التدبّر، في نطاق تبرير مقاومة الإرهاب بإرهاب أقوى منه واشد. وهذا في الحقيقة موضوع تساؤل محرق وإن كان كثير من الناس يستسهلون الاقتناع به.

أما الفصول التي تحدث فيها عن معركة مدينة الجزائر فإن المواطن التي تستوقف فيها كثيرة كثرة فاحشة.

فنحن نقرأ فيها قوله: «كنت التكتّم ذاته. ففيما عدا المحيطين بالجنرال ماسّو وقلّة نزرة من ضباط فرقة المظليين العاشرة، لم يكن ليخطر على بال أحد أني كنت قائد جوقة الإرهاب المضاد».

ونقرأ قوله: «تحضرني مثلا ذكرى نساء كن قد دللن على بعض القتلة. كان المذنبون قد اختفوا في كوخ قرب غابة زيرالدا. لم نلتفت حتى إلى الشروع في استنطاقهم. قتلناهم في الحين». (ص ١٦٤).

ونقرأ قوله: «كان أعواني يتحولون، في معظم الأحيان، إلى مكان يبعد عن مدينة الجزائر حوالي عشرين

تحدث أوساريس عن
دوره في معركة مدينة الجزائر
بكثير من النخوة واقفًا عند تفاصيل
العمليات التي نظمها وقام بها لإفشال
الإضراب و ملاحقة رجال جبهة التحرير
والقضاء عليهم، وفي هذا القسم
وردت الشهادات الفظيعة التي
تستفز وذكرت الأسماء والرموز
التي تلطخت في حرب الجزائر
وظلت تناور لتلميع سمعتها



الإرهـــاب الرسـمي

كيلومترا،وكان المشتبه فيهم يصرعون بزخة رشاش،ثم يوارون التراب.كانت الإعدامات لا تتم في نفس المكان أبدا».(ص ١٤٧).

ونقرأ قوله:« من النادر أن يطلع الصباح على الأسرى الذين نستنطقهم أحياء، سواء تكلموا أم لم يتكلموا».(ص ١٥٣).

ونقرأ قوله:« كانت الوسائل التى استعملتها هى هى دائما: الضرب والكهرباء والماء، كانت هذه الوسيلة الأخيرة هى الأخطر على الأسير. كان يندر أن يتعدى استعمالها الساعة من الزمن، فضلا عن أن المشتبه فيهم كانوا يأملون فى النجاة إذا ما تكلموا»(ص ١٥٦).

ونقرأ فى اغتيال العربى بن مهيدى:«وصلت في سيارتين إحداهما من جيب والأخرى دودج.كان معى اثنا عشر رجلا من فرقتى الأولى مدججين بالسلاح.كان النقيب ألير ليلتها فى الخدمة، وكان قد أمر مجموعة من العساكر بالاصطفاف. طلبت منه إحضار بن مهيدى وتسليمه لى. و فى اللحظة التى خرج فيها بن مهيدى من البناية، وكان قد أوقظ من النوم، أمر ألير « بتحية السلاح». أدت حينئذ،فرقة من فيلق المظليين الثالث، وانا مندهش، تحية الشرف لقائد جبهة التحرير المهزوم. كان ذلك إكراما من بيجار(كان المقدم فرنسوا بيجار قائدا للفيلق الثالث مظليين) للرجل الذى كان قد أصبح له صديقا.(...)كان بن مهيدى قد أدرك دون شك وقتها المصير الذى كان ينتظره.(...) عزلنا الأسير فى غرفة كانت مهيأة من قبل. كان واحد من رجالى واقفا فى المدخل على حراستها. وبمجرد أن دخلنا إلى الغرفة،انا و مساعدىْ،أمسكنا بن مهيدى وقمنا بشنقه على نحو يمكن أن يبدو انتحارا. عندما تيقنت من موته أسرعت بإنزاله ونقله إلى المستشفى».(ص ص ١٦٨،١٦٩).

ليس من شك فى أنه بإمكان هذه الوقائع الفظيعة التى يعج بها كتاب أوساريس ألا تثير على صاحبها سخط القراء ونقمتهم لو أنه اختار لروايتها صيغة من صيغ السرد غير صيغة الرؤية من الداخل، أو حرص، على الأقل،على إبراز شيء من الاختلاف بين مواقف الأنا من الأحداث عندما كان فاعلا من فواعلها ومواقفه منها عندما اضطلع بروايتها. بل إنه كان بإمكان أوساريس لو أنه كان قد لجأ إلى ذلك أن يستردّ بعضا من آدميته او بعضا من البطولة التى كان أحرز عليها عندما شارك متطوعا فى تحرير بلاده من النازية معرّضا نفسه لممارسات أصبح يسقى مرارتها أناس عملوا على تحرير بلادهم.

لكن الكاتب أصّر على أن يكون موقفه من الأحداث عند روايتها مطابقا لموقفه منها عندما كان يسهم فى صنعها.أصر على هذا فى طيات كتابه و تمسك به أثناء محاكمته. وكان إصراره مبنيا على أنه لا يلبس جبة القاصْ و إنما يتلفع بعباءة المؤرخ، فهو يذكر ما كان قد جرى على النحو الذى كان قد جرى عليه. و إذا كان الذى جرى على النحو الذى كان قد جرى عليه يمثل جرما فإن هذا الجرم لا يعنيه هو من حيث هو راو. فإذا كان قابلا لان يعنيه من حيث هو شخص قام بتنفيذ أوامر عليا فإنه يعنى أيضا جميع الذين أسهموا فيه. فقضية التعذيب والاغتيال والإرهاب والإبادة ليست قضية فردية و إنما هى قضية جمع.إذا أرقت ينبغى أن تؤرّق البشرية بأسرها وإذا أزعجت ينبغى أن تزعج جميع الناس.

أصرّ أوساريس على هذا الموقف، وهو موقف لا يخلو ،عند الإنصاف،من صلابة. فعندما قال الناشر،أثناء المحاكمة: إن المؤلف كتب ما كتبه «تخفيفا عن النفس»، هبّ الجنرال واقفا و قال: «هذا غلط.لم أشعر قط بالحاجة إلى التخفيف عن ضميرى». وعندما قالت أرملة بولنديير(الجنرال الذى استعفى من مهامه رفضا لممارسة التعذيب حسب أرملته وغضبا من سوء معاملة الجنرال ماسو له حسب أوساريس) «يتباهى المؤلف فى هذا الكتاب بالأعمال التى قام بها».هب الجنرال واقفا وقال: «لست أتباهى بذلك يا سيدتى. لست أتباهى بذلك». وهذا الذى كان من الجنرال أثناء محاكمته هو عين ما نقرأ آخر ما نقرأ فى كتابه.قال متحدثا عن الحفل الذى نظم على شرفه سنة ١٩٦٢ وعن الضباط الشبان الذين كانوا يرقصون على أنغام أغنية «الهارب من الجندية» من تأليف بوريس فيان وعن تذكره أحداث فيليبفيل ومدينة الجزائر ومصرع بن مهيدى وبومنجل على يديه: «لم أشعر بالندم.ولكنى تمنيت ألا يجد أىٌ من هؤلاء الشبان نفسه ذات يوم مدفوعا إلى أن يقوم،لمصلحة بلاده،بالأعمال التى تعين علىّ القيام بها هنالك فى الجزائر».

فهل تكون محاكمة أوساريس ناتجة عن سوء تفاهم بين المؤلف وقرائه متولد عن الصيغة التى اعتمدها فى سرد الوقائع والأحداث. ففى حين قصد المؤلف إلى ما قصد إليه بانطباق مواقف الأنا الذى يروى على مواقف الأنا الذى أسهم فى صنع الأحداث عندما كان فاعلا من فواعلها، إمعانا فى الوفاء للحقيقة التاريخية حتى تنهض بوظيفتها،استفظع لسان الادعاء الوقائع وطريقة روايتها. بدا له أن الأنا الذى أسهم فى صنع تلك الوقائع المؤلمة فى واقع التاريخ لم يكتف بصنعها بل رواها دون أن ينزّ له عرق أسفا عليها أو ندما فاتهمه بالتبجّح بالتعذيب وبتبرير اللجوء إليه.وإذا كان الدفاع قد فطن إلى أن المؤلف إنما يحاكم بسبب الموقف الذى يتخذه الراوى مما يرويه فإن الادعاء ظل متمسكا بالخلط بين الأنا شخصية من الشخصيات الفاعلة فى الأحداث والأنا الذى يضطلع بالسرد والقص،فطالب بتخطئة كل من الجنرال والناشر بمائة ألف فرنك فرنسي،أم أن الضجة التى واكبت المحاكمة، بعد أن كانت تسببت فيها،ليست،فى الحقيقة،سوى ضرب من ضروب التنصل من فظيع ما كانت أمة من الأمم قد ارتكبته فى حق شعب قامت باستعماره.فأن يعدّ أوساريس مذنبا برواية وقائع إبادة مرعبة على النحو المزعج الذى قد يلاحقه بوليس السرد أخف على بعض الضمائر القلقة من أن تكون الأمة الفرنسية بأسرها مذنبة فى حق الجزائر من أجل عظيم ما ارتكبته فيها من جرائم. وفى التمسك بإدانة القول تغطية على إدانة الفعل الذى يفصح عنه القول. ■

ماكدونالدز م.م

دعوة

من ماكدونالدز م.م مصر

لبناء المستشفى الجديدة

لعلاج سرطان الأطفال

مستشفى ٥٧٣٥٧

دعوة الى كل مواطن أن يساهم فى عمل الخير

و قد بدأ ماكدونالدز م.م مصر بالتبرع بـ ١٠ قروش

من ثمن كل وجبة تباع فى جميع أنحاء الجمهورية

و ذلك لعلاج الأطفال

المصابين بهذا المرض الخطير



جمعية أصدقاء معهد الأورام القومى

تليفون وفاكس: ٣٦٥٥٢٣٣ (٢٠٢) - ٣٦٨٠١٠٦ - ٣٦٢٣٨٨٧٥

بريد الكترونى: E-mail AFNCI@intouch.com

بنك أمريكان إكسبريس فرع الجيزة حساب رقم / ٥٧٣٥٧

البنك الأهلى المصرى فرع القصر العينى حساب رقم / ٥٧٣٥٧

بنك القاهرة فرع الألفى حساب رقم / ٥٧٣٥٧

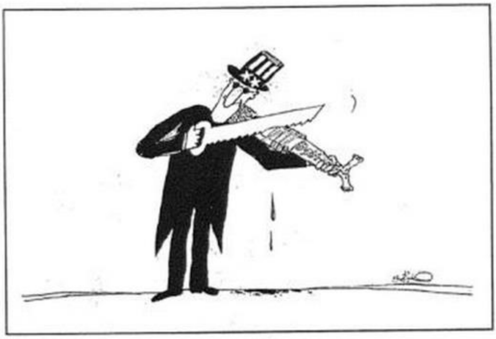
AFNCI

ماكدونالدز

لصوص لكن ظرفاء

الكاريكاتير عند العرب

صقر أبو فخر



عزف أمريكي منفرد..!

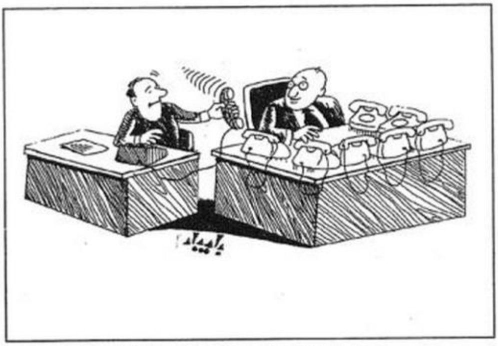
خضير الحميري - جريدة «العرب اليوم» ٣/٢/١٩٩٨



للرسام محمود كحيل



من أعمال الرسام البلجيكى بيرتسيليك

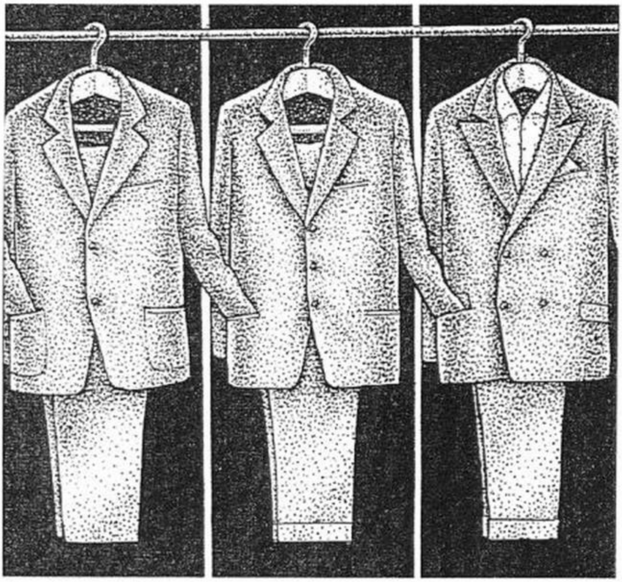


الرسام بليبل (لبنان) يعمل فى جريدة «المستقبل» ٤/٧/٢٠٠١

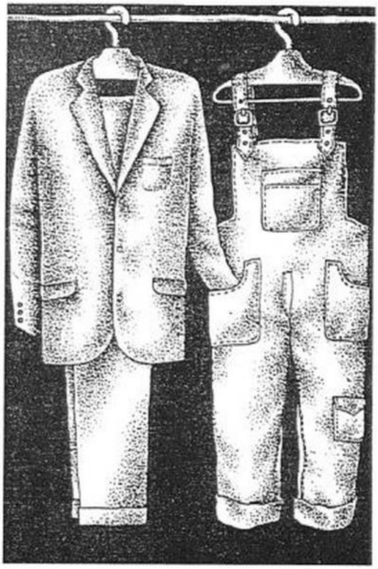
الظُرف والفكاهة والسخرية ثالوث الأدب الضاحك بامتياز، وهو وليد مجتمع التنعم والتأنق والقلق فى آن. والفنون العظيمة لم تنشأ إلا فى المجتمعات المترفة، اللاهبة فى ابتداع الأسئلة، واللاهثة وراء اعتناق الأجوبة والوصول إلى اليقين. والمجتمعات العربية التى عاش فى عصورها القديمة أدباء ظرفاء أمثال الفرزدق والجاحظ وابن الرومى وأبونواس وإبراهيم الموصلى وأبوالعلاء المعرى وأبودلامة وأبوعلقمة وأبوالشمقمق وأشعب وجحا وابن سودون، هؤلاء كرسوا بعض أدبهم ونقدهم للسخرية من القُوّاد والوزراء والقضاة والوعاظ والمحدِّثين والأعراب والنحويين والحمقى والمغفلين والبخلاء والطفيليين والنساء وذوى العاهات ومن كل شىء تقريباً، وأبدعوا فى جملة ما أبدعوا، تراثاً هائلاً من المصنفات العجيبة والكتب الغريبة من «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى حتى «هز القحوف» ليوسف الشربينى، ومن «أخبار الحمقى والمغفلين» لابن الجوزى حتى «الفاشوش فى حكم القراقوش» للأسعد بن مماتى. وفى العصر الحديث نشأ جيل من الكتّاب والأدباء والصحافيين ممن برعوا فى الصحافة والأدب واشتهروا بالفكاهة الراقية والسخرية الثاقبة والهزل الرفيع.

والكاريكاتير، فى العالم العربى اليوم هو الناتج الممتاز والمدهش للفكاهة العربية الحديثة. ومثلما الفاكهة راحة للجسم فإن الفكاهة ترويح عن النفس وراحة لها فى آن. والسخرية - كأحد ضروب الفكاهة - لها وظيفة اجتماعية: فهى تقوم بمهمة النقد وتهدف إلى التقويم الاجتماعى أو التغيير الاجتماعى أو الجزاء الاجتماعى أو القصاص السلمى، وذلك فى قالب فنى ضاحك. وثمة نوعان من السخرية: الأول يهدف إلى التعريض بالآخرين أو التهكم اللاذع، والثانى يبغى النقد والكشف والإضحاك. وفى الأحوال كلها فإن السخرية هى أرقى أنواع الفكاهة، فى حين أن الدعابة هى أخف الألوان. والواضح أن كل ما يُضحك هو نوع من السخرية، لكن ليست كل سخرية تؤدى إلى الإضحاك. فثمة سخرية مُرّة تستمد مرارتها من البؤس المادى أو من النفاق الاجتماعى أو من الإحباط السياسى. ومهما يكن الأمر فإن السخرية يجب أن تؤدى أغراضها تماماً فى النقد والتفكهة.

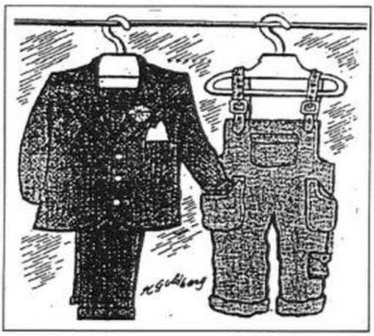
ومن مظاهر الاضطراب فى الثقافة العربية اليوم، غياب المجلات المصورة الفكاهية والساخرة، وربما كان هذا الأمر نتيجة منطقية لتوارى الظُرف والظرفاء من الحياة العربية. فلا توجد اليوم فى العالم



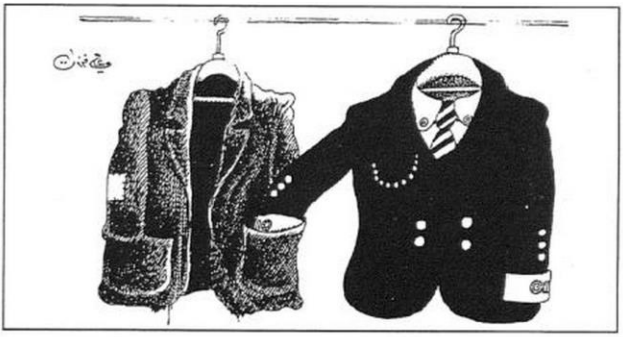
الرسام اليوغوسلافى يوغوسلاف فلاهوفيتش



الرسام اليوغوسلافى يوغوسلاف فلاهوفيتش



«الجماهير» (عمان) ١٦/٨/١٩٩٥



«الوطن». السبت ٢٣ صفر ١٤١٨هـ ٢٨ يونيو ١٩٩٧

العربى أية مجلة ضاحكة ذات قيمة. حتى إن مجلة «روزاليوسف» الشهيرة التى كانت لا تنشر الصور بتاتاً وتكتفى بالكاريكاتير فقط، تخلت عن هذا التقليد الذى سارت عليه طويلاً وراحت تنشر الصور بدلاً من الرسوم الكاريكاتيرية، ولو استثنينا بعض مجلات الكاريكاتير المعدودة والمحدودة جداً فى انتشارها، كان لنا الحق فى القول إن العالم العربى أصابه القحط الشديد فى هذا النوع من الكتابة، وأقفر تماماً فى هذا الضرب من الإبداع، وهو الذى شهد فى المائة سنة الأخيرة ولادة نحو مائة جريدة ومجلة فكاهية ضاحكة وساخرة، أولها وأشهرها صحيفة «أبونضارة» التى أصدرها فى مصر سنة ١٨٧٧ يعقوب صنوع، وآخرها مجلة «الدومرى» التى أصدرها فى دمشق سنة ٢٠٠٠ على فرزات.

لعل الحياة الثقافية العربية أجدبت فى هذا الحقل من الأدب، فباتت عابسة كتومة، لا تفصح ولا تتبسم، وانزوى الظرف والظرفاء، ويكاد المتفكهون أن يصيروا قلة معزولة. وها هو القرن العشرون طوى أعوامه وخلّف وراءه كآبة لا تنقشع، وتكاد تغلّف بسوادها كل شيء، حتى ليعجز السحرة والمنحرقون عن ابتداع ضحكة طويلة وعميقة حقاً، ولعل الظرفاء فى هذا المعمعان المضطرب، خسروا معركة العصر فاخلوا ميدانهم لرسامى الكاريكاتير.

ظهور الكاريكاتير:

الكاريكاتير طراز من الرسم التهكمى الذى يعتمد على المبالغة فى سبيل الإضحاك. وهو، إلى ذلك، مخالفة للمألوف فى الطبيعة وفى النسب التشريحية المعروفة للإنسان. إنه تحطيم للجمال والنظام بالوصف المبالغ فيه، وكشف للأقنعة. أى أنه تعرية حقيقية تخز ولا توجع، وهو، باختصار، نكتة قائمة على حقيقة واقعية.

فى مخزون الرسم المصرى القديم ثمة لوحة جميلة يناهز عمرها الخمسة آلاف سنة تمثل مشهداً طريفاً: فهى تصوّر طائراً يصعد على سلم طويل إلى شجرة عالية. ربما يمكننا اعتبار هذه اللوحة ببعض من التحفظ، أقدم كاريكاتير عرفته البشرية. وبعد ذلك ربما، استطراداً، يمكن اعتبار الأقنعة الأفريقية ضرباً من الكاريكاتير، فهى صُنعت لإبعاد الأرواح الشريرة بالسخرية منها. وليس بعيداً عن ذلك بعض أعمال الرسامين الرومان واليونان القدماء الذين رسموا آلهتهم بأشكال ساخرة. غير أن الكاريكاتير كفن إنسانى متميز لا يرقى إلى ذلك العصر البتة، فهو فن حديث نسبيّاً، نشا فى أوروبا فى القرن الثامن عشر تقريباً. ومع أن بعض اللوحات والرسومات الساخرة كانت شائعة فى أوروبا



ناجى العلى ١٩٧٦



خالد الهاشمى (البحرين) ١٩٩٢



عن مجلة «الإكسبريس» الفرنسية للفنان بلانتو
الأهرام ١٩/٧/١٩٩٧

لصوص لكن ظرفاء

قبل تلك الفترة، لاسيما تلك الرسومات التى كانت تصور رجال الكنيسة وخصومها بأشكال ساخرة مثلما كان يفعل ليوناردو دافنشى منذ سنة ١٤٩٠ فصاعداً، فإن فن الكاريكاتير لم يصبح فناً مستقلاً إلا مع ازدهار الصحافة وانتشارها فى القرن الثامن عشر فصاعداً، ولم ينتعش إلا مع ازدهار النظم الديمقراطية وإطلاق حرية التعبير والنقد. أما كلمة كاريكاتير فقد تأخر ظهورها فى القاموس الإنجليزى أول مرة حتى سنة ١٧٥٥. وكان للثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ الفضل فى تحرير الفنانين من القيود القديمة، فبرز منهم آنذاك الرسام «دومير» الذي يعد من أعظم الرسامين السياسيين فى ذلك العصر. وقد ظهرت رسومه مدوية عنيفة بعد الثورة، وكانت ناقدة تسخر من الأوضاع السائدة والتقاليد الشائعة. لكننا لا نجازف بالقول إذا اعتبرنا الرسام الفرنسى «أونوريه دومييه» (١٨٠٨ - ١٩٧٩) هو مؤسس هذا الفن فعلاً.

أما لدى العرب فيذكر الأصمعى فى كتابه «تجميل الكتب» أن رجلاً من العراق يدعى حمدان الخراط البصرى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى واشتهر بتصوير الأشخاص والحيوانات، وقد كلفه الشاعر بشار بن برد بأن يصور له طيراً على قطعة من زجاج، فصورها له الرسام. لكن بشاراً لم يعجبه الرسم فهدده بالهجاء، فرد عليه المصور بتهديد مماثل قائلاً: «سأصورك على باب دارى بهيئتك هذه وعلى عاتقك قرد آخذ بلحيتك حتى يراك الصادر والوارد» فقال بشار: «اللهم اخزه. فأنا أمازحه وهو يأبى إلا الجد».

وظهر الكاريكاتير فى الصحافة العربية، أول مرة فى ٢١/٣/١٨٧٧ عندما أصدر يعقوب صنوع (١٨٣٩ - ١٩١٢) فى القاهرة أول جريدة هزلية مصورة باسم «أبونضارة زرقا». وقد مهدت هذه الصحيفة الطريق أمام جيل كامل من رسامى الكاريكاتير المصريين أمثال: رخا وعبدالسميع وصاروخان (الأرمنى) وصلاح الليثى وزهدى ورفقى التركى وشوقى التركى، ثم ظهر بعدهم صلاح جاهين وبهجت عثمان وجورج البهجورى وأحمد عزالعرب ومحيى الدين اللباد ومصطفى حسين وأحمد حجازى ورجائى ونيس وناجى كامل وإيهاب شاكر ورءوف عياد ونبيل السلمى. وفى سورية صدرت أول صحيفة هزلية فى ٢/٤/١٩٠٩ تحت اسم «حُط بالخرج» لمحمد عارف الهبل. ثم برز من رسامى الكاريكاتير السوريين توفيق طارق وعلى الأرناؤوط وعبدالوهاب أبوالسعود وخالد العسلى وعبد اللطيف الماردينى وسمير كحالة ثم ممتاز البحرة وعلى فرزات ويوسف عبدلكى وعبدالهادى الشماع وياسين الخليل وسعد حاجو وموفق قات وحميد قاروط.

أما فى بيروت فقد أصدر نجيب جانا وهو سورى أول صحيفة هزلية بعنوان «حمارة بلدنا» فى ١٧/٩/١٩١٠. وفى مصادر أخرى أن أول صحيفة هزلية هى «هبت» التى أصدرها خليل كاملة سنة ١٩٠٨. ثم أصدر توفيق جانا، وهو سورى أيضاً ولعله شقيق نجيب جانا، ثلاث صحف بالتتابع هى: «البغلة» فى ٤/٧/١٩١٣، و«حمارة الجبل» فى ١٨/٨/١٩١٣، و«جراب الكردى» فى ٢٠/٤/١٩١٤. لكن الكاريكاتير، كفن مميز، لم يظهر فى لبنان إلا عندما أصدر يوسف مكرزل مجلة «الدبور» فى ١/١/١٩٢٣ ليؤسس بذلك لجيل من الرسامين اشتُهر منهم - فيما بعد - نئيل الأشقر وديران وستافروا جبرا وبيار صادق وجان مشعلانى وناجى العلى (فلسطين) وإيلى صليبا. ويعتبر عزت خورشيد، بحق أول رسام كاريكاتير فى لبنان. وبعد «الدبور» كرّت سلسلة من الصحف الهزلية أبرزها: «أبو دلامة» لمحمد شهاب ١٩٢٧، و«أبوالرياح» لعزيز عوض ١٩٢٧، و«الصياد» لسعيد فريحة ١٩٤٣، و«الأربعون حرامى» لإسكندر رياشى ١٩٦٠، و«جحا» لفريد الكفورى و«شاش باش» لنمر الصيدانى.

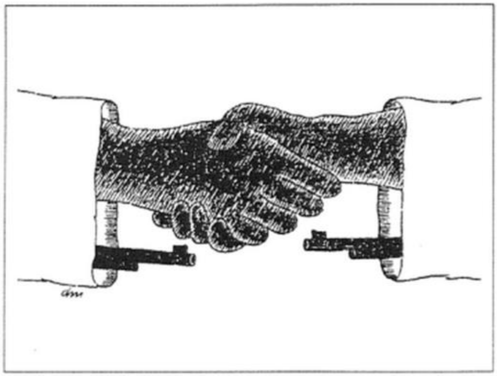
فى العراق صدرت أول جريدة هزلية ٢١/١١/١٩٠٩ هى «مرقعة الهندى» لأحمد حمدى، أما أول صحيفة تدخل الكاريكاتير إلى صفحاتها فكانت «حبزبوز» التى أصدرها نورى ثابت فى ٢٩/٩/١٩٣١. واشتهر من بين رسامى الكاريكاتير فى العراق سعاد سليم وعبدالجبار محمود ومحمود أبوطبرة.

تأخر الكاريكاتير عن صحافة المغرب العربى حتى الستينيات. وفى هذه الفترة أصدر عبدالسلام السفيانى مجلة «النقاد»، ثم أصدر أحمد السنوسى والحسين بن ياز (باز وبزيز) مجلة «الهدهد». ومن بين الصحافة الهزلية اشتهرت «كيخ كيخ» و«الأسبوع الساخر» و«الأسبوع الضاحك» و«التقشاب» ومن بين الرسامين برز العربى الصبان (مراكش) ومحمد الزواوى (ليبيا) ورشيد قاسى (الجزائر).

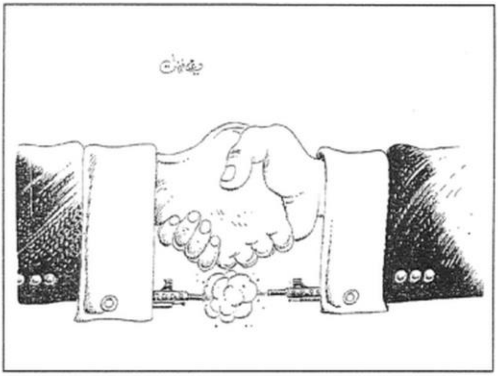
السرقة بالكاريكاتير:

السطو على إبداع الغير عتيق جداً فى تاريخ الأدب والفن فى العالم العربى، وقصص «السارقين» تكاد ترقى فى عراقتها إلى بواكير الشعر الجاهلي كما وصلتنا فى مصادرها ومظانها. وقد عُنى العرب كثيراً بموضوعات «السطو» و«الانتحال» و«الإغارة» وأفردوا لها أبواباً فى تصانيفهم وكتبهم، وبرعوا فى نقد الكلام ومعانيه وصوره، فميزوا الأصيل من الدخيل والمعسول من المزغول والطريف من المنحول والسابق من اللاحق. واعتبروا «السطو» مسلكاً مستنكراً يحط من القيمة الإبداعية لصاحبه فينزع عنه الجدة والطرافة والنبل.

غير أن العرب وجدوا أن ثمة اقتباساً يكون مستحباً إذا خالطته الرشاقة وإذا أضاف إلى الأصل



من أعمال الرسام البولندي ايه . ميرجنسكي

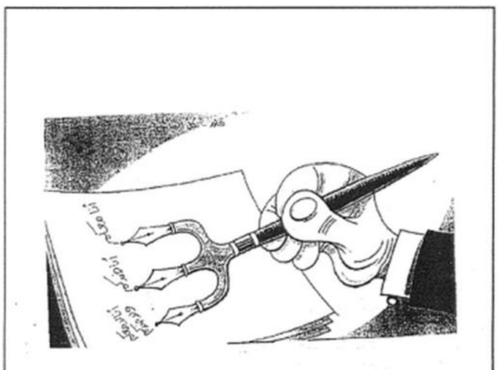


صوت الكويت ١٩٩٢





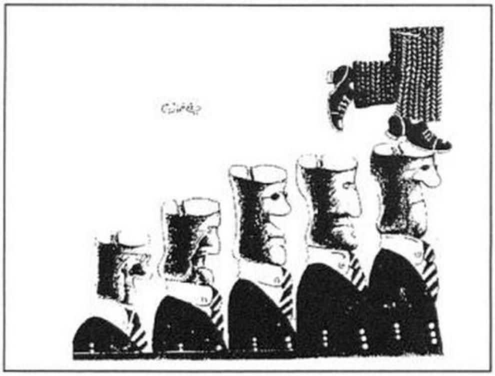
تشرين (دمشق) ٢٠/١١/١٩٩٤



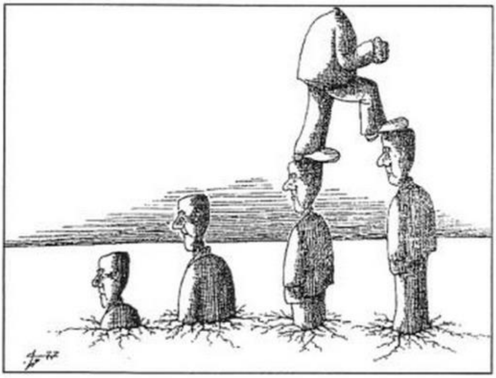
الاتحاد (أبو ظبي) ١٦/١/١٩٩٦



الرسام السوري علي فرزات



علي فـرزات



لصـــوص لكـــن ظرفـــاء

سحراً وجمالاً. وهو يشبه ما ندعوه اليوم «الاختطاف». ولم يستنكروا السرقة الحاذقة وهى الأخذ والإضافة والتبديل حتى ليصبح الجديد جديداً خالصاً أو مماثلاً الأصل فى الطرافة وربما تفوق عليه فى المعانى، وهو نوع من التحويل الذكى والتوليف الجميل. حتى إن المتنبى عندما سُئل عن بعض «سرقاته» أجاب: «الأفكار جادة وقد يقع الحافر على الحافر». ومثلما أن المعانى مبذولة لمن يشاء، فالأفكار أيضاً مبذولة لمن يريد التقاطها ثم استخدامها فى صورة أو قصيدة أو مقالة. وقد جهد العرب فى التفريق بين «الاقتباس» و«السطو» و«التأثر» وتكلموا بإسهاب على ضروب «الإغارة» وفنونها وأنواعها، ورتبوا المسألة على مراتب، وقالوا إن الاقتباس مشروع فى بعض الأحيان، والتأثر مباح مادامت الحياة تلقى بمناخاتها على الجميع ومادامت الألفاظ والمعانى ملقاة على الطرقات. أما التضمين فقد عُدَّ براعة فى بعض الأحيان واحتيالاً فى أحيان أخرى. وعلى غرار ما انتهجته العرب قديمًا، فى موضوع السرقات الأدبية يمكن أن ننحت غراراً بعد غرار فى موضوع السرقة بالكاريكاتير.

مراتب التشابه

تخلف ظهور السرقة بالكاريكاتير كثيراً فى التاريخ العربى، ولم ينشأ هذا الضرب من السرقة إلا مع انتشار الصحافة الحديثة. ولاريب فى أن ثمة اختلاطاً كبيراً فى أنواع السرقة بالكاريكاتير ويصعب، فى بعض الأحيان، التميز بين ما يدخل فى باب التأثر وما يدخل فى باب الاقتباس مثلاً. ذلك لأن اللوحة، أى لوحة، لها صلة قوية بالتداعيات الغائرة وبمخزون الذاكرة البعيدة، وبالكثير من المؤثرات الخفية ما لا يمكن رصده والتأكد منه. والذاكرة هى مخزون الحياة اليومية يمتزج فيها الذاتى بالموضوعى وبكل ما هو عام ومشترك بين الناس. وكل لوحة تحيل فى تفصيلاتها على لوحة أخرى، وكل صورة فى النهاية تتناسل من صورة أخرى ربما تكون عناصرها فى لحظة الانبثاق مجهولة تماماً حتى من الرسام الذى يرسمها. ومهما يكن الأمر ففى الإمكان تدريج مراتب التشابه على النحو التالى:

١ ـ التوارد: وهو نوع من التقاء الأفكار كان يرسم عدد من الرسامين صوراً متشابهة إلى حد بعيد، وينشروها فى اليوم نفسه. فهذه عملية بريئة تماماً ويكون الدافع ـ فى العادة ـ حدثا ذا أهمية كبرى ألقى بتأثيره على الجميع. وأكثر ما يكون ذلك فى البلد الواحد حيث إن ما يجرى فيه من وقائع يهم الجميع ويهتم به الجميع.

٢ ـ المشابهة: لا يُعَد سرقة ما هو شائع بين الناس وما هو راسخ فى النفوس مما يشترك فيه عامة البشر كأنه يُرسم الغنى متكرشاً والفقير مهلهل الثياب، والديكتاتور باللباس العسكرى والعربى بالكوفية والعقال، أو كان تشير إلى اليهودى بالنجمة السداسية وإلى الأمريكى بالقبعة ذات النجوم، وإلى الفدائى بالثياب المرقطة. وليس سرقة استخدام العين الباكية للإشارة إلى المأساة أو الساعة الرملية للإشارة إلى التلاشى، أو الخوذات والأحذية العسكرية للدلالة على حكم العسكر. ولا يعد سرقة أيضاً اشتراك عدد من الرسامين فى استخدام العكازات للإشارة إلى الشيخوخة أو إلى جرحى الحروب، أو استعمال المقص للدلالة على رقيب الأخبار، والعصا والجزرة للكناية عن الاستغباء والاستعباد، والمنحنيات للتعبير عن الحالة الاقتصادية.

٣ ـ الاقتباس: لاشك فى أن ثمة تمييزاً جدياً بين الاقتباس والسرقة. فليس سرقة البتة اقتباس الحكم والأمثال كتصوير الحكمة الهندية القديمة المشهورة: «لا أسمع، لا أرى، لا أتكلم». أو تصوير المثل العربى الشائع جداً: «عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة». وثمة اقتباس مستحب وهو عندما يتفوق المقتبس على المقتبس منه.

٤ ـ الاختطاف: الاختطاف هو نوع من التأثر التحويلى، كان يعمد رسام ما إلى فكرة سبقه إليها غيره فيحولها تحويلاً آخر فيها من الطرافة والجدة ما يجعلها جديدة تماماً. وهذا نوع من الاختطاف الخلاق والمحبب والمقبول.

٥ ـ التضمين: وهو استعارة فكرة أو جملة وتضمينها فى رسم مختلف. وهذا الأمر لا غبار عليه، فهو يستعير من الرسم الأول بعض عناصره ويستخدمها أداة فى رسمه الجديد تماماً. أى أن العناصر المستعارة سيعاد توظيفها كأداة إيضاحية فى رسم آخر مختلف فعلاً.

٦ ـ السرقة الحاذقة: وهى نوع من التغيير والتحويل النوعى فى شكل الصورة وفى عناصرها بحيث تأتى الصورة الجديدة ليست مختلفة تماماً عن الصورة القديمة لكنها مختلفة عنها فى المضمون أو فى الإيحاء أو فى القصد الذى أرادت أن تقصد إليه.

٧ ـ السرقة المكشوفة: عناصر الكاريكاتير ثلاثة: الفكرة والكلمة والصورة.. فإذا اشترك رسمان فى عنصر واحد من هذه العناصر فذلك يسمى تشابهاً. وإذا اشترك الرسمان فى عنصرين فربما عُدَّ هذا الأمر تأثراً أو تحويلاً حاذقاً. أما إذا اشتركا فى العناصر الثلاثة معاً فذلك ـ بلاشك ـ سرقة تامة يمجها الذوق وتمقتها الأصالة. وإذا كان صحيحاً أن اللوحة أو الرسم الكاريكاتيرى ليس شهاباً هابطاً من كوكب مجهول لا أصل له، وأنه تكوين فنى يستند إلى أصول غامضة وإلى تأثيرات خافية على الرسام نفسه، غير أن بعض الرسوم الكاريكاتيرية حتى لو أخذنا فى الاعتبار جميع المؤثرات والأسباب التخفيفية، تصدمنا بكثرة التشابه فيها بحيث لا يمكن اعتبارها إلا نوعاً فظاً من الانتحال والسرقة. والمؤسف أن هذه السرقات صارت شائعة والإغارة باتت فاشية، فعمّت الفجاجة والسذاجة معظم الصحف العربية ودهم الانتحال ذائقة القراء العرب فألجاها إلى الحضيض ووسمها بالسطحية والابتذال.

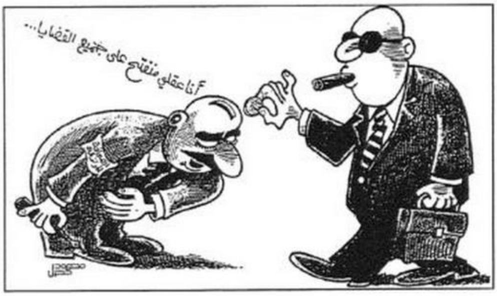
إن هذه الحالة المستشرية ربما تجد أسبابها فى شيوع أنماط الاستهلاك البقرى والإثراء السريع وتهلهل سلم القيم الاجتماعية وصعود قيم المنفعة غير المرتبطة بالأخلاق. كما أنها تترافق مع اختفاء الطمانينة وظهور عوارض التوتر والشراسة فى السلوك الفردى والانغماس فى حماة الاستحواذ السلعى، وانسداد أفق الترقى والازدهار الاجتماعى والتقدم العام، وغياب الحركات الفكرية التى تستقطب الشبان لتعيد صوغ تطلعهم الجمعى إلى المستقبل. وفضلاً عن ذلك كله فإن المجتمع العربى اليوم ما عاد متوثباً ناهضاً مبدعاً. ففى طور التقدم والنهوض ترتكز الأمة على الإبداع والتجديد. أما فى طور التراجع والتقهقر فالعقول تصبح، فى معظمها، متبعة لا مبتدعة. فتعجز عن توليد الطريف النافع وتنصرف إلى السقيم الضار، فينزوى الإبداع والابتكار ويتقدم الشرح والاقتباس. والسرقات ما هى إلا أحد مظاهر الانحطاط الثقافى والتراجع الحضارى والمعرفى. لذلك كان النقد دائماً محاولة من محاولات التقويم وتصحيح الاتجاه وإعادة الأمور إلى نصابها. ومن ضروب النقد أيضاً، مطاردة السارقين وكشف انتحالاتهم وإغاراتهم. وهذه الرسوم الكاريكاتيرية المرفقة تفصح، أيما إفصاح، عن مواطن التأثر والمشابهة وتكشف بجلاء ما بعده جلاء، عن الانتحال والسطو. وأن النباهة والمعرفة الفنية والحذاقة كفيلة بأن تقرر مراتب التشابه ومراتب السرقة فيها■



بريشة «محمود كحيل» مجلة «المجلة»، ١٩ سبتمبر ١٩٨١



بريشة «بول سيب» [أمريكي]، جريدة «بوسطن جلوب» ١٩٧٧



الحياة ٤/١/١٩٩٢





والأبوة لدى معظم الحيوانات. فما أكثر ما تظهر الحيوانات الأليفة عواطف تجاه أصحابها. أما البعد الاجتماعي. فلا يستطيع أحد أن ينكر هذا الذكاء الجماعي الذي تظهره ممالك النمل والنحل. والمثال الحاسم هنا هو ما عرف عن السلوك الجماعي لأصدقائنا من فصيل الدرافيل، وهو السلوك الذي يمثل نوعا من التكافل الاجتماعي نفتقده نحن بني البشر. ليس هذا فحسب. فلن يقتصر أمر امتداد السلوك العاطفي على دنيا الحيوان بل سيمتد ليشمل الآلات أيضا. فقد أيقن أهل الذكاء الاصطناعي استحالة الفصل بين الذكاء الذهني والذكاء العاطفي، وهم يسعون حاليا إلى تطوير روبوتات تظهر العواطف وتتأثر بالمواقف وتعتصرها الآلام، بغض النظر عما يقال عن ضحالة هذه المشاعر مهما ارتقت النظم الآلية في محاكاة مظاهرها الخارجية. بل هناك من يتحدث عن «الروبوت القديس» المتفاني في خدمة غيره، بعد أن تخلص من أنانية الإنسان، وزال عنه شعور القلق على بقائه، حيث يمكن استنساخه في روبوتات أخرى.

خلاصة القول، هناك قناعة لدى الكثيرين بضرورة كسر احتكار الإنسان لملكة الذكاء، وغدا مستساغا القول بأن هناك أنماطا متعددة من السلوك الذكي، وفضاء متسعا من العقول لا عقل واحد هو عقل الإنسان، بل تجاسر البعض فراح يتساءل: أي نوع من الكمبيوتر هو الإنسان..؟!.

٢،٢ من فخاخ الفئران إلى «الروبوسابين»

كما تطور ذكاء الجنس البشري وأسلافه عبر العصور البيولوجية من صورته البدائية حتى ارتقى إلى صورته الحالية الراقية المتمثلة في «الهوموسابين»(*). كذلك تطور - ويتطور - ذكاء الآلة من أبسط الأدوات إلى أعقد النظم والآلات وصولا إلى «الروبوسابين» أو الروبوت العاقل العارف، ذي الحواس الآلية المرهفة، والقدرات الذهنية الاصطناعية الهائلة التي تنمو دوما بفعل آليات التعلم الذاتي من خلال التفاعل المباشر مع الواقع.

لقد بدأ مسار تطور الآلة بأدوات بسيطة تعمل بصورة تلقائية مثل فخاخ الفئران وأدوات قياس حركة الكواكب ومنظم السرعة الذي اخترعه جيمس وات للتحكم في محركه البخاري كي لا يفلت زمامه(٦). بعد أن نجح الإنسان في صنع آلته البخارية والكهربائية لتنوب عنه «عضليا»، سعى إلى بناء آلة تخفف عنه «عقليا». وقد شهد القرن التاسع عشر عدة محاولات لبناء آلة حاسبة، تعمل بعناصر ميكانيكية من التروس والروافع وما شابه. إلا أن هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح: بسبب عدم توفر الأسس العلمية، وربما - أيضا - بسبب هذا التناقض الجوهري بين ميكانيكية تلك العناصر وصلابتها، وبين رهافة المعلومات وسيولتها المتدفقة. وما إن توفرت هذه الأسس العلمية والوسيلة التكنولوجية المناسبة لبناء تلك الآلة الحاسبة؛ حتى تحقق الحلم المنتظر بنهاية أربعينيات القرن العشرين، وخرج إلى الوجود الكمبيوتر الالكتروني الرقمي ثمرة لالتقاء علوم الفيزياء والرياضيات المنطقية والهندسة الالكترونية.

ومنذ ظهوره، واصل الكمبيوتر مسار تطوره بمعدلات غير مسبوقة. وارتقت نظم المعلومات على جبهات عديدة، من زيادة سرعة تنفيذ العمليات الحسابية والمنطقية، إلى زيادة سعة التخزين للوسائط الالكترونية، ومن زيادة كفاءة ملحقات إدخال البيانات وإخراجها، إلى زيادة إمكانات لغات البرمجة الراقية التي تقترب رويدا رويدا من مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها الفائقة على التعبير. وهكذا، اكتسبت الآلة كثيرا من المقومات التي تؤهلها كأداة لبناء نظم الذكاء الاصطناعي.

وكما توالت أجيال الكمبيوتر، توالت كذلك أجيال الروبوت ليتطور روبوت الجيل الأول الغشيم، الذي يقوم بمهمة روتينية محددة، إلى روبوت الجيل التالي الذي يمكن إعادة برمجته من أجل توسيع مجالات استخدامه والمهام التي يقم بها، وبعدها يأتي روبوت الجيل الثالث المزود بأجهزة الرؤية الاصطناعية والأطراف الحساسة ووسائل التغذية المرتجعة feed-back التي تمكنه من التكيف مع بيئة العمل. ويستمر التطور في مشوار صعوده سعيا إلى بناء روبوتات قادرة على العمل بروح الفريق من خلال التواصل فيما بينها، بل يتم حاليا تزويد الروبوتات، «أصحاب الياقات المعدنية» كما أطلق البعض عليها، بالقدرات اللغوية والخلفية المعرفية حتى يمكنها التواصل الذكي مع رفاقهم من أصحاب الياقات الزرقاء والبيضاء.

ولكن من أين واتت مهندسي الذكاء الاصطناعي هذه الجرأة التي تتطاول على كل هذه السنين من «أركيولوجيا» البيولوجي والمعرفة؟، وكيف لها أن تدعي نجاحا فيما فشل فيه الفلاسفة خلال خمسة وعشرين قرنا، عندما عجزوا عن تقديم رؤية فلسفية مقنعة عن الذهن البشري وماهية المعرفة التي يتعامل معها؟. ربما يرجع ذلك إلى اقتناع هؤلاء المهندسين بأن المخ البشري برغم تعقده الشديد ما هو في نهاية الأمر إلا آلة متقدمة لمعالجة المعلومات، وما من نشاط عقلي إلا ويمكن محاكاته بنموذج معلوماتي.

كما أشرنا سابقا فقد تسرع البعض في بداية ظهور الكمبيوتر، متصورا أن هذه السرعة الهائلة، وهذه القدرة الحسابية الغاشمة، ووسائل التخزين ذات السعة العالية كفيلة بحل كثير من المشاكل. ترجع هذه النظرة المسرفة في تفاؤلها إلى اعتقاد خاطئ بأن الكمبيوتر بسرعته الهائلة قادر على توليد جميع البدائل الممكنة لحل مشكلة ما، وإجراء المقارنات بين هذه البدائل وفقا للمعايير المحددة التي يتطلبها الحل، ولا بد أن يؤدي ذلك بنا في نهاية المطاف إلى التوصل إلى حل المشكلة رهن الدراسة. في ظل هذا التصور، تتحول مهارة لعب الشطرنج إلى عملية حصر جميع النقلات الممكنة والنقلات المحتملة التي يمكن أن يقوم بها الخصم ناظرين إلى الأمام عبر عدد محدود من النقلات التالية لكل وضع محتمل لرقعة الشطرنج. أما مشكلة الترجمة الآلية - كمثال آخر لنظم الذكاء الاصطناعي - فحلها يكمن في حصر جميع معاني الكلمات وأنماط تراكيب الجمل في اللغة التي تتم الترجمة منها، والمعاني والأنماط المقابلة لها في اللغة التي تتم الترجمة إليها.

سرعان ما اكتشف قصور هذه النظرة الميكانيكية لحل المشاكل القائمة على حصر جميع البدائل الممكنة لها، وذلك لسبب بسيط وجوهري هو أن عدد هذه البدائل ينمو بمعدل متزايد للغاية يصل حتى على مستوى المسائل البسيطة إلى قيم يصعب علينا حتى تصورها، فعلى سبيل المثال تقدر البدائل الممكنة للعبة الشطرنج بـ ١٠ أس ١٢٠. أما أنماط تراكيب الجمل فيصعب حصرها بأية طريقة رياضية أو عملية. فاللغة كما يقول نعوم تشومسكي هي «الاستخدام اللامحدود لوسائل محدودة».

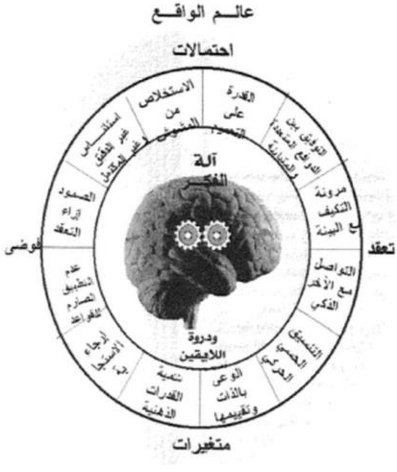
لا يعمل المخ بصورة خطية يقيم من خلالها مسارات مستمرة تصل بين المثيرات وردود الأفعال، ولا يعمل كآلة منطقية تربط بين المقدمات والنتائج، بل يعتمد في كثير من الأمور على الحس الطبيعي المباشر



وحتى معاني الألفاظ التي تصور البعض إمكان حصرها في متن المعاجم، لا تتوقف هي الأخرى عن التغيير من خلال عمليات المجاز، والتوسع في معاني الكلمات، ناهيك عما يستحدث من مصطلحات جديدة.

لقد غاب عن ذهن هؤلاء استحالة أن تلاحق الرياضيات والمنطق، والمعرفة القاطعة بشكل عام، كم المشاكل التي تظهر بمعدل يفوق قدرتنا على حلها. وعلى الجميع أن يعي بوضوح الحدود التي تقف عندها الأساليب العلمية القاطعة. وعندما يعجز العلم النظري يأتي دور الخبرة العملية، نوع آخر من أنواع المعرفة البشرية يختلف في طبيعته اختلافا جوهريا عن المعرفة العلمية القاطعة، فالخبرة هي تلك المعرفة التي نكتسبها من خلال ممارستنا الشخصية، أو ننقلها عن غيرنا بصورة عفوية أو مخططة، وهي - أي الخبرة - وإن كانت إمبريقية تقريبية، إلا أنها وسيلتنا لحل كثير من المشاكل التي تواجهنا يوميا، إن ما نفهمه عن هذا العالم بصورة قاطعة يقل، وبكثير، عما يغطيه نطاق خبراتنا. إنها هي الخبرة التي تحدد سلوكنا وتصرفاتنا وقراراتنا وطرق صياغتنا للمشاكل وأساليب حلنا لها، وهي أداتنا العملية للتعامل مع الغامض والمحتمل وغير المكتمل، وهي - ومازال الحديث عن الخبرة - تلك القدرة الخفية التي نصادف بها حلول كثير من المشاكل دون أن نعرف كيف اهتدينا إليها. تجاوبا مع هذا التوجه، تمثل النظم الخبيرة expert systems أحد الفروع الأساسية للذكاء الاصطناعي، وهناك محاولات مشجعة لتطوير نظم خبيرة تحاكي خبرة المدرس في تعليم طلبته، وخبرة مهندسي الجيولوجيا في تحديد مواقع الثروات البترولية والمعدنية، بل تم تطوير نظم خبيرة لتشخيص الأمراض تفوقت في حالات عديدة على كثير من الأطباء المتخصصين.

كما هو متوقع، واجه مفهوم الذكاء الاصطناعي معارضة شديدة من قبل كثيرين اختلفت أسبابهم ودوافعهم. فبينما اعتبره بعض أهل الدين نوعا من الهرطقة العلمية، فالذكاء هو هبة الخالق لكائنه الفريد، نرى كثيرا من أهل البيولوجي يرفضونه على أساس من اعتقاد راسخ من أن المخ البشري هو عضو بالغ التعقيد يستحيل علينا محاكاته. أما الفلاسفة، فيفرقون بشدة بين ما يطلق عليه ذكاء الآلة والذكاء البشري الأصيل بقول آخر، هناك فرق شاسع بين قيام الآلة بسلوك ذكي بفضل البرامج التي صممها الإنسان، كأن تفهم النصوص وترد على الأسئلة وتبرهن النظريات مثلا، وبين أن تكون الآلة مستقلة بذاتها ذات ذكاء، تستحدث الحلول وتطرح الأسئلة من تلقاء نفسها. أما أهل اللغة فمصدر اعتراضهم على ما يدعيه أصحاب الذكاء الاصطناعي من إمكان محاكاة السلوك اللغوي هو أن فهم اللغة وتوليدها يحتاج إلى ملكات ذهنية ونفسية يصعب محاكاتها، وهي أمور تحتاج إلى خلفية معرفية تفوق بكثير تلك التي تتضمنها كتب القواعد والمعاجم، بل دوائر المعارف أيضا. والتحدي إذن هو كيف نضع العالم في جوف الآلة؟!! العالم بموجوداته وأحداثه ومفاهيمه وعلاقاته وقيمه، وكيف يتسق ذلك مع حقيقة أننا ندرك قدرا كبيرا من العالم حولنا من خلال الحس الطبيعي المباشر، وبالسليقة أحيانا. وهي نوع من المعرفة يصعب تعريفه ومحاصرته.



شكل رقم «٢»

ويأتى إلينا علماء النفس فيلقون بالزيت على النار، عندما يصدرون حكمهم فى عدم جواز فصل المعرفة عن المشاعر المصاحبة لها. فالسلوك الذكى فى رأيهم ليس فقط فى الرد على الأسئلة بصورة سليمة أو استنتاج الحقائق بشكل دقيق، بل أيضا فى قدرة الكائن الذكى ـ إنسانا كان أو آلة ـ فى أن ينفعل ويتأثر بما حوله. حجتهم فى ذلك هو تداخل المواقف النفسية مع آليات التفكير بصورة يتعذر معها الفصل بينهما.

لقد فشلت كل هذه الاعتراضات فى أن تثنى مهندسى الذكاء الاصطناعى عن اقتناعهم الراسخ، وما زادتهم إلا تشبثا بموقفهم، وهم متمسكون برأيهم أنه لو أمكن محاكاة الوظائف التى يحتاج تأديتها إلى ذكاء، فماذا يهمنا إذا كان هذا الذكاء أصيلا أو مصطنعا، طبيعيا أو مفتعلا. إن الهدف ليس هو محاكاة الذكاء البشرى بعينه، بل صنع ذكاء مختلف، واختلافه لا يعنى بالضرورة أنه أقل قدرة.

بالرغم من كل الإنجازات التى تحققت فى مجال الذكاء الاصطناعى حتى الآن، فمازال ـ وربما سيظل ـ يواجه العديد من التحديات سواء على جبهة العتاد أو على جبهة البرمجيات، ويمكن القول بشكل عام إن هناك مدخلين أساسيين لمواجهة هذه التحديات، هما: المدخل البيولوجى والمدخل اللغوى.

٢،٣ المدخل البيولوجى للذكاء الاصطناعى

يمكن القول بصفة عامة، إن تكنولوجيا المعلومات قد قامت ـ حتى الآن ـ على علم «الفيزياء»، سواء من حيث استنادها إلى الأسس الكهربية والمغناطيسية والضوئية، أو من حيث طبيعة المواد المستخدمة فى بناء عناصر الكمبيوتر الأساسية. فكما هو معروف، يتم تصنيع الشرائح الالكترونية electronic chips من بلورات السيلكون المستخلصة من الرمال. على ما يبدو، فقد اقتربت تكنولوجيا المعلومات تلك القائمة على الفيزياء من خط نهايتها، حيث وصلت هذه الشرائح الإلكترونية ـ بالفعل ـ إلى مشارف حدودها القصوى، والتى يتعذر تجاوزها، وذلك من أجل تحقيق مزيد من التصغير لهذه الشرائح، أو بغرض زيادة السرعة التى تنفذ بها العمليات الحسابية والمنطقية. للخروج من هذا المازق التكنولوجى وليد قيود الفيزياء، سارعت البيولوجيا تطرح نفسها كبديل، وهى توشك حاليا أن تبعث بتكنولوجيا المعلومات الفيزيائية إلى متاحف التاريخ. من الشواهد على ذلك، تلك التجارب التى تجرى حاليا، لدمج العناصر البيولوجية مع العناصر السيلكونية فيما يعرف بتكنولوجيا «البيوسيلكون» Biosilicon، بل واستغلال الأنسجة الحيوية منفردة فى بناء المقومات الأساسية لتكنولوجيا المعلومات. إن الهدف هو بناء كمبيوتر أكثر سرعة وذكاء ومرونة، ذى ذاكرة أكثر اتساعا (تكفى الإشارة هنا إلى طاقة تخزين البيانات الهائلة لنواة الخلية الحية متناهية الصغر التى تحمل فى جوفها بلايين الرموز البيولوجية المكونة للنص الوراثى الكامل).

لا يقتصر لجوء تكنولوجيا المعلومات إلى البيولوجيا على العناصر الأساسية لبناء الكمبيوتر، بل يمتد ليشمل معمارية عتاده، والكيفية التى تعمل بها برمجياته. وليسمح لنا القراء لتوضيح المقصود هنا بأن ننعطف قليلا بحديثنا صوب الأمور الفنية. إن معمارية بناء الكمبيوتر منذ ظهوره حتى الآن قد قامت على أساس مركزية وحدة المعالجة المركزية central processing unit التى يعمل الجميع تحت سيطرتها، ومركزية الذاكرة التى يتنافس الجميع على شغل حيزها. لقد بات واضحا أن هذه المعمارية شديدة المركزية تمثل عائقا حقيقيا أمام تطوير كمبيوتر أسرع وأذكى وأكثر مرونة. من أجل التخلص من هذه المركزية، تقوم معمارية السوبركمبيوتر الفائق السرعة على «تفتيت» وحدة المعالجة المركزية لتتوزع على عدد كبير من الكمبيوترات الميكروية المتصلة ببعضها البعض، مكونة شبكة كثيفة تعد نقلة نوعية فى سبيل محاكاة بنية المخ البشرى. من الأساليب الحديثة لبناء هذا الكمبيوتر اللامركزى هو استخدام ما يعرف بتكنولوجيا «الشبكات الأعصابية الصناعية "Artificial Neural Network" التى تعد ـ كما يقول توم ستونير ـ علامة فارقة فى تطوير ذكاء الآلة، وتمثل الحد الفاصل بين نظم الكمبيوتر غير العضوية القائمة على الفيزياء، وبين النظم البيولوجية الآلية ذات الذكاء الأرقى.

ومرة أخرى، لا يقتصر استخدام الشبكات الأعصابية الاصطناعية على العتاد فقط، بل تستخدم أيضا فى تطوير برمجيات أكثر قدرة ومرونة، تختلف اختلافا جوهريا عن الطريقة التى تعمل بها البرمجيات التقليدية. تستخدم برمجيات الشبكات الأعصابية الصناعية ما يعرف بـ «البرمجة الوراثية» genetic programming. كما يوحى اسمها، تعمل هذه البرامج بأسلوب أقرب ما يكون إلى الكيفية التى تتطور بها الكائنات الحية، ويقصد بذلك قدرة هذه الكائنات على أن تتعلم، وتزداد ذكاء ومهارة ومناعة، من خلال تفاعلها المباشر مع واقع بيئتها: فالبرنامج الوراثى لا يعمل فى ظل قواعد محددة سلفا، بل يبدأ مسار تطوره ـ هو الآخر ـ من حالة أولية بدائية، ليظل يرقى تدريجيا، ويتعلم تلقائيا، من خلال تعرضه المباشر لواقع المشكلة التى يستخدم فى حلها. ومثله مثل الكائن الحى، يظل البرنامج الوراثى يتكيف ويتبلور ويتحسن ويزداد فاعلية، وذلك بتطبيق مبادئ نظرية التطور، من قبيل: الانتخاب الطبيعى وظهور الطفرات وتوارث الصفات وما شابه. إن القواعد التى يعمل فى ظلها هذا البرنامج ذو الأساس البيولوجى تتنافس مع بعضها البعض وفقا لمبدأ البقاء للأقوى: فالحالات القوية المتواترة لواقع المشكلة رهن الحل هى التى تفرض نفسها على البرنامج كى يتكيف تلبية لمطالب هذه الحالات. أما الحالات الضعيفة الشاردة فتظل تتوارى دون أن ينشغل بها البرنامج بما يكفل تركيزه على تلك المتعلقة بصلب المشكلة.

٢،٤ المدخل اللغوى للذكاء الاصطناعى

يعتمد نجاحنا فى إكساب الآلة ملكة الذكاء على مدى فهمنا لطبيعة البنى الرمزية التى تتعامل معها آليات الحوسبة الطبيعية داخل المخ البشرى. لقد رسخت فى ذهن الكثيرين مقولة «اللغة مرآة العقل» مما أدى بهم إلى اعتبار اللغة الإنسانية مدخلا أساسيا لكشف النقاب عن الكيفية التى تعمل بها أنشطة المخ البشرى: لغوية كانت أم غير لغوية. سندهم فى ذلك أن النشاط اللغوى يتميز عن غيره من الأنشطة الذهنية فى إمكان محاصرته دخلا وخرجا. فنحن ننطق المقولات ونسمعها، ونولد العبارات ونفهمها، ونكتب النصوص ونقرأها. كل ذلك يتم بصورة محسوسة يمكن رصدها بدقة من نقطة بدايتها إلى نقطة نهايتها، ولنقارن ذلك بنشاط ذهنى آخر مثل الإدراك البصرى الذى يصعب اقتفاء مساره دخلا وخرجا. من منطلق آخر، يؤكد أهل البنيوية الصلة الوثيقة بين اللغة والعقل، وذلك من خلال تحليلهم لنصوص أساطير الشعوب المختلفة، فقد اكتشفوا أن بينها قواسم عامة مشتركة تعبر حدود الثقافات والأزمنة. من أبرز هذه القواسم ثنائيات: الخير والشر ـ السماء والأرض ـ الخالق والمخلوق ـ الإنسان والطبيعة ـ السيد والتابع ـ الرجل والمرأة، وما شابه. نظرا إلى عموميتها تلك، يزعم البنيويون أن هذه الثنائيات لا بد وأن تكون انعكاسات لثنائيات كامنة فى ثنايا العقل البشرى. أما أهل الحتمية اللغوية فقد تمادوا فى تأكيد العلاقة الوثيقة بين العقل واللغة زاعمين أن العقل هو صنيعة لغته، وأننا نرى العالم من منظور لغتنا الأم.

تواجه حاليا مقولة «اللغة مرآة العقل» معارضة شديدة من مصادر عدة، فهى تعجز عن تفسير ذكاء الحيوان الأعجم الذى لا لغة له، ولا تقدم جوابا شافيا لسؤال أساسى، طالما طرح ومازال يطرح، وهو: كيف يكتسب الأطفال ـ فى الأصل ـ لغتهم الأم؟ إن لم تكن فى حوزة عقولهم آلية معرفية أكثر تجريدا، تجب اللغة ذاتها بحيث تمكنهم من استخلاص قواعد اللغة من خلال تعرضهم لعينة عشوائية من كلام الكبار. وماذا أيضا عما يؤكده كثير من العلماء من أنهم يفكرون بصورة تشكيلية لا لغوية؟! وكيف نفسر أنه بالرغم من صخب الكلمات وشدة تجسدها إلا أننا عادة نتذكر المعانى لا الكلمات، ونختزن مضمون العبارات لا ظاهر ألفاظها حتما، نحن لا نفكر بالعربية أو بالإنجليزية أو بأية لغة أخرى. استنادا على ما سبق، خلص البعض إلى أن هناك ما يمكن أن نطلق عليه «لغة الفكر»، وهى نظام معرفى أكثر نطاقا وتجريدا وثراء من اللغات الإنسانية بلا شك. إن كشف طبيعة لغة الفكر هذه هى التى ستمكننا من تحديد طبيعة البنى الرمزية التى تتعامل معها آليات المعالجة الذهنية، وكيف تبنى المفاهيم، وكيف تمتزج هذه المفاهيم مع بعضها البعض لكى تولد مفاهيم أكثر ثراء وتعقيدا.

ثالثا: عن التقاء آلة الفكر وفكر الآلة وافتراقهما واندماجهما

٢،١ عن التقاء آلة الفكر وفكر الآلة

تناولنا فى مواضع سابقة بعض أوجه التشابه بين المخ البشرى والكمبيوتر، وسنكتفى هنا بتناول بعض الجوانب العامة لهذا التقابل البيولوجى ـ الآلى. بصفة عامة، يمكن القول إن ثنائية «المخ ـ العقل» تناظر ثنائية العتاد hardware ـ البرمجيات software، ومن حيث البنية العامة ـ وكما أوضحنا سلفا ـ فالحوسبة الطبيعية، أو آليات التفكير الذهنى، تناظر وحدة المعالجة المركزية للكمبيوتر، فى حين تمثل عناصر الحواس والأطراف وحدات الدخل والخرج فى النظم الآلية. وفيما يخص الذاكرة، فكما أن للذاكرة البشرية مستويين من الذاكرة: ذاكرة المدى القصير وذاكرة المدى الطويل، فللكمبيوتر أيضا ذاكرته المتطايرة قصيرة المدى التى

كتاب الزاوية

من شعر «صلاح عبد الصبور»

مرثية رجل تافه

مضت حياته . . كما مضت
ذليلة موطأه
كأنها تراب مقبره
وكان موته الغريب باهتًا مباغتا
منتظرًا ، مفاجأه
(الميتة المكرره)
كان بلا أهل ، بلا صحابْ
فلم يشارك صاحبًا حين الصبا لهو الصبا
ليحفظ الوداد فى الشباب
كان وحيدًا نازقًا كعابر السحاب
وشائعًا كما الذباب
وكنت أعرفه
أراه كلما رسا بى الصباح فى بحيرة العذاب
أجمع فى الجراب
بضع لقيمات تناثرت على شطوطها التراب
ألقى بها الصبيان للدجاج والكلاب
وكنت إن تركت لقمة أنفتُ أن ألمها
يلقطها ، يمسحها فى كمه ، يبوسها ، يأكلها
«فى عالم كالعالم الذى نعيش فيه
تعشى عيون التافهين عن وساحة الطعام والشراب»

يستخدمها فى إجراء العطيات الحسابية والمنطقية، وذاكرة المدى الطويل المتمثلة فى وسائط التخزين الدائم من أقراص مغناطيسية وضوئية.

تلك بعض من مظاهر التشابه العام، إلا أن المصدر الأساسى للتشابه بين المخ والكمبيوتر يكمن فى التقاء كليهما على جبهة الرقمنة digitization، فالمخ يشبه الكمبيوتر فى كونه يعمل بصورة رقمية، بمعنى أن الرسائل المتبادلة عبر الجهاز العصبى ليست إشارات مستمرة تزداد وتخفت شدتها وفقا لقوة المثير أو رد الفعل المقابل. إن هذه الإشارات عبارة عن سلسلة من النبضات المتقطعة المتلاحقة، تتوقف شدة الإشارات بالتالى على عدد هذه النبضات أو معدل تدفقها. كما هو معروف، فالتعامل مع المعطيات فى هيئة الأعداد، أى الأرقام، هو أساس الرقمنة. من جانب آخر، وتأكيدا للطابع الرقمى لعمل المخ البشرى، نشير هنا إلى أن الخلايا العصبية تعمل هى الأخرى بصورة ثنائية، تتنقل بين حالتين لا ثالث لهما، فهى إما كامنة خامدة أو مثارة متوهجة، تماما كما هى الحال بالنسبة إلى عناصر بناء الكمبيوتر التى تعمل بصورة ثنائية متنقلة ما بين الصفر والواحد.

وعلى ما يبدو فإن الرقمنة هى المنتهى الذى تؤول إليه كثير من الظواهر: بيولوجية كانت أو معرفية. فها هم أهل الميكروبيولوجى يكتشفون أبجدية الكود الوراثى الرباعية التى هى فى جوهرها زوج من التقابلات الثنائية، وقد أثبتت هندسة البرمجيات أن جميع المشاكل يمكن أن تؤول فى النهاية إلى سلاسل رقمية قوامها ثنائية «الصفر والواحد» التى تمثل العنصر الذرى لعمليات الرياضيات المنطقية.

٢:٢ عن افتراق آلة الفكر عن فكر الآلة

يميل أهل التكنولوجيا إلى اختزال أعضاء الجهاز العصبى ووظائفه فى هيئة الآلات، فالعين آلة تصوير والذاكرة آلة تسجيل والذهن آلة حاسبة. لقد أثبتت البحوث الحديثة خطأ مثل هذه التصورات، وأبرزت العديد من أوجه الاختلاف الأساسية بين الأعضاء البيولوجية ونظيراتها الآلية. وكما يقول كلود شانون صاحب نظرية المعلومات، إن فهم المخ الإنسانى بصورة أعمق لا يتأتى من خلال البحث عن أوجه التشابه بين المخ والكمبيوتر، بل من خلال دراسة أوجه الاختلاف بينهما، والتى سنتناول بعضا منها فيما يلى باختصار:

من حيث السرعة، تعمل عمليات المخ والذاكرة بوحدة الميلليثانية (واحد على ألف من الثانية) فى حين يعمل الكمبيوتر بوحدة النانوثانية (واحد على ألف مليون من الثانية) أى بسرعة تقارب مليون مرة سرعة المخ البشرى. فى ذات الوقت، لا توجد حدود لتوسيع ذاكرة الكمبيوتر على عكس الذاكرة البشرية المحدودة والتى تعمل فى ظل قيود فسيولوجية وبيولوجية. من جانب آخر، تتسم عناصر الكمبيوتر بأنها تعمل بصورة ثابتة ومستقرة، فى حين تخبو الذاكرة البشرية وتموت الخلايا العصبية وتضعف الحواس وتضمر القدرات الذهنية. هذه بعض الجوانب التى ربما يرى فيها البعض تفوقا للآلة على المخ البشرى.

إن أهم ما يتميز به المخ البشرى هو كثافة بنيته الشبكية شديدة التشعب والتى تعوض بطئه النسبى فى معالجة المعلومات بكفاءته العالية فى معالجة المعارف والمفاهيم التى عادة ما تتسم هى الأخرى بشدة التشعب. أضف إلى ذلك ما تتميز به الذاكرة البشرية من مرونة وديناميية فى تفاعلها مع جميع العمليات الذهنية، وهو ما يوفر طرقا مركبة لتخزين المعلومات واستدعائها من الذاكرة تفوق بكثير تلك المستخدمة فى النظم الآلية لاسترجاع المعلومات. يكفى هنا أن نشير إلى أسلوب تداعى الذاكرة البشرية الذى يسمح بتشعب وانتشار عمليات البحث داخلها، وسرعة الوصول إلى ما تختزنه من معلومات ومفاهيم، وإقامة الروابط بينهما، بل وحتى «النسيان»، الذى ربما يرى فيه البعض عيبا فى الذاكرة البشرية، يعد فى كثير من المواقف ميزة، حيث يجعل تركيز الذهن منصبا على الأمور الأحدث والأكثر أهمية، والتى غالبا ما تظل عالقة بالذاكرة، وهو ما حدا بمهندسى الذكاء الاصطناعى أن يسعوا لإكساب نظمهم الآلية «فضيلة النسيان».

٢:٢ عن اندماج آلة الفكر وفكر الآلة

يشهد تاريخ التطور العلمى والتكنولوجى

سيجىء اليوم الذى يمكن أن يتفوق فيه ذكاء الآلة على ذكاء الإنسان، كما فاقت قوة الآلة الميكانيكية قوة عضلاته، ودقة نظم الإنذار والمراقبة دقة حواسه ومتانة أعصابه، وفاقت قدرة الكمبيوتر التقليدى قدرة عقله

أن المهندسين كثيرا ما يقدمون العون لعلماء الأحياء ووظائف الأعضاء في اكتشاف الكيفية التي تعمل بها الأجهزة البيولوجية والوظائف الفسيولوجية. في المقابل، يقدم علماء البيولوجي والتشريح إلى المهندسين كثيرا من الأفكار التي تهديهم إلى تصميم آلات وآليات ونظم مبتكرة وقد تناولت الدراسة الحالية بعض مظاهر هذا الحوار الحيوي - الآلي، وكيف استعان أهل البيولوجيا باستعارة الآلات في تفسير عمل المنظومات الحيوية. أما عن اهتداء المهندسين بالمعارف البيولوجية، فهناك العديد من التطبيقات الهندسية التي تشهد على ذلك، نذكر منها - على سبيل المثال - الاهتداء بعين الضفدع في تصميم شاشات الرادار، وبأرجل الجراد في تصميم الآليات التي تحط بها المركبات الفضائية على سطح الكواكب.

يمكن القول إن ذلك التبادل المعرفي يمثل الحد الأدنى للحوار «الحيوي - الآلي» الذي يتحرك حاليا صوب مزيد من التداخل، وقد أشرنا في موضع سابق كيف يصبو أهل تكنولوجيا المعلومات إلى استخدام العناصر البيولوجية في بناء أجيال متقدمة من الكمبيوتر. على الجانب المقابل، أصبحت أجسادنا أكثر عرضة للتدخل التكنولوجي، من أمثلته منظمات دقات القلب، وأجهزة السمع التعويضية والمفاصل والقلوب الصناعية. على صعيد آخر، يرى البعض في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات امتدادا لأجسادنا حيث تمكننا من ممارسة كثير من أنشطتنا عن بعد، من مشاركة الآخرين اجتماعاتهم وحلقات سمرهم إلى إجراء العمليات الجراحية وإصلاح الأقمار الصناعية.

إن التدخل التكنولوجي في الجسد لم يعد بدافع العلاج، حيث تتنامى النظرة حاليا إلى الجسد بصفته كيانا قابلا للاكتمال والتحسين، بل ويصل الأمر بأهل تكنولوجيا الواقع الخائلي Virtual Reality إلى حد القول بإمكان الاستغناء عن الجسد تماما ليعم الإنسان - كما يدعون - بخلود رقمي، فقد نجحت هذه التكنولوجيا الطموحة أن تقيم لنا عوالم رمزية نجوب في أرجائها تاركين وراءنا أجسادنا، متحررين من قيود الجسد وقوانين الطبيعة وقوانين المجتمع. والحال هكذا، فلا عائق يعوقنا من أن نخترق الحوائط ونهوى من أعلى الشواهق دون أن نصاب بخدش، ونجوب عوالم مجرات الفضاء، ونرحل عبر الأزمنة الجيولوجية، ونخلط أزمنة المستقبل البعيد مع أزمنة الماضي السحيق حتى يدين لنا عنصر الزمن كما دان لنا فيما سبق عنصر المكان.

ولنترك عوالم الرمز الخائلية، نستسمح أهل الخيال العلمي أن نقتطع من عالمهم تلك المناطق التي أوشكت أن تطولها يد التكنولوجيا فيما يخص المخ البشري، والذي يتعرض حاليا لهجمة تكنولوجية شرسة تهدف إلى تعزيزه بشرائح الكترونية neu-rochip تزيد من سعة ذاكرته وقدراته الذهنية. بل هناك من يتصور إمكان إرسال إشارات مباشرة إلى مراكز الشعور باللذة داخل المخ بحيث يمكن توليد هذا الشعور صناعيا دون حاجة إلى مثيرات حسية، أو عقاقير، وما شابه، ويزعم البعض أن هذا لم يعد حلما بل حقيقة ممكنة لا يقف أمام تحقيقها إلا الاعتراض الأخلاقي، ولكنهم واثقون أن هذا الاعتراض سيزول ما إن تكتشف الفوائد التي يمكن أن تعود على الإنسان بفضل ذلك، تماما كما أخذت تخفت حاليا بعض الأصوات المعارضة للاستنساخ البشري. لكن المشكلة على ما يبدو ستتجاوز الجانب الأخلاقي إلى ما هو أبعد بكثير. فالتدخل التكنولوجي في آلة الفكر الإنساني ينطوي حتما على الكثير من القضايا شديدة التعقيد التي لا يمكن حصرها في النطاق الأخلاقي دون غيره.

ودعنا نتساءل، في ختام حديثنا، هل سيؤول الأمر في النهاية إلى تقسيم العمل بين المخ البشري والكمبيوتر الذكي. الأول يبدع ويبتكر، والثاني يعيد إنتاج ما سبق ابتكاره وإبداعه؟. أم نحن على مشارف ما أطلق عليه البعض عصر «ما بعد البيولوجيا»؟، وهل تلوح في الأفق بوادر ظهور جنس بشري جديد يجمع بين البيولوجي والإلكتروني المعلوماتي، جنس «الهوموإلكترونيك»، الذي ينذر البعض بأنه سيقضي على جنس «الهوموسابين» الحالي كما قضى هذا على سلفه. حقا لقد آن أوان الفزع..!!.

الهوامـش

(١) كتاب «Grammatical Man» تأليف Jeremy campell: ص ٢٤١.
(٢) جون فون نيومان هو العالم المجري الذي يعتبر مهندس الكمبيوتر الأول.
(٣) كما هو معروف تصنع شرائح الكمبيوتر الالكترونية من شرائح بلورات السيلكون.
(٤) كتاب «ما بعد المعلومات» تأليف توم ستونير ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي: ص٣٧.
(٥) إنسان العصر الحديث وفقا للتصنيف البيولوجي لتطور سلالة البشر.
(٦) نفس المرجع السابق: ص ١٢٤.



كتاب الزاوية

من شعر «صلاح عبد الصبور»

من مسرحية «بعد أن يموت الملك»

الشاعر: أستودعكم يا أصحابي..
هبوا.. هل أنتم موتى.. هل متم مثله؟
معذرة.. أنتم تدرون
كانت هي حبي المجنون
أشكركم إذ صنتم سري المكنون
المتعقل رغم إرادته إذ يعطيه الخوف تبصره
إن أعطاه الوجد جناحه
كنت أناجيها في نومي المتوفز
وأحن إليها حتى تنخلع الأعضاء
ما بين شهيق الرغبة وزفير العجز
أتمنى أن أمسح قدميها بالشعر كما تمسح بالزيت العطرى
أقدام القديسين
فوداعا يا أصحابي
فلقد عشنا بعض الزمن الميت جيرانا
يرعانا نفس اللحاد المجنون، ونلبس نفس
الأتربة المتجمدة، ونقتسم فطير الصدقات الملعون
والآن.. هأنذا أمضي
هي تدعوني أن أتبعها
طفلاً لا أملك أن أعطيها
فأنا خار مذ بعت الحرية بالخبز

القاهرة في حكايات ألف ليلة وليلة

محمد عبدالرحمن يونس

مدخل:

إنّ أهمّ المدن التي ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة هي المدن الحضريّة القريبة من البحار والأنهار، والمليئة بالعمران والبساتين، والحمّامات والأسواق والحانات التجاريّة. وحكايات ألف ليلة وليلة هي حكايات المدينة العربيّة الإسلاميّة في أوج نموّها المعرفيّ والحضاريّ في العصر الوسيط، ومناقفتها وعلاقاتها مع المدن الأخرى، والحضارات الأخرى الهنديّة والفارسيّة والصينيّة، وإن ابتعدت هذه الحكايات عن المدن المزدهرة، فإنّها لا تبتعد عن بنية هذه المدن إلاّ لتنتقل إلى مدن أسطوريّة وجزر تبدو غاية في الجمال، وكأنها الصورة النديّة لهذه المدن. يقول أحد الرواة واصفاً إحدى هذه الجزر: « فنظروا إلى تلك الجزيرة فرأوا فيها أشجاراً وأنهاراً وثماراً وبساتين، وفيها من جميع الفواكه والأنهار من تحت تلك الأشجار، وهي كأنها الجنّة». وعموماً تبدو المدن التي يصل إليها الرّواة كأنّها جنان الأرض، من حيث التشكيل العمراني، ونشاط الحركة التجاريّة، وجمال النساء اللاتي يصفهنّ الرّواة بالأقمار المشعّة.

غير أنّ المدن التي وصفتها حكايات ألف ليلة وليلة ليست مدناً مدينية تماماً، بل تبدو علاقاتها علاقات بدويّة، على الرغم من استهجان الراوي المديني لعلاقات البادية، فحتى بغداد المركزيّة أو البصرة المدينة الحضريّة المهمّة في الليالي لا تخلو تماماً من علاقات البداوة وقيمها.

لقد كان رواة ألف ليلة وليلة وَلِعين بوصف المدن الكبيرة والارتحال إليها، في حين أنّ المدن الصغيرة لم تكن إلاّ محطّات سفر، يرتاح فيها الأبطال والتجّار، أو طرقاً إجبارية يضطرّ السرد للمرور بها للوصول إلى المدينة المركز الحلم، التي تحتضن الأبطال وتعطيهم المال والشهرة والنساء، وكل ما لذّ وطاب.

لخراسان وبغداد والبصرة الصدارة في الليالي، وتأتي بعدها من حيث الأهميّة القاهرة ودمشق، هاتان المدينتان المهمّتان اللتان لعبتا أدواراً سياسيّة وتجاريّة مهمّة في الدولة العربية الإسلاميّة. فدمشق كانت عاصمة للدولة العربية ـ أيام الأمويّين ـ التي بسطت هيبتها على جميع بلاد أواسط آسية (في التركستان)، وغربيّ الهند (باكستان اليوم)، وعلى شمال القارة الأفريقية، وعلى شبه جزيرة إيبيرية (إسبانية والبرتغال)، حتى أنّ الزحف العربي اجتاز جبال البرانس إلى فرنسة، ووصل إلى مدينة تور في الشمال الغربي من فرنسة.

أمّا القاهرة فقد « مثّلت عاصمة المدنيّة» في ليالي ألف ليلة، إذ كانت «مصر تجذب التجار لا ليثروا من التجارة فيها ولكن ليروا مظاهر المدنيّة والخصب والثراء». إلاّ أنّ مركزيّة القاهرة في الليالي أهمّ بكثير من دمشق، على الرّغم من أنّ دمشق في التاريخ كانت عاصمة للخلافة الإسلاميّة، وكانت أكثر مركزية من القاهرة. ولا ندري ما السبب الرئيس الذي جعل الرّواة يحتفون بالقاهرة أكثر من دمشق، إلاّ أنّه يمكن القول: إنّ «الإضافات الأخيرة التي أُضيفت إلى هذا الكتاب (كتاب ألف ليلة وليلة) الضخم حدثت في مصر، والراجح أنّ ذلك كان في أواخر عهد المماليك، ولعلها وُضعت في القاهرة (...) وهذا الرأي يمكن استنتاجه (...) من لغة هذا الجزء (الإضافات) فهي تشبه اللغة العربية في عصورها المتأخّرة وتقرب في كثير من الوجوه من اللغة المصرية الدارجة» . ولأنّ هذه الإضافات حدثت في القاهرة، فقد كان نصيب القاهرة في هذه الحكايات أكبر من نصيب دمشق، لأنّه من الطبيعي أن يسجّل الرواة أخبار مدينتهم قبل المدن الأخرى، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ ثمّة إشارات غير قليلة في الليالي إلى أهمية دمشق ومركزيتها أيام الدولة الأمويّة، وهذه الإشارات تجعلها تتفوق على مدن أخرى كثيرة، ومنها: الكوفة والقدس والإسكندرية وحلب وصنعاء وفاس، وغيرها من المدن العربية والأجنبيّة الأخرى الواردة في الليالي، والتي لا تتعدّى أن تكون محطات لاستراحات قصيرة جداً.

ويُلاحظ أنّ حكايات القاهرة لا تنتمي تحديداً إلى فضاءات القاهرة، بل إنّ الرّواة كانوا يعرفون أهمية بغداد المركز، ولذا فقد بدأوا بسرد الحكاية من القاهرة، ثم ارتحل أبطالهم مع ارتحال السرد إلى بغداد المركز. وهكذا تنتهي بعض حكايات (القاهرة) في بغداد، كحكاية «علاء الدين أبي الشامات»، وحكاية «علي الزيبق المصري»، وحكاية «علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد».

وقد اعتبر الدّارسون أنّ الحكايات المصرية أضافها رواة محترفون إلى كتاب ألف ليلة وليلة، وقد عمل هؤلاء الرّواة على تضخيم حجم الكتاب بقصص عربيّة فيها الكثير من التقاليد الإسلاميّة، والأساطير الفرعونيّة والسير اليهوديّة في آن، واعتبروا أنّ هذه الحكايات مرّت في ثلاثة أطوار:

١ ـ الطور الفاطمي: وفيه رُويت حكايات متأثّرة بالطلاسم والسحر والجن.

٢ ـ الطور الأيوّبي: وفيه رويت قصص البطولة والحروب.

٣ ـ الطور المملوكي: وتسجّل حكايات هذا الطور أخبار المدن والشطّار.

ولم تسهم الإضافات الأخيرة إلى كتاب ألف ليلة وليلة، من قبل الرّواة المصريين، في ترجيح كفّة القاهرة على بغداد، لأنّ بغداد تمثّل الكلّ الحضاريّ والمعرفيّ المزدهر للدولة الإسلاميّة، ولأنّها تتربّع على عرش المجد السياسيّ في التوسّع والنفوذ والقوّة، يضاف إلى ذلك «أنّ القصاص المصري إذا تحدّث عن مصر ـ وهو منها وفيها ـ تحدّث عمّا يرى، وعبّر عمّا يسمع (...) أمّا إذا تكلم عن بغداد فإنما يتأثر بعوامل أربعة: يتأثّر بما وُضع من الأقاصيص الجميلة في بغداد، ويتأثّر بما ملأ الأذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبّهة الخلافة، ويتأثّر بما ركّب الله في طباع الناس من تقديس الماضي، وتعظيم البعيد، ويتأثّر بجهله أحداث التاريخ وتطوّر الأمم، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت «الرشيد» ومصرع «بغداد» ونكبة المجد الأثيل».

ومن البديهي أن نقول إنّ بغداد المركزيّة في الليالي، والأولى في الحضارة العربية الإسلاميّة، في العهد العباسيّ، تتفوّق على دمشق، لا من حيث عدد الحكايات فحسب، بل من مستويات عديدة أخرى، كنموّ الأحداث وتشعبها، وحركة الأبطال، وحركة الوحدات السرديّة منها وإليها، وتشعب الملامح الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة التي امتازت بها بغداد، وتعدّد الفضاءات المكانيّة وأهميّتها في بناء حكايات بغداد، وقدرة بغداد هذه المدينة المنفتحة حضارياً على استيعاب الأقوام والشعوب ومن جنسيّات مختلفة، وعلى التفاعل معها، واحتضانها.

وفي هذه الدراسة أحاول أن أتبيّن ملامحها، التي لا يذكرها الرّواة تحديداً، بل يستبدلونها بمدينة مصر التي هي مدينة القاهرة، لأن الرواة عندما يذكرون مدناً مصرية أخرى فإنهم يحدّدونها، كالإسكندريّة والقليوبيّة ودمياط، وأن أتبيّن ملامحها، وبعضاً من بنيتها المعرفيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والتجاريّة، منطلقاً من نصّ الليالي نفسه، ومعتمداً في آن بعض الخلفيات المرجعية التاريخيّة التي ذكرت هذه المدينة.

الملامح الاجتماعية لمدينة القاهرة في ألف ليلة وليلة

يتّفق الدارسون على أنّ كتاب ألف ليلة وليلة يتكون من طبقات متعددة، وإحدى هذه الطبقات كُتبت في بغداد وأخرى كتبت في مصر. والطبقة المصرية أُضيفت إلى الكتاب في زمن متأخر. فـ «الأقاصيص الهيّنة الجيدة السبك التي تمثّل حياة الطبقة الوسطى وتقوم على مشكلة من مشكلات الحب ويكون حلّها على يد الخليفة هي من الطبقة البغدادية، وأمّا حكايات الصعاليك وحكايات الجن ـ وهذه في الغالب ضعيفة الأسلوب ـ فهي من طبقة مصرية متأخّرة». إنّ ما يميّز حكايات ألف ليلة وليلة في طبقتها المصرية كما يرى أحد الدارسين، وجود عنصر المغامرات في بنية أحداثها «التي تعتمد المكر والحيلة من جانب والمنافسة السياسيّة الحادة من جانب آخر». على أن الدارس، مهما كان دقيقاً، لا يستطيع أن يصنّف خصائص معينة ودقيقة للطبقة المصرية، تميّزها عن البغدادية أو الهندية أو الفارسية، لأنّ معظم الحكايات تلتقي في معظم بنياتها التركيبية، التي تتشابه من حيث الحيلة والمكر والقتل والدهاء والجواري الجميلات، ورجال السلطة السفّاحين، والملوك والأمراء الذين يتطاحنون حروباً مدمّرة في تنافساتهم السياسيّة. فالطور البغدادي يتداخل مع الطور القاهري، ويتزامن معه، والسارد الذي يكون في بغداد سرعان ما ينتقل إلى القاهرة، وبالعكس، كما في حكاية «علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة»، والذي يكون في القاهرة سرعان ما ينتقل إلى بغداد، بوحداته السرديّة كما في حكاية «علاء الدين أبي الشامات» ، وقد «كان القصاص المصري يعتمد على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة، والرّوايات القديمة الصحيحة والمدخولة، ثم يضيف إلى ذلك ما تُنوقل في مصر وما تجمّع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدوّنون ما رأوا من الأعاجيب».

ويمكن بشيء من التقريب القول: إنّ الطريقة التي يمكنها أن تلقي الضوء لمعرفة الطور القاهري، ولو بشكل نسبي، هي متابعة السارد وهو يحدد الأماكن الواقعية التي يصل إليها الأبطال، أو يسمّي بعض أحيائها، أو يحدد أسماء حكّامها الحقيقيين في الأزمنة التي حكموا فيها، وسيساعدنا أيضاً، في تحديد هذه الحكايات لغة الحكاية التي تنهل في تركيبتها من لهجة المدينة، لأنّ هذه اللهجة من شأنها «أن تقودنا إلى أصل النص». فالحكايات التي تذكر المدن المصرية تحتفظ بلهجة عاميّة، لا تزال معروفة في مصر حتى الآن. على أنّ ذكر الشخصية المقرونة بمكان معين، أو بزمان يدور الأبطال في فضائه التاريخيّ، ليس دليلاً كافياً لمعرفة أصل الحكاية، أو الطبقة التي تنتمي إليها، فعلى سبيل المثال نجد أن الحكاية التي« تُقال عن الرشيد قد تكون أُلفت بعده بقرون، أو حتى أُلفت قبله بقرون وأُضيف إليها اسمه إضافة مفتعلة عندما أراد القاصّ أن ينزّل هذه القصّة القديمة إلى جوّ المسلمين فسمّى الملك القديم هارون الرشيد، ولم يجد من سامعيه تحرّجاً ولم يقدّر أنّ قوماً سيتساءلون ويخضعون قصصه، الذي ألّفه ليؤدّي غرضاً آخر، لقوانين العقل والواقع والحق».

وفي دراستي لملامح القاهرة في حكايات ألف ليلة وليلة التي وصفتها، ساعتمد بالدرجة الأولى، في تحديد حكايات الطبقة المصرية، المسمّيات المكانية للمدن المصرية وأحيائها، من دون أن أجدني مضطراً للخوض في الآراء الكثيرة المتشعّبة والمتضاربة التي تؤكّد أو تنفي أو ترجّح أنّ هذه الحكاية أو تلك قاهرية أو بغدادية، أو هندية أو فارسية، لأنّ دراستي ستنطلق من الفضاء المكاني، وأهمّ ملامحه، وعلاقات شخوصه، ودور هؤلاء



الشخوص في تحديد سمات المكان وهم يصفونه، أو يتعايشون معه. وفي البداية تجدر الإشارة إلى أنّ الرّواة لا يذكرون القاهرة في جميع الحكايات إلا مرّتين، وهم يستعيضون عنها باسم مصر، أو مصر القديمة. وهم يعنون بها القاهرة، لأنهم عندما يذكرون مصر فإنّهم يذكرون أحياء حقيقية لا تزال معروفة حتى الآن بالأسماء نفسها في القاهرة المعاصرة، ومن هذه الأحياء: القليوبيّة، وخان مسرور، وباب زويلة، والحبّانيّة، وبين القصرين، وحي البندقانيّين، وحارة اليمانيّة والجودريّة، وميدان الفيل، وباب النصر، وحي العادليّة.

أمّا حكايات القاهرة في الليالي فهي: حكاية «الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين»، وهي داخلة ضمن حكاية «هارون الرشيد مع الصياد»، وتجري حوادثها في مصر والبصرة، وحكاية «النصراني لملك الصين»، وهي ضمن حكاية «الأحدب وملك الصين»، وحكاية «علاء الدين أبي الشامات»، وهي مصرية وبغدادية في آن، وحكاية «وردان الجزّار»، وهي في زمن الحاكم بأمر الله، وحكاية «الملك الناصر والولاة الثلاثة»، وحكاية «علاء الدين والي قوص مع أحد اللصوص»، وحكاية «الرجل البغدادي الذي سافر إلى مصر لأجل ما رآه في الحلم»، وفيها يرتحل السرد من بغداد إلى القاهرة، ثم يعود إلى بغداد، وحكاية «الحاكم بأمر الله مع الرجل الكريم»، وحكاية «علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد»، وكما يظهر من عنوان الحكاية، فإنّ الشخصية المصرية فيها ترتحل من القاهرة لتستقرّ ببغداد، وحكاية «جودر ابن التاجر عمر وأخويه»، وحكاية «علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة»، وحوادثها في القاهرة وبغداد، وحكاية «سيف الملوك وبديعة الجمال»، وهي داخلة ضمن حكاية «التاجر حسن مع الملك محمد بن سبائك»، وحكاية «معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة»، وحكاية «الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي».



إذا كانت بغداد في ألف ليلة وليلة قد نالت حظوة كبيرة عند الرّواة، باعتبارها مدينة مركزيّة للسياسة والسطوة والعلم والمعرفة والترف والرفاهية، فإنّ حظّ القاهرة بالرّغم من حكاياتها الكثيرة أقلّ من حظّ بغداد، إذ يصوّرها الرّواة على أنّها مدينة للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل، ويمكن القول إنها تحتلّ المرتبة الثالثة بين فضاءات المدن العربية في ألف ليلة وليلة، بعد بغداد والبصرة، لكنّ هذه المدينة بالرّغم من أنها فضاء للاحتيال بامتياز، فإنّ عليها قسمات وملامح جماليّة غير قليلة، فهي قريبة إلى القلب وعزيزة على النفس، وفضاء لمتعة العين والقلب: «فليس على وجه الأرض أحسن منها»، ومن ملامحها: أنّ الحياة فيها طيّبة، وأنها تجمع كل ما تطمح إليه ملذّات النفس البشريّة، التقيّة والمارقة، وسكانها محلّ صدق، كما يذكر أحد الشعراء:

أترحل من مصر وطيب نعيمها
وأي مكان بعدها لي شائق؟
بلاد تشوق العين والقلب بهجة
وتجمع ما يهوى تقي ومارق
وإخوان صدق يجمع الفضل شملهم
مجالسهم مما حووه حدائق
أسكان مصر إن قضى الله بالنوى
فثمّ عهود بيننا ومواثق

ومن صفاتها، أنها «مدينة مصر المحروسة» و«مدينة مصر السعيدة»، والمدينة التي يقصدها الراوي هنا، هي القاهرة تحديداً.

والقاهرة في بعض حكايات ألف ليلة وليلة مدينة تجاريّة مزدهرة، وتجّارها أثرياء مترفون حتى التخمة: «كان بمدينة مصر رجل تاجر، وكان عنده شيء كثير من مال ونقود وجواهر ومعادن وأملاك لا تحصى». لكنّ الرّاوي العاشق لبغداد ذات الشهرة التجاريّة التي لا تُضاهى، لا يستطيع أن يتخلّص من سحرها وجاذبيتها، وهو يصف ثراء التّجار في القاهرة، بل يؤكّد أنهم يعودون بجذورهم إلى أصول بغدادية. فالتاجر المصري الغني صاحب الأموال التي لا تحصى «كان اسمه حسناً الجوهري البغدادي».

ومن مظاهر ثراء التّجار في مصر وأبّهتهم، ما نقرؤه عن شمس الدين والد علاء الدين أبي الشامات، فهو «صاحب خدم وحشم وعبيد وجوار ومماليك ومال كثير». وما يُلاحظ على أولاد هؤلاء التّجار أنّ فضاء القاهرة بكلّ شساعته وجمال نسائه لا يغريهم بدوام العيش فيه، فابن التاجر حسن البغدادي، المدعو بـ«علي المصري»، وعلاء الدين أبو الشامات ابن التاجر شمس الدين، يرفضان العيش في القاهرة بالرغم من ثرائها الأسطوري، ويرتحلان إلى بغداد المركز ليستقرّا هناك بقيّة حياتهما. وهذا الارتحال عائد إلى أضواء الشهرة والثراء التي عاشتها بغداد المركزيّة.

ويقدّم الرّاوي تجّار مصر في صورة مليئة بالكرم، وبخاصة في علاقاتهم المتميّزة مع رجال السلطة. فها هو أحد تجّار مصر الأثرياء الذي يملك مائة جارية، يكرم الخليفة الحاكم بأمر الله وجنوده، عندما ينزلون في بستانه، ويطعمهم جميعاً مما أرسلته إليه جواريه المائة من طعام، إذ أخرج الرجل: «مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق من الفاكهة، ومائة جام ملآن حلوى ومائة زبديّة ملأى بالشرابات السكريّة»، ثم قدّمها للخليفة وحرّاسه. ويقول الرّاوي: إنّ الخليفة الحاكم بأمر الله سجد «شكراً لله تعالى وقال: الحمد لله الذي جعل في رعايانا من وسّع الله عليه حتى يطعم الخليفة وعسكره من غير استعداد لهم، من فاضل طعامه».

وصعايدة مصر هم الآخرون كرماء في ألف ليلة وليلة، ويذكر الرّاوي أن متولّي القاهرة الأمير شجاع الدين محمد نزل وأعوانه عند رجل من أهل الصعيد، وباتوا عنده، فأكرمهم خير إكرام، وقدّم لهم كل ما يليق بهم.

إنّ صورة رجال مصر الكرماء في الليالي لها خلفيّة تاريخيّة واقعية تسجّلها بعض المصادر التاريخيّة والاجتماعيّة، إذ يذكر ابن خلدون أنّ أهل مصر «أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار». ويتعاطف الرّاوي مع رجال مصر، وبطبيعة الحال يفضّلهم على رجال الإفرنج، انطلاقاً من أيديولوجيته الإسلاميّة، ويدفع نساء رجال الإفرنج إلى ترك أزواجهنّ محبّة برجال مصر، ففي حكاية «الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي»، يتزوّج أحد رجال الصعيد امرأة إفرنجية جميلة، من سبايا نساء الإفرنج ـ أيام الحروب الصليبية ـ وعندما تُعقد الهدنة بين المسلمين والإفرنج لتبادل سبايا الطرفين وفقاً لمعاهدات وقف الحرب، يُحضرون المرأة الإفرنجية، ويسألها رسول ملك الإفرنج، بحضور الملك الناصر وزوجها الصعيدي: «أتروحين إلى بلادك أم إلى زوجك فقد فكّ الله أسرك أنت وغيرك. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمت وتزوّجت وحملت كما ترون وما بقيت الإفرنج تنتفع بي، فقال الرسول: أيّما أحبّ إليك أهذا المسلم أو زوجك الفارس فلان؟ فقالت كما قالت للسلطان».

أمّا الصورة النقيضة لصورة ثراء التجار الفاحش في القاهرة، فهي صورة المهمّشين اقتصاديّاً ومالياً، فمقابل الثراء الفاحش هناك الفقر المدقع، فأرباب المهن الدونيّة يتضوّرون جوعاً، مقارنة بالتجار الأثرياء، ولعلّ صورة معروف الإسكافي تجسّد حال هؤلاء المهمّشين، فقد «قعد في الدكان إلى نصف النهار، فلم يأته شغل ولم يكن معه من حقّ الخبز شيء ثم إنه مرّ على دكان الكنافي ووقف باهتاً واغرورقت عيناه بالدموع».

إنّ دراسة نصوص الليالي المتباعدة في الزمان والمكان، والعادات والطباع والأخلاق، من شأنها أن تجعل الباحث لا يركن إلى نتائج دقيقة وثابتة أو متشابهة، لأنّ رواة الليالي المتعددين متناقضون في رؤيتهم للحياة بعلاقاتها وقيمها، وكذلك نجد أنّ المدن والشخوص التي يصفونها، هي الأخرى مليئة بالتناقض أيضاً. وربما قد تكون ثمّة قواسم مشتركة بين الحكايات من حيث الأحداث والغايات، من جهة، وبين ملامح الشخوص ورؤيتها من جهة أخرى، لكنّ هذه القواسم تظلّ قابلة لشروخ وثغرات عديدة. ومن هذه الثغرات يبرز المتغاير، فإذا كان أحد الرّواة قد وقف مع الأمراء والأميرات، والأبطال التجار المغامرين، وحقّق لهم كل ما يطمحون إليه، فإنّ راوياً آخر وقف مع إسكافي فقير (معروف الإسكافي)، ونقله من حيّه الفقير بمصر، إلى مدينة (اختيان الختن)، وأكرمه وسخّر له خاتم «شبيك لبيك أنا بين يديك»، ثم جعله ملكاً على مدينة (اختيان الختن). وإذا كان راو آخر قد رأى أنّ المرأة شرّ مطلق، فهي الزانية في طبعها، والماكرة في حياتها، فإنّ راوياً آخر قد رآها مليئة بالنبل والكرم والطهارة.

وإذا كان أحد رواة ألف ليلة وليلة يذكر أنه «كان في مصر سلطان عدل وإحسان»، فإنّ راوياً آخر، انطلاقاً من فكرة الثنائيات الضدّية التي يركّز عليها معظم رواة ألف ليلة وليلة، يذكر أنه كان في مصر ملك يسمى شمس الدولة، يعذّب الناس ظلماً، ويغتصب ممتلكاتهم قهراً، إذ أرسل هذا الملك «إلى أخوي جودر وجاء بهما ورماهما تحت العذاب، (...) وأخذ الخرجين منهما ووضعهما في السجن». وإذا كان ظلم الحكام مستشرياً في مصر، شأنها شأن كل مدن ألف ليلة وليلة وبلدانها، فإنّ هذا لا يمنع من أن تكون هناك شريحة تنتمي إلى السلطة، وتتحلّى بالكرم والنبل، ويؤلمها ما يعاني منه المظلومون والبؤساء في مصر، وهذا ما نلمسه في حكاية: «معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة». إذ إنّ القاضي فطن إلى مكر زوجة معروف الإسكافي، فأنصفه منها، وتصدّق عليه: «وكان ذلك القاضي من أهل الخير، فأخرج له ربع دينار». ولا يعني إذا كان هذا القاضي عادلاً، أنّ أعوانه عادلون، بل هم ظلمة، مثلهم مثل طبقة الحاشية التي تحيط بالرجل السلطوي الكبير في الليالي، سواء أكان خليفة أم سلطاناً، أم قاضياً أم وزيراً، إذ يذكر الراوي في الحكاية السابقة أن رسل القاضي، بعد أن أفرج هذا عن معروف الإسكافي، ذهبوا ليأخذوا منه إتاوة غصباً، على الرغم من أنه بريء ومظلوم: «وإذا بالرسل أتوا إليه وقالوا له: هات خدمتنا؟ فقال لهم: إنّ القاضي لم يأخذ مني شيئاً بل أعطاني ربع دينار، فقالوا: لا علاقة لنا بكون القاضي أعطاك أو أخذ منك، فإن لم تعطنا خدمتنا أخذناها قهراً عنك».

ومن الملامح الاجتماعيّة في قاهرة ألف ليلة وليلة: ملمح المرأة الشريرة، وربما يكون هذا الملمح أهم ملمح لنساء ألف ليلة وليلة بعامة، ولنساء القاهرة بخاصة. «وشيء طبيعي أن يكثر الشرّ الصادر عن المرأة في الليالي هذه الكثرة، وتعجّ به الصفحات فقد قامت هذه الحكايات على أساس من خيانة زوجة لزوجها، وتسببت في تعقيده وسفكه للدماء». وتمثّل فاطمة العرّة، في حكاية «معروف الإسكافي»، المرأة في أبشع صورها الشريرة والمحتالة، فقد كانت، كما يقول الرّاوي: «فاجرة شرّانيّة قليلة الحياء كثيرة الفتن، وكانت حاكمة على زوجها، وفي كل يوم تسبّه وتلعنه ألف مرة».

ومن صور هذه المرأة الشريرة، شراهتها في

طلب الطعام، وإصرارها على أن يجلب لها زوجها كنافة خاصة بعسل النحل. وعندما لم يجد في المدينة إلاّ كنافة بعسل القصب اضطرّ أن يحضرها، وعند ذلك انفجرت زوجته شراً وسفهاً: «وغضبت عليه وضربته بها في وجهه وقالت له: قم يا مغفّل هات لي غيرها. ولكمته في صدغه. فخلعت سناً من أسنانه ونزل الدم على صدره (...) وقبضت على لحيته». ولم تكتف هذه المرأة بذلك بل حاكت له مكيدة كادت تودي به، لأنه لم يستطع أن يشبع رغباتها المسعورة في الحصول على الحلوى الفاخرة غالية الثمن. إذ إنها ربطت رباطاً على ذراعها ولوّنت ثيابها بالدم، وذهبت باكية إلى القاضي مدّعية أن زوجها معروف الإسكافي ضربها، وكسر ذراعها وقلع سنّها. وعندما يصلحهما القاضي تذهب إلى قاض آخر وتشكو زوجها، مدّعية أنّه ضربها للمرّة الثانية. فيصلحهما القاضي. وعندما يعجز الزوج عن شراء الحلوى تصمّم على الانتقام منه وإذلاله، فتذهب إلى الباب العالي لتشكو زوجها للمرة الثالثة. فما كان من هذا الزوج المخذول إلاّ أن ترك القاهرة هارباً منها إلى مدينة أسطورية بعيدة اسمها «اختيان الختن».

وتمعن بعض نساء القاهرة، في ألف ليلة وليلة، في التهتك والشذوذ الجنسيّ، الذي يصل إلى حدّ ممارسة الجنس مع الحيوانات، فها هي المرأة في حكاية «وردان الجزّار» - لا يذكر الراوي اسماً لها - تلوذ بجسد دبّ ضخم في دهليز بعيد عن القاهرة، وتشتري كل يوم خروفاً من وردان الجزّار، وتطعمه لهذا الدبّ. يصف الرّاوي حالتها مع هذا الدبّ: «فلما فرغت (من إطعامه) أكلت كفايتها، ووضعت الفاكهة والنقل وحطّت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقي الدبّ بطاسة من ذهب، حتى حصلت لها نشوة السكر، فنزعت لباسها ونامت، فقام الدبّ وواقعها وهي تعاطيه من أحسن ما يكون لبني آدم، حتى فرغ وجلس، ثم وثب إليها وواقعها، ولما فرغ جلس واستراح. ولم يزل كذلك حتى فعل فيها عشر مرات ثم وقع كل منهما مغشيّاً عليه، وصارا لا يتحركان».

قد يبدو الفعل الجنسيّ هنا أسطورياً في عدد مرّاته، وفي الفضاء الواقع فيه (فضاء الدهليز)، لكنه ليس مستحيلاً، من حيث كونه تعبيراً عن إحدى حالات الشذوذ التي لم تسلم منها أية مدينة من المدن العربية الإسلاميّة، إذ شهدت العلاقات الجنسيّة انحرافاً، و «زحف الشذوذ الجنسيّ على المجتمعات العربية»، وعلى الرغم من محاربة الفقهاء والمتشدّدين، للشذوذ الجنسيّ في المدينة الإسلاميّة، إلاّ أنّه «استمرّ رغم كل المراقبة والتحذيرات».

ويبدو أنّ مدينة القاهرة في أزمنة الليالي كانت أكثر المدن فضاءً للحريّات والعلاقات الجنسيّة، ويبدو أنّ سلطاتها في تلك الأزمنة كانت غير صارمة في تطبيق الحدود على العلاقات الجنسيّة، أو هي غير قادرة على تطبيقها، نظراً للكمّ الكثير من الأجناس البشرية التي وفدت إلى القاهرة. وهنا تتشابه القاهرة مع بغداد إلى حدّ بعيد من حيث الجنسيّات المتعددة التي دخلتها عبر التاريخ.

ويُلاحظ أن الشخوص إذا ما تعرّضت في بعض مدن ألف ليلة وليلة إلى الكبت والحرمان الجنسيّ، فإنها تهرب من مدنها إلى فضاء مصر لتحقيق لذّاتها الجنسيّة، كما في حكاية «داء غلبة الشهوة عند النساء ودواؤها»، إذ تُولَع إحدى الشابات الأميرات بنكاح قرد، وعندما يكتشف والدها السلطان أمرها، يقرّر أن يقتلها خوف الفضيحة، فتهرب مع قردها إلى فضاء مصر الآمن لتحقيق الفعل الجنسيّ الشاذ معه: «فتزيّت بزيّ المماليك وركبت فرساً وأخذت لها بغلاً حمّلته من الذهب والمعادن والقماش ما لا يوصف، وحملت القرد معها وسارت حتى وصلت به مصر، فنزلت في بعض بيوت الصحراء». ولا يقصد الراوي بالصحراء تلك البعيدة عن مصر، بل يقصد الفضاء المحيط بمدينة القاهرة، والبعيد نسبياً عن الازدحام، لأنّ هذه الأميرة كانت تشتري كل يوم «لحماً من شاب جزّار». هذا إذا عرفنا أنّ المرافق التجاريّة في تلك الأيام لم تكن موجودة في الصحراء، باستثناء بعض الخانات التي شكّلت محطّات استراحة على الطرق الصحراوية، التي تربط بين المدن.

ونساء القاهرة متحررات وجريئات، إذ يخرجن إلى الأسواق ويلتقين بالرجال، ويبدو هذا طبيعياً في مدينة تغصّ أسواقها بالازدحام، ويلتقي فيها الرجال بالنساء، من دون كبير عناء، فـ «تزاحم البشر في القاهرة، عبر تاريخها الطويل» يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً».. ويبدو أنّ مظاهر الترف التي عرفتها بعض أسر القاهرة الأرستقراطية، دفعت هاته النسوة للتحرّر، والاحتكاك بالرجال، والخروج من فضاءات المنازل إلى فضاءات المتاجر والأسواق المزدحمة بالمارين من الجنسيّات المتعددة.

وتشير حكاية «النصراني لملك الصين» الداخلة ضمن حكاية «الأحدب وملك الصين» إلى أنّ إحدى نساء القاهرة الجميلات المتحرّرات التقت بتاجر بغدادي شاب في سوق «قيصرية جرجس» بالقاهرة، وسرعان ما أعلنت له حبّها، وواعدته على اللقاء بمنزلها، المليء جمالاً وأبّهة، بحي الحبّانيّة. يصف الراوي لقاءهما بمنزل المرأة: «لم أشعر إلاّ والصبية أقبلت وعليها تاج مكلّل بالدرّ والجوهر. فلما رأتني تبسّمت وحضنتني ووضعتني على صدرها، وجعلت فمها على فمي وجعلت تمصّ لساني وأنا كذلك (...) وتمكن حبّها عندي وهان عليّ جميع المال. ثم أخذنا نلعب ونتهارش مع العناق والتقبيل إلى أن أتى الليل».

ويسجّل التاريخ بعضاً من ملامح نساء مصر المتحرّرات واللواتي يخرجن إلى الأسواق بحرّية، من دون أن يثير خروجهن حفيظة مجتمعهن وأزواجهن وإخوتهن وآبائهن. وعلى ما يبدو كان هذا الخروج الحرّ مثيراً ومغرياً للطامعين والمغامرين بغزو البلدان واغتصابها، ودافعاً لغزو مصر، إضافة إلى ذلك حالة الترف والبطر التي عاشتها مصر، والتي كانت هي الأخرى مغرية للاندماج فيها، ولحصاد نعيمها. ويروي تقي الدين أحمد بن علي المقريزي الخبر الآتي: «أرسل أحد المغاربة جارية إلى مصر لتباع بألف دينار، فأتت سيدة وساومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار. وكانت السيدة ابنة الأخشيد محمد بن طغج ملك مصر حينذاك. وعندما عاد التاجر إلى وطنه روى الحكاية للمعزّ». فما كان من المعزّ لدين الله الفاطمي، إلاّ أن أغرته هذه الحكاية، فاستدعى الشيوخ، وطلب من التاجر أن يحكي لهم الحكاية، وعندها قرّر أن يغزو مصر قائلاً: «يا إخواننا انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم وبينهم شيء فإنّ القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها وما هذا إلاّ من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم فانهضوا لمسيرنا إليهم».. فأجاب الشيوخ: «سمعاً وطاعة»..

وإذا أخذنا بصحّة هذا الخبر، فإنّه يمكن اعتبار أنّ أيديولوجيا غزو مصر من قبل المعزّ لدين الله كانت تستتر خلف نوايا عدوانية مبيّتة، تطمح لتحقيق مكاسب خاصة، يحققها احتلال مصر، هذا البلد الذي يعني بالنسبة للمعزّ الرفاهية وملذّات العيش، وفضاء حرّاً تحقق النفس فيه ما تصبو إليه من ثراء وامتلاك وملذّات لا يستطيع فضاء القيروان أن يحققها للمعزّ وقادته وأركان دولته. وإذا كانت جيوش المعزّ لدين الله زحفت من القيروان إلى مصر واستطاعت أن تحتلها، فإنّ هذا الاحتلال لم يكن ناتجاً عن ضعف نفوس رجال مصر، ولم يكن ناتجاً عن الحريات الاجتماعيّة العامة التي أعطت المرأة نوعاً من الاستقلالية في تصرفاتها، بعيداً عن سلطة الرجال وجبروتهم، بل لأن سياسة الغزو كانت مهيّأة نفسياً لأن ترى في مصر فضاء جميلاً، تتحقّق فيه أحلام الغزاة الجامحة صوب الرفاهية وامتلاك الأموال والابتناء بالجواري، إضافة إلى ذلك الاستعدادات الحربية لجيش غازٍ ضخم «بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهّزين بخير عتاد وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يُحصى من الخيول التي حُمّلت بالفضّة والمؤن والذخائر».

وإذا كانت مصر في بعض حكايات الليالي فضاء حرّاً تتحقق فيه حرية الفعل الجنسي، باعتباره فضاءً مفتوحاً على الموبقات والمعاصي - وهي في هذا تشبه بغداد إلى حد بعيد، بل هي تفوقها - فإنه من الطبيعي أن يكون من بين هذه المعاصي شرب الخمرة. ففي حكاية «الملك الناصر وولاته الثلاثة»، يعترف والي القاهرة للملك الناصر بأن رجلين من رجال سلطته القضائية كانا ولعين بالخمرة، وما استطاع أن يضبطهما متلبّسين بالجرم، عندها احتال عليهما، وعندما ضبطهما عفا عنهما مقابل تقديمهما له رشوة مالية. على أنّ والي القاهرة لم يكن معنياً في الحكاية بمنع الناس من شرب الخمرة، لأنه كان هناك دكاكين «للخمارين»، كما تذكر الحكاية، بل كان همّه أن يضبط هذين الرجلين من رجال سلطته، حتى ينتقم منهما، من دون الآخرين، ويقدّمهما إلى القضاء.

وفي حكاية «النصراني لملك الصين» يرتحل بطل الحكاية، وهو شاب بغدادي، - لا يذكر الراوي اسماً لهذا الشاب - إلى القاهرة، وينزل في أحد الخانات بحي «بين القصرين»، ويبيع تجارته، ويمعن في ملذّات الطعام والشراب: «وأقمت أياماً كل يوم أفطر على قدح الشراب وأُحْضِر اللحم الضاني والحلويات». وعندما يتعرّف إلى إحدى السيدات القاهريات الثريات، فإنها تدعوه إلى منزلها، وهناك يغيبان في حمّى الشراب والجنس كل ليلة: «فقدّمت لنا الجواري الطعام والمدام فإذا هي حضرة كاملة فشربنا إلى نصف الليل ثم اضطجعنا، ونمنا فنمت معها إلى الصباح، فما رأيت عمري مثل هذه الليلة».

ونظراً لثراء القوم وبطرهم في القاهرة، وميلهم إلى اللذائذ والمتع، فإنّ حفلات شرابهم تكون عامرة بالطعام الفاخر. ويصف الرّاوي العشاء الذي أعدّه الشاب التاجر البغدادي، وأرسله إلى عشيقته القاهرية: «وجهّزت العشاء، فعملت جوزاً ولوزاً وتحتها أرز مفلفل، (...) وأخذت فاكهة ونقلاً ومشمشاً وأرسلتها». وإذا كانت عشيقة هذا الشاب (القاهرية) في إحدى صفاتها مخلّة بالعرف الاجتماعي باعتبارها هي الباحثة عن الرجال، الطالبة لهم، والفاعلة في علاقاتها الجنسيّة، لأنها هي التي تطلب من الشاب تحقيقها، وهي التي تبتزّه، لأنها تقبض منه بعد كل لقاء جسدي «خمسين ديناراً»، فإنها، وعندما يفتقر هذا الشاب ويصرف كل أمواله عليها، تبدي نبلاً عميقاً وأخلاقاً كريمة، إذ تعيد له كل أمواله، وتملّكه كل أموالها، وتتزوّجه حلالاً. يقول الشاب: «وأرسلت إلى الشهود فحضروا فقالت لهم اكتبوا كتابي على هذا الشاب واشهدوا أني قبضت المهر، فكتبوا كتابي عليها ثم قالت: اشهدوا أنّ جميع مالي الذي في هذا الصندوق وجميع ما عندي من المماليك والجواري لهذا الشاب فشهدوا عليها، وقبلت أنا التمليك وانصرفوا بعدما أخذوا الأجرة، ثم أخذتني من يدي وأوقفتني على خزانة وفتحت صندوقاً كبيراً،

لخراسان وبغداد والبصرة الصدارة في الليالي، وتأتي بعدها من حيث الأهمية القاهرة ودمشق، هاتان المدينتان المهمتان اللتان لعبتا أدواراً سياسيّة وتجارية مهمة في الدولة العربية الإسلامية

وقالت لي انظر هذا الذى في الصندوق، فنظرت فإذا هو ملآن مناديل، فقالت هذا مالك الذى أخذته منك (...) فخذ مالك فقد ردّه الله عليك».

إنّ هذا الملمح النبيل لصورة الأنثى في الليالي لا يتكرّر كثيراً، لأنّ الغالبية العظمى من نساء الليالي محتالات وداعرات، ومبتزّات لأموال الرجال، وهذا ما تثبته البنية الفكرية والأيديولوجية لمجمل الرّواة الذين أضفوا على نساء الليالي مزيداً من الدونية والمكر والخداع ونقص العقل.

ومن وجوه القاهرة في ألف ليلة وليلة: وجه الاحتيال واللصوصية، وهو الوجه الأبرز لهذه المدينة، فهناك المرأة المحتالة، وهناك الرجل المحتال، سواء أكان لصّاً أم فقيراً صعلوكاً، أم ملكاً كبيراً.

ومن لصوص القاهرة المحتالين، ما ذكره الراوى في حكاية « الملك الناصر وولاته الثلاثة»، فبينما كان والى بولاق يوماً من الأيام جالساً في داره مهموماً، من جرّاء دَين أصابه: « ثلاثمائة ألف دينار»، وإذا بمجموعة من اللصوص يطرقون بابه، ويقولون له: « إننا لصوص وغنمنا في هذه الليلة غنيمة عظيمة وجعلناها برسمك لتستعين بها على هذه القضية التى أنت مهموم بسببها وتسدّ بها الدّين الذى عليك». فما كان من الوالى إلاّ أنّ قدّر الموقف الذى عدّه كريماً من هؤلاء اللصوص، وأعطاهم المائة ألف دينار، التى كان قد ادّخرها لرد دينه، كما يذكر الراوى، معتبراً أنّ هذا المبلغ جزءاً من ثمن هذه الغنيمة التى ظنّ أنها كافية لردّ كل ديونه، إلاّ أنّ اللصوص لم يكونوا أصحاب مروءة، فهم مجرّد لصوص محترفين، ومحتالين مهرة، وتنطلى الحيلة على والى بولاق، ويفاجئنا راوى الحكاية بمكوّنات هذه الغنيمة، على لسان الوالى نفسه: « فلما أصبح الصباح رأيت ما في الصندوق نحاساً مطليّاً بالذّهب والقصدير يساوى كله خمسمائة درهم، فعظم علىّ ذلك وضاعت الدنانير التى كانت معى، وازددت غمّاً على غمّى».



ويبقى سرد الراوى لهذه الحكاية ليس بريئاً، و «ليست هناك حكايات بريئة» في ألف ليلة وليلة، فهذا الراوى يُدين بشكل غير مباشر سلوك والى بولاق المتعاطف مع الظلمة في مدينته من جهة، يشير من جهة أخرى إلى الجهل الذى تغرق فيه السلطة، فبدلاً من أن يقبض الوالى على هؤلاء اللصوص، ويردّ ما سرقوه إلى أصحابه، ويكشف ما في الصندوق قبل ذهابهم، فإنه يعطيهم مائة الألف دينار، ويتركهم يمضون « تحت الليل إلى حال سبيلهم، ولم يعلم بهم أحد».

وقد كان فقراء القاهرة في الليالي قادرين أيضاً، على حبك الحيلة في أعلى تقنياتها، فها هو معروف الإسكافى، بعد أن يهرب من القاهرة ويلجأ إلى «اختيان الختن »، يمارس الاحتيال ويدّعى أنه تاجر ثرى كبير، وأنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل بعد أيام إلى المدينة، ويصدّقه الناس، ويقرضونه « ستين ألف دينار»، ويوهم الناس بأنّ أمواله الكثيرة جداً القادمة مع الحملة قادرة على تبديد فقر المدينة، فيقوم بتوزيع المبلغ الذى اقترضه على فقراء المدينة، ومن ثمّ لتكون هذه الحيلة طريقاً إلى كسب ودّ الملك، فما كان من الملك إلاّ أن قرّبه، ورغبٍ في تزويجه ابنته الجميلة، ووفق النسق السحرىّ الذى يحكم بنية السرد والفضاءات المكانية، التى يرتحل إليها السرد، يضفى الراوى على سلوك معروف الإسكافى هالة من الثراء الأسطورى، فيبدأ بتشكيل حالات من التخيّل الكاذبة، تقوم بدورها في حبك حيلة جديدة على الملك وابنته، إذ يدّعى أنه سيقدّم لابنة الملك مهراً يليق بمكانتها السياسيّة والاجتماعيّة، يقول معروف الإسكافى: « لابدّ أن أدفع صداقها خمسة آلاف كيس، وأحتاج إلى ألف كيس أفرّقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة، وألف كيس أعطيها للذين يمشون في الزّفّة، وألف كيس أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم؟ وأحتاج إلى مائة جوهرة أعطيها للملكة صبيحة العرس، ومائة جوهرة أفرّقها على الجوارى والخدم، فأعطى كل واحدة جوهرة تعظيماً لمقام العروسة؟ وأحتاج إلى أن أكسو ألف عريان من الفقراء » .

إنّ هذا التخيّل السحرىّ الخارق، الذى يحلم به رجل إسكافى فقير، هو بنية تتكرر في غير حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، فعندما يجد هذا الفقير أنّ الواقع الذى يعايشه لا يحقق ما يصبو إليه، فإنه يتحايل على من حوله، ويضفى على حيلته تخيّلات لا تتحقّق إلاّ بالمصادفات الغرائبية السحريّة الموجودة في ألف ليلة وليلة، فـ« في النصوص العجائبية ـ وألف ليلة وليلة من أهمها ـ يروى المؤلف أحداثاً غير قابلة للوقوع في الحياة». وطالما أنّ الراوى الشعبى يعايش واقعاً أسود، ويتموضع في طبقة دونية مهمّشة منه، فإنه شكّل بطلاً شعبياً كمعروف الإسكافى، جعله يتجاوز هذه الطبقة الدونية وفق عمليات التخيّل، وصولاً إلى الطبقة العليا، والزواج بإحدى نسائها، وحمّل هذا البطل أحلامه الملغاة وأوهامه التى يستحيل أن تتحقق في واقعه الأسود، ففي الأدب الشعبى « سبق لأقدم الشعوب بحقّ أن حقّقت رغباتها في حكاياتها، وهى تلك الرغبات التى لم تظفر بتحقيقها قطّ في الحياة».

لقد كان « القصاصون العرب (في ألف ليلة وليلة) مدينين للمصريين بأعمال اللصوص الماكرة وبالحيل». وقد ظهرت معظم أشكال المكر والاحتيال في كل مدن ألف ليلة وليلة ـ العربية وغير العربية ـ وبخاصة في مدينتى القاهرة وبغداد، ولم تقتصر الحيلة على مذهب دون آخر، فهى عند المسلمين والمسيحيين واليهود والمجوس، وهم مواطنو مدن ألف ليلة وليلة. وقد تورّط فيها أهم ملوك مصر في الليالي، وهو الملك الناصر (أشهر سلاطين المماليك)، إذ احتال هذا الملك على وزيره، أبى عامر بن مروان، لكى يأخذ منه غلاماً جميلاً من غلمان النصارى كان قد أُهدى إليه، وبعد أن يأخذه حيلة، يشى أعداء أبى عامر عند الملك الناصر بأنّ « عنده من الغلام بقية حرارة وأنه لا يزال يلهج بذكره حين تحركه الشمول فيقرع السنّ على إهداء الغلام». وعندما سمع الملك الناصر هذه الوشاية قرر أن ينتقم من وزيره أبى عامر، بعد أن يحتال عليه ليكشف مدى إخلاصه وولائه له، بكتابة رسالة مزوّرة عن لسان الغلام، يطلب فيها من مولاه الوزير أن يتحايل في استدعائه من عند الملك، لأنه لا يطيق الصبر على مفارقته، وأنّه غير راغب بالبقاء في دار الناصر، لكن الوزير وبفطنته السياسيّة اكتشف أنّ هذه الرسالة ما هى إلاّ مكيدة من الملك لاكتشاف مدى إخلاصه، فأخذ رسالة الغلام، وكتب على ظهرها هذه الأبيات:

أمن بعد أحكام التجارب ينبغى
لذى الحزم أن يسعى إلى غابة الأسد
ولا أنا ممن يغلب الحبّ عقله
ولا جاهل ما يدّعيه أولو الحسد
فإن كنت روحى قد وهبتك طائعاً
وكيف تردّ الروح إن فارقت جسدى

ويتابع الراوى قائلاً: « فلما وقف الناصر على الجواب تعجّب من فطنته ولم يعد إلى استماع واشٍ فيه بعد ذلك».

وقد كان ملوك مدن الليالي، سواء أكانت عربيّة أم أجنبيّة، يستشيرون ويقرّبون أصحاب الحيل الأذكياء، وعندما يجدون أنفسهم عاجزين عن حلّ مشكلة معيّنة، فقد كانوا يأخذون بآرائهم، وبخاصة آراء العجائز الماكرات اللواتى يفقن رجال زمانهنّ مكراً ودهاءً وخبرةً معرفيّة. فعلى سبيل المثال نجد أنّ الملك أفريدون ملك القسطنطينية، عندما تهزمه الجيوش الإسلاميّة ـ جيوش الملك شركان حاكم دمشق، وأخيه ضوء المكان حاكم بغداد ـ يلجأ إلى العجوز شواهى ذات الدواهى (أم حليفه الملك حردوب)، لكى تخطط له كيف يحارب ويحتال على الجيوش الإسلاميّة، أى أنّ أصحاب الحيل والمكر والمكيدة ـ في الليالي ـ لم يكونوا يحتالون من أجل كسب العيش، أو إشباع شهواتهم الجنسيّة، أو من أجل الحصول على منصب يقرّبهم من السلطان فحسب، بل كانت لديهم معارفهم في خطط الحروب العسكرية، وكانت لهم نظرتهم الثاقبة، لما يجرى في مدنهم، وعلاقاتها الطبقيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وقد تعلّموا الحيلة وأتقنوها وتفننوا في حبكها.

إنّ القاهرة التى تبدو واقعية في الليالي تمتزج بكثير من اللوحات السحريّة، والتخيّليّة، التى أضفاها الرواة عليها، وهذه حال معظم مدن الليالي، فالمدينة الواقعيّة لا تتشكّل من فضاءاتها وعاداتها وملامحها التاريخيّة الواقعية فحسب، بل توغل بعيداً في السحر والخرافة إذا ما رأى الرّواة أنّ ثمّة ضرورة لهذا السحر، لأنّ الحدث الواقعى لا ينمو مكتفياً بذاته في مدن الليالي، بل يحتاج إلى حوافز سحريّة لاستكمال بنائه.

إن ما يميز حكايات ألف ليلة وليلة في طبقتها المصرية كما يرى أحد الدارسين، وجود عنصر المغامرات في بنية أحداثها «التى تعتمد المكر والحيلة من جانب والمنافسة السياسية الحادة من جانب آخر»

ويحفل الفضاء السحرىّ للقاهرة، في حكايات الليالي، بالجان وبأولاد ملوك الجان، ومن ملامح العوالم التخيّليّة والسحريّة التى تحتفى بالجان والعفاريت ما يسجّله الراوى في حكاية « معروف الإسكافى مع زوجته فاطمة العرّة»، فعندما يهرب معروف من شرّ زوجته وظلمها يجلس باكياً عند إحدى الدور الخربة المهجورة بحى العادلية، وإذا بحائط الدار ينشقّ، ويبرز منه مارد « طويل القامة رؤيته تقشعر منها الأبدان»، ويطلب منه أن يخبره بقصته حتى يساعده، وعندما يعرف قصّته مع زوجته يقول له: « أتريد أن أوصلك إلى بلاد لا تعرف لك زوجتك فيها طريقاً؟ قال له: نعم. قال: اركب فوق ظهرى، فركب وحمله وطار به بعد العشاء إلى طلوع الفجر، وأنزله على رأس جبل عالٍ». ولأنّ معروفاً الإسكافى يعيش في فضاء شعبى مصرى يؤمن بالسحر والقدرات الخارقة للجان والعفاريت، فإنّ الرّاوى ـ فيما بعد ـ يقدّم له كل الحوافز (الموتيفات) السحريّة التى تجعله غنياً في مدينة «اختيان الختن» الأسطورية، ثم ملكاً عليها، إذ يقدّم له كنزاً أسطورياً في طريق رجوعه من « اختيان الختن»، بعد أن هبطت عليه المواجع والأحزان. ويذكر الراوى أنه بينما كان عائداً شاهد رجلاً مسكيناً يحرث أرضه في إحدى القرى الصغيرة، فعرض عليه أن يساعده في الحراثة، ومن خلال حراثته وجد كنزاً كبيراً غاصّاً بالأموال والجواهر الثمينة.

إنّ الراوى الشعبى، وهو يقدّم هذا الكنز

الكبير لبطله معروف الإسكافى، لن يعرّضه لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق، وهو فى طريق عودته إلى «اختيان الختن»، بل سيقدّم له - حتى تصل الحكاية إلى ذروتها - حرّاساً لهذا الكنز، ولأنّ حراس هذا الكنز الكبير قد يعجزون عن الدفاع عنه، فيما إذا كانوا بشراً عاديين، فإنه وفقاً للنسق السحرىّ الغرائبى، سيقدّم له خاتماً سحرياً يخدمه مارد من الجان، وستسهم هذه الأداة السحريّة فى نمو الحكاية، لأنّها ستعيد معروفاً الإسكافى إلى مدينة « اختيان الختن» مكللاً بالمال والمنعة، ومن شأن هذه الأداة السحريّة أنّها تساعد البطل « فى النهاية على التخلص من سوء الطالع، ولكن قبل استلام الأداة السحريّة يصبح البطل عرضة لعدد مختلف من الأحداث التى تؤدّى كلها، على أية حال، إلى نتيجة حصوله على تلك الأداة». ولم تسهم هذه الأداة السحريّة فى تخليص معروف الإسكافى من سوء طالعه فحسب، بل قذفت به إلى أعلى المراتب الاجتماعيّة والسياسيّة وتوّجته ملكاً على «اختيان الختن»، بعد أن أثبت للناس جميعاً أنه صادق فى ترائه، وأثبت لوالد زوجته الملك أنه كفءٌ لابنته الجميلة.

ويتكرّر إسعاف البطل فى حكايات ألف ليلة وليلة المصرية بالأداة السحريّة التى تنقله من وضع طبقىّ دونى إلى وضع آخر متميّز، سلطوى وثرى، أو تزيل عنه همّاً أو ظلماً حلّ به، وبخاصة إذا كان هذا البطل من أفراد الطبقة الشعبيّة، فالراوى فى حكاية « جودر وأخويه» ، يجعل التاجر المغربى يقدّم لجودر - عندما لقيه فى الحجّ - خاتماً سحرياً، وذلك بعد أن كان أخواه سالم وسليم قد تآمرا عليه وباعاه إلى رئيس بحر السويس، ولهذا الخاتم خادم من الجان اسمه الرعد القاصف، يقوم بمساندة البطل، ويتكفّل بنقله إلى مصر، وهنا يمكن القول: إنّه لا غرابة - وفق المنطق السحرىّ العجائبى الذى يتحكم فى علاقات الأبطال وارتحالاتهم - فى أن ينقل العفريت - خادم الخاتم السحرىّ - جودر بن عمر من مكّة إلى مصر، لأنّ المعتقد الشعبى « يجعل للجان من القوى والسمات الفائقة ما يقدّمهم على الإنسان ذاته، فلا يعود الإنسان مركز المخلوقات، ولا هو الذى أمر الله الملائكة أن يسجدوا له ففعلوا إلاّ إبليس فقد أبى واستكبر، وإنّما هو أدنى قوة وأقلّ سلطاناً من الجان». وستسهم هذه الأداة السحريّة (الخاتم) فيما بعد، فى أن تقدّم لجودر أجمل امرأة فى المدينة، وهى الأميرة آسية بنت الملك شمس الدولة، وفى تتويجه ملكاً على مصر، بعد أن يموت ملكها شمس الدولة.

إذا كان الراوى فى بعض الحكايات المصرية لا يقدّم لأبطاله الفقراء الأداة السحريّة التى ستجعلهم يتجاوزون مدنهم ومواطنيهم مالاً وسلطة، فإنه لا يحرمهم من الكنوز الأسطورية التى تجعلهم فى مصافّ الملوك ثراءً. ويبقى تقديم هذه الكنوز لهؤلاء الأبطال المهانين اقتصادياً، نوعاً من التعويض والسمّو على الواقع الرثّ وتجاوزه بالاتكاء على الحلمىّ والتخيّلىّ الذى يحقّق الإنسان فيه كل ما يصبو إليه. « ففى المجتمع الذى لا تتاح فيه الحياة المنطلقة يهرب العامّة من مواجهة مشاكلهم ومنها مسألة الحصول على الثروة - إلى تخيّلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى ألقيت التعزيمة المناسبة». إلاّ أنّ الرّاوى، فى موضع آخر، قدّم الأداة السحريّة (خاتم شبيك لبيك) إلى البطل الشعبى جودر ابن التاجر عمر، لأنّ زمان الحكاية أسطورى تخيّلىّ، وملك مصر فى هذا الزمان هو ملك أسطورىّ، واسمه « شمس الدولة»، وهو غير معروف تاريخياً من بين الملوك الذين حكموا مصر فى الدولة الإسلاميّة.

ويُلاحظ أنّ الكنوز فى الحكايات المصرية مرصودة بأسماء أبطال مصريين محددين، ولا يمكن أن تفتح أبوابها إلاّ لهؤلاء الأبطال، وهاهو الحاكم بأمر الله يقول لوردان الجزّار: « إنّ هذا الكنز لا يقدر لأحد أن يفتحه غيرك، فإنه مرصود باسمك وصنعتك (...) وهو عندى مؤرّخ وكنت أنتظر وقوعه حتى وقع ».

إنّ فضاءات مصر فى حكاية « جودر ابن التاجر عمر » هى فضاءات سحريّة يسكنها ملوك الجان، ففى بركة « قارون» يسكن الجان أولاد الملك الأحمر الذين أتوا من فاس، وهذه البركة مرصودة أيضاً باسم الصياد «جودر»، إذ إنّ ملوك الجان الذين يعيشون على هيئة أسماك فى هذه البركة لا يُنتصر عليهم إلاّ بشخص جودر ابن التاجر عمر، باعتباره التعويذة القادرة على فكّ سحرهم، كما يؤكّد الساحر الكهين الأبطن للمغربى عبد الصمد: «فرأيت أن هذا الكنز لا يُفْتح إلاّ على وجه غلام من أبناء مصر اسمه جودر بن عمر، فإنه سيكون سبباً فى قبض أولاد الملك الأحمر وذلك الغلام يكون صياداً، والاجتماع به يكون على بركة قارون ولا ينفعك هذا الرصد إلاّ إذا كان جودر ».

هذه هى بعض ملامح مصر والقاهرة فى ألف ليلة وليلة، وإن غابت القاهرة فى معظم الأحيان تسميةً فى الليالى واستُبدلت بمصر، فإنها هى المعنيّة فى أغلب الحكايات، لأنّ الرّواة يذكرون أحياء حقيقية عرفتها القاهرة قديماً، ولا تزال هذه الأحياء تحتفظ بأسمائها حتى وقتنا الراهن، كما أُشير إلى ذلك سابقاً.

إنّ القاهرة مدينة السحر، وهى تحتلّ فى الأدب الشعبى مكانة مهمّة ومتميّزة، وهى «البلاد المليئة بالعجائب فحكاياتها الخرافية التى وصلت إلينا قد دُوّنت فى أسلوب فنى، وهى إلى ذلك تُعدّ ينبوعاً للتراث الشعبى والعقائد القديمة البالغة فى القدم، وما يزال بعض هذه الحكايات يعيش فى الحكايات الشعبية لدى كثير من الشعوب». ولا تزال فضاءات القاهرة الشعبية هى الفضاءات العربية الأولى - إذا ما استثنينا فضاءات مدن المغرب التى تضاهيها - المغلّفة بنكهة السحر والأساطير والحيل والتمائم والحُجُب، والأولياء الصالحين، والحشيش والجوزة (النارجيلة)، والمقاهى التى لا تزال تحتفظ بطعم حكايات ألف ليلة وليلة، والنساء اللواتى يقرأن الكفّ ويفتحن المندل، ويغامرن فى شعاب الحياة كما الرجال، بل ربما أكثر. ويبدو أنّ هذه المدينة الثّرية البطرة، التى تعاقبت عليها حضارات ومدنيّات وأمم كثيرة، كان لها حظّ وافر من الموسيقى والخمور والجوارى والملاهى والنساء، والاحتفالات بأعياد الفرح، وإقامة طقوس لهوها الخاصة، والمعارف والعلوم والطبّ والسحر وفنون الاحتيال.

وكما كانت حكايات مدينة القاهرة وغيرها من مدن ألف ليلة وليلة محكومة بثنائية الواقعىّ والتخيّلىّ، فإنّ حكايات القاهرة المعاصرة هى الأخرى لا تزال موشومة بكثير من الواقعيّة السحريّة والتخيّل الغرائبى.

وأحبّ أن أشير فى نهاية هذه الدراسة إلى أنّ القرآن الكريم لم يذكر أى بلد عربى باسمه فى كل آياته سوى مكّة ومصر.

وإذا كانت مصر فى الأدبيات الكلاسيكية وكتب الرحالة مثالاً للرخاء والرفاهية، والدولة العامرة بالحياة، والرافلة بالترّف، كما يذكر ابن خلدون نقلاً عمن تحدّث عنها: « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى فى عوائدهم ما يقضى منه العجب، حتى إنّ كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النُّقلة إلى مصر لذلك، لما يبلغهم من أنّ شأن الرّفه بمصر أعظم من غيرها»، فإنها لم تسلم من هجاء بعض الشعراء. ■

عصـــــر التناقضات





شـــوقى عـــقـــل

.. إن عالما بهذه الصورة الكئيبة المنطوية على مختلف ألوان التوحش والعنف والإفقار واللامساواة والقهر.. لا يمكن له أن يستمر طويلا. بهذه الكلمات ينهي الراحل رمزى زكى رؤيته لوضع العالم فى نهاية القرن العشرين ويودعه، ثم يودعنا بعد ذلك منذ ما يزيد على العام بقليل. وهو وضع كما قال كئيب قاس لا يسوده إلا الظلم والقهر والعنف. على أنه لا يساوره الشك فى أن هذه القسوة وهذا العنف لا بد أن يؤدى إلى إعادة تشكيل قوى الديمقراطية والتقدم المناهضة لعالم السوق الكونية بوجهها اللاإنسانى.

فما هو حال القرن العشرين ؟ إنه عصر انفراد الرأسمالية بالسيطرة على العالم، عصر التناقضات والأزمات الاقتصادية الحادة، عصر المضاربات، إنه ناد كبير للقمار. كما أنه عصر الديناصورات الاقتصادية الهائلة الحجم، وعصر التجمعات القارية الكبيرة. فمن ناحية نجد الولايات المتحدة وتوابعها (كندا والمكسيك)، ومن ناحية ثانية نجد المجموعة الأوروبية التى أعلنت وحدتها الاقتصادية والسياسية، ومن ناحية أخرى هناك الاقتصاد اليابانى وتوابعه فى جنوب شرق آسيا. وبالرغم من كونه ثانى أكبر اقتصاد فى العالم، إلا أنه يترنح تحت تأثير كساد طويل الأمد وديون مشكوك فى تحصيلها تبلغ حوالى ١,٥ تريلون دولار! وهناك الصين العملاق الأصفر الكبير ودوره المتوقع فى إدارة شئون العالم الذى مازال قيد المجهول. وفى الزوايا المظلمة تقبع دول العالم الثالث والأخير بلا قدرة أو فعل سوى انتظار قرارات الدائنين والمنظمات الاقتصادية الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدوليين، مكبلة بديونها التى بلغت ١٩٥٠ مليار دولار، ترقب عاجزة التدهور الكبير فى مداخيلها القومية نتيجة لتدهور أسعار المواد الخام ومواد الطاقة مثل البترول. وعوضا عن الوعود الجميلة التى قدمتها الليبرالية الحديثة لشعوب العالم، وبدلا من عالم الرفاه الموعود، فإن مزيدا من البطالة والأزمات والتوترات الاجتماعية والسياسية تجتاح العالم، وتنمو التنظيمات الفاشية والنازية والعنصرية أكثر فأكثر، وتسود عصابات الجريمة المنظمة وتتحكم فى عالم كامل مواز لعالمنا. وهى النتائج الحتمية لهذا العالم الوحشى الخاضع للرأسمالية الكونية.

يغطى الكتاب سنوات العقد الأخير من القرن العشرين، وهى نفسها سنوات العقد الأخير من حياة د. رمزى زكى. وهو يضم مجموعة من المقالات والدراسات حول العديد من القضايا الاقتصادية العالمية والمصرية، ورغم تعدد الموضوعات التى يتناولها عبر تلك الفترة الطويلة من الزمن مقاسة بعمر البشر، وعبر هذا الكم من المتغيرات الكبيرة التى حملتها تلك الفترة القصيرة مقاسة بعمر الأمم، إلا أن خيطا واحدا ينتظمها، وهو التأكيد المستمر على الجانب الاجتماعى والإنسانى لكل سياسة اقتصادية، وعلى العدالة فى توزيع الثروات، سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أو الأمم.

والتأكيد المستمر على الطبيعة الاجتماعية والإنسانية للعلوم أيا كانت، وتأثيرها على حياة البشر، خاصة مع علم كعلم الاقتصاد الذى لابد أن ينحاز لمصلحة جماعة على حساب جماعة أخرى، كان دائما الاختيار الأصعب للمفكرين الذين يحلمون، بالإضافة لعمق المعرفة وسبق الريادة، الحب العميق لوطنهم والأمل فى خلاصه من محنه.

فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، عالم الحرب الباردة وظهور المعسكر الاشتراكى، ظهرت دول الرفاه الاجتماعى فى المعسكر الرأسمالى، وحققت الطبقة العاملة والتكنوقراط والأنتليجنسيا فيه مكاسب اجتماعية وسياسية هائلة. تمثل ذلك فى حقوق ساعات العمل والتأمينات الاجتماعية والصحية والتقاعد ودعم المواد التموينية للفقراء ومحدودى الدخل، وتقديم الخدمات العامة بأسعار معقولة، كما تمثل فى ظهور منظمات العمل المدنى ذات القوة الكبيرة فى التأثير وتوجيه الرأى العام. كان ذلك ببساطة لأن الرأسمالية لم يعد لها الهيمنة المطلقة على العالم. وتزايد تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى طبقا للسياسة التى وضعها لورد كينز فى أعقاب الكساد العالمى الكبير فى ثلاثينيات القرن الماضى، ذلك التدخل الذى استهدف التوظيف الكامل للموارد والعمل والتحكم فى السوق والمنتجين لضمان الأمن الاجتماعى، أو ما يمكن إجماله باختصار بالمصالحة التاريخية بين العمل ورأس المال، تحت رعب تهديد وجود الاشتراكية وأنظمتها المسيطرة على ما يقارب نصف العالم. استند الاقتصاد العالمى فى العصر الذهبى لاستقراره على الأسس التى تم وضعها فى مؤتمر مدينة بريتون وودز الأمريكية فى صيف ١٩٤٤، ومن هذا المؤتمر ولدت المؤسسات التى قادت الاقتصاد الرأسمالى العالمى فى الفترة من ١٩٤٥ - ١٩٧٠، وهى الفترة التى شهدت ازدهارا اقتصاديا لامعا. هذه المؤسسات هى صندوق النقد الدولى، البنك الدولى، والاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة المعروفة اختصارا بالجات. كان الأساس القوى لاستقرار وثبات نظام النقد والاقتصاد العالمى هو اتخاذ الدولار الأمريكى كعملة دولية بسبب قابلية تحويله إلى ذهب، على أساس سعر صرف ثابت يبلغ ٣٥ دولارًا للأوقية! مع قيام الصندوق بتوفير السيولة اللازمة لأعضائه حين حدوث عجز مؤقت بالميزانية أو ميزان المدفوعات. ولكن مع تنامى قوة الليبراليين الجدد ودعوتهم للتحول نحو نظام تعويم العملات، رفعت الولايات المتحدة الغطاء الذهبى عن الدولار عام ١٩٧١، فانهار عصر ثبات سعر الصرف وانهار معه نظام النقد الدولى الذى تأسس فى ضوء اتفاقية بريتون وودز، وقفز سعر أوقية الذهب ليصل إلى ٨٥٠ دولارًا خلال ثمانى سنوات، ثم عاد ليتراوح ما بين الثلاثمائة والأربعمائة دولار فيما يلى ذلك، أى عشرة أضعاف سعره عند لحظة تركه للمضاربين. وانطلقت الشياطين وتشكلت ثروات هائلة من المضاربات على أسعار الصرف، واشتعلت حمى المضاربات العالمية، ولم يعد الاستثمار مجزيا فى قطاعات الإنتاج المادى (الصناعة والزراعة) مقارنة بمعدلات الأرباح فى المضاربات، وزادت البطالة وارتفعت إلى معدلات قياسية. وازداد تراكم الأموال دون فرص استثمار تقابله مما خلق فوائض هائلة من رءوس الأموال تهيم على وجهها، بحثا عن الأرباح دون حساب لما ستخلفه من دمار لاقتصاديات دول بأكملها. ونتج عن اندماج أسواق المال والنقد الدولية وسرعة الاتصال فيما بينها عبر شبكات الكمبيوتر انفلات السيطرة عليها. كان دخولها لبلد ما يعنى فقدان هذا البلد سيطرته على مستوى عرض النقود والأسعار، بينما خروجها المفاجئ منه يحدث ضغطا على سعر الصرف وعلى الاحتياطيات الدولية وميزان المدفوعات. وازدادت عناصر الخطر فى الاقتصاد العالمى بسبب التغيرات الفجائية فى أسعار الصرف والفوائد والمواد الأولية، ولم يعد التنبؤ ممكنا بمساراته، وتتالت الأزمات: أزمة المديونية الخارجية للبلاد النامية ١٩٨٢، الانهيار المفاجئ لبورصة الأوراق المالية فى نيويورك ١٩٨٦، أزمة النمور الآسيوية ١٩٧٧، أزمة كساد الاقتصاد اليابانى. فما هو حال مصر فى خضم هذه التغيرات العالمية والفوضى الكبيرة؟

فى وداع القرن العشرين.. تأملات اقتصادية فى هموم مصرية وعالمية.
دكتور: رمزى زكى
دار المستقبل العربى، ١٩٩٩، ٤٤٨ ص







تحت عنوان تأملات في هموم مصر الأساسية، يناقش د. رمزى زكى مشاكل مصر الاقتصادية، وهو حين يفعل ذلك لا يخفى انحيازه للفقراء الذين زاد فقرهم بتناقص نصيب أجورهم من الدخل القومى لمصر من ٤٨٪ عام ١٩٧٢ إلى ٢٧٪ عام ١٩٩٤. وهو يرى إمكانية مضاعفة دخل مصر القومى خلال عشر سنوات عبر سياسات اقتصادية يحدد لها هدفا أساسيا هو زيادة الناتج القومى من السلع والخدمات بمعدل سنوى قدره ٧,٢٪، وهذا بالطبع يتطلب تنفيذ العديد من المشروعات الإنتاجية. ويعنى ضرورة الوصول بمعدل الاستثمار السنوى إلى٢٨٪ من الناتج المحلى الإجمالى، ليعطى العائد المطلوب. فما هو المانع؟ إنها السياسة الانكماشية التى فرضها صندوق النقد والبنك الدوليان على مصر. وعلى العكس من تلك السياسات الانكماشية فإن المطلوب مجموعة من السياسات الحافزة على الاستثمار والنمو، منها: خفض معدلات الضغط الضريبى، وخفض سعر الفائدة، وزيادة الإنفاق العام الاستثمارى، وحماية الإنتاج المحلى وضبط بوابة التجارة الخارجية وزيادة التوظيف والأجور، أى زيادة نصيب العمل من الدخل القومى حتى تزداد قوى الطلب لتقضى على الركود بالسوق المصرية.

فى رؤاه لأزمات مصر الاقتصادية ورؤاه لحلولها، لا يخفى رمزى زكى إدراكه العميق لطبيعة التكوين الاجتماعى والسياسى الذى أفرز هذه المشكلات وقدرات هذا التكوين على حلها. فهو حين يضع الحلول اللازمة لمثل هذه الأزمات، لا يتجاوز قدرة الجسد المريض على تحمل العلاج، وبالأحرى تنفيذه والاستفادة منه، فيتجاوز بذلك عجز الناقد المتفرج إلى عمق المدرك لما يعانيه وطنه وحاجته لمعرفة الطريق. وحين يرفض بشدة الإعلان عن قابلية التحويل للجنيه المصرى كطلب صندوق النقد الدولى، فإنه يشير إلى حقيقتين:

الحقيقة الأولى: إن دولا من غرب أوروبا رفضت إطلاق حرية تحويل عملاتها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية قبل أن تصل باقتصادياتها إلى مرحلة التوازن الذى استطاعت معه أن تتواجد فى الاقتصاد العالمى من موقع القوة، والمثال هنا من دول غرب أوروبا، فلماذا كان علينا دائما أن نكون ملكيين أكثر من الملك!

الحقيقة الثانية: إن حالة الازدواجية النقدية -ما بين دولار وجنيه- فى مصر وما يقابلها من ازدواج سعر الفائدة، سيدفع رءوس الأموال الباحثة عن الأرباح السريعة فى السوق العالمية إلى الاستفادة من هذه الحالة الفريدة لتحقق أرباحا من غفلتنا، بالسحب من هنا والإيداع هناك والاستفادة من فرق سعر الفائدة! ولكنه لا يرفض إطلاق حرية التحويل، بل يحدد الشروط الواجب توافرها لتقدم مصر على هذه الخطوة ولا نندم بعدها كما جرت العادة.

من ناحية أخرى فإنه يحدد المشكلات الاقتصادية الأساسية التى تواجه مصر بأربع مشكلات (عويصة)، هى عجز الموازنة العامة والتضخم والبطالة والمديونية الخارجية. ينشأ عجز الموازنة العامة نتيجة لازدياد الإنفاق العام للدولة مع ضعف الإيرادات وتناقصها. هذا الإنفاق يشمل الأجور والمرتبات والدعم للسلع الشعبية الأساسية والتكاليف الاستثمارية للمشروعات الكبرى أو ما اصطلح عليه بالقومية، ويشمل كذلك كافة مصاريف الحكومة الجانبية من بدلات وانتقالات وعقد المؤتمرات.. إلخ. ويتم خفض هذا العجز طبقا لتوجهات الحكومة الاجتماعية: إما بإلقاء العبء على عاتق الفقراء بإلغاء الدعم للسلع الضرورية والطاقة وتجميد التوظيف، وبزيادة الضرائب العامة المباشرة وغير المباشرة، وإما عن طريق طبع البنكنوت وزيادة الائتمان المصرفى الممنوح للحكومة، وما يعنيه ذلك من ازدياد التضخم المحلى وارتفاع الأسعار مع ثبات الأجور، أى مزيد من إفقار الفقراء. وقد يتم تمويل هذا العجز بالاقتراض من الخارج، أى بزيادة المديونية الخارجية. ومن ناحية أخرى وبتوجه اجتماعى آخر يمكن القضاء على عجز الموازنة بخفض حاسم للإنفاق الحكومى فى مستويات الإدارة العليا ومنع البدلات واستحداث المناصب وخفض عقد المؤتمرات إلا الضرورى منها للوجود الفعال على ساحة العمل الدولى، وتمويل الإنفاق الحكومى من خلال تنفيذ مشروعات كبرى يحقق الاستثمار فيها عائدا حقيقيا ويخلق فرص عمل جديدة ويزيد من الناتج القومى العام، بالطبع مع الدراسة المتأنية لجدوى هذه المشاريع، يقوم بها متخصصون بعيدا عن تأثير القرار السياسى.

لجأت الحكومة لمواجهة عجز الميزانية وتحت ضغط صندوق النقد الدولى وبطلب منه، إلى طرح أذون الخزانة بدءا من يناير ١٩٩١، وبأسعار فائدة عالية لاجتذاب الفوائض المالية، مما أدى إلى نمو سريع فى حجم الدين العام الداخلى وصل فى ميزانية العام الحالى إلى ١٥٠ مليار جنيه، مما أدى إلى تزايد أعباء خدمته وأضعف الاستثمار فى قطاعات الإنتاج المادية، الصناعية أو الزراعية، حيث يفضل المستثمرون العائد المضمون المرتفع فى تلك السندات.

يشير د. رمزى زكى فى إيجاز شديد التركيز إلى الآثار الاقتصادية والاجتماعية المدمرة لمشكلة التضخم، وكل أثر من هذه الآثار كفيل أن يستدعى إلى ذاكرة أى منا العديد من الأمثلة التى نراها حولنا ونعايشها معايشة يومية، وهو إيجاز لا يدع معه مجالا لإيجاز آخر، ولنر ماذا يقول: (.. فالتضخم إذا انطلق من عقاله، واندفع بقوة عاما بعد الآخر، فإنه يؤدى إلى زيادة العجز فى ميزان المدفوعات لأنه يعرقل الصادرات ويشجع الواردات وينمى ظاهرة هروب رأس المال للخارج. كما أنه يؤثر على الاستثمار سلبا، لأنه يؤدى إلى استحالة حساب التكاليف المقدرة للمشروعات الاستثمارية والخطط الإنتاجية بسبب عدم استقرار قيمة النقود. وهو يشوه اتجاهات الاستثمار، حيث يفضل المستثمرون فى ظروف التضخم استثمار أموالهم فى المشروعات الخدمية ذات العائد السريع. إلى جانب تأثيره السلبى على الادخار، لأنه يخفض من مستوى الدخل الحقيقى ويرفع من الميل للاستهلاك وإلى سلبية سعر الفائدة الحقيقى. كما أنه يؤدى إلى زيادة العجز فى الموازنة العامة للدولة، لأنه يرفع من حجم الإنفاق العام فى الوقت الذى تنخفض فيه الإيرادات الحقيقية للدولة. وحينما تتدهور قيمة النقود فى غمار التضخم تظهر ظاهرة الدولرة Dollarization أى هروب الناس من العملة الوطنية واللجوء إلى العملات الأجنبية «كالدولار» الأكثر ثباتا فى قيمتها كمخزن للقيمة المدخرة. أما على المستوى الاجتماعى فآثاره جد خطيرة، لأنه يزيد من غنى الأغنياء ويزيد من فقر الفقراء. كما أنه ينمى ظاهرة الاقتصاد السرى «الرشوة والفساد الإدارى وعمليات التهريب والسوق السوداء.... إلخ» وأخيرا وليس آخرا، يؤدى التضخم إلى تدهور سعر الصرف للعملة الوطنية).

يتساءل رمزى زكى بعد ذلك كيف يمكننا أن نحد من التضخم دون اللجوء للسياسات الانكماشية والتى قد تنجح فى أن تخفض معدل التضخم السنوى، ولكن مقابل خلق حالة من الغلاء الشديد الذى يصعب على كثير من الفئات الاجتماعية التعامل معه، وهو ما يشكل الأغلبية الساحقة من المصريين. والحل يكمن فى معرفة سبب تفاقم هذه الأزمة، وهو توقف جهود التنمية واعتماد سياسة ليبرالية السوق.

تعد القدرة على مواجهة مشكلة البطالة فى مصر مؤشرا مهمًا على نجاح أى برنامج للإصلاح الاقتصادى، أو فشله فى حالة زيادتها. وهذا بطبيعة الحال لكونه يتوجه لحل المشاكل اليومية المباشرة للقطاع العريض من السكان. وإذا ما تم تطبيق هذا المقياس فى الواقع نجد أنه قد حدث نمو للبطالة فى مصر بمعدل متسارع نتيجة لتطبيق برامج التثبيت والتكيف الهيكلى ذات الطبيعة الانكماشية، والتى فرضها صندوق النقد الدولى.

ولا يوجد حصر دقيق أو حتى قريب من الدقة عن حجم البطالة السافرة فى مصر، رغم الأهمية الاجتماعية والسياسية والأمنية لهذه المشكلة، وتداعياتها الخطيرة المحتملة حال استفحالها وخروجها عن السيطرة. يشهد العالم منذ عقدين أو أكثر قليلا تزايدا فى أعداد العاطلين عن العمل، كنتيجة مباشرة للثورة العلمية والتكنولوجية، أو ما يعرف بالثورة الصناعية الثالثة. وإذ واكب كل تقدم علمى وصناعى للبشرية المزيد من تحسين ظروف العمل والحياة، إلا أن هذه الثورة بما قدمته من تطور تقنى عال وإحلال الآلة محل الإنسان، وإدماج الوظائف، واندماج الشركات لتوفير الوظائف، أدت إلى بطالة واسعة النطاق، فى نفس اللحظة التى نمت فيها معدلات الإنتاجية، وبالتالى حجم ومعدلات الأرباح. ولنر الأرقام: شركة United States Steel وهى أكبر شركة لإنتاج الصلب فى الولايات المتحدة كان يعمل بها ١٢٠ ألف عامل عام ١٩٨٠، انخفض عددهم إلى ٢٠ ألف عامل فقط عام ١٩٩٠، مع بقاء نفس القدر من المنتجات الذى كان ينتج عام ١٩٨٠!! ألغت جنرال موتورز ٢٥٠ ألف وظيفة خلال الفترة من ١٩٧٨ إلى ١٩٩٣

... تشير الدراسات إلى أن عملية

يشير رمزى زكى فى تنبؤ مبكر (كتب هذه الدراسة فى نهاية ١٩٩٤) إلى احتمال أن تفقد مصر احتياطياتها بسرعة فى أوجه لا نفع منها مثل تسديد ديوننا الخارجية المترتبة على عجز ميزان المدفوعات بعد فتح باب الاستيراد على مصراعيه دون قيود، وهذا ما حدث بالفعل!





إعادة هندسة الوظائف ستؤدى إلى إمكانية القضاء على ٢٥ مليون وظيفة من وظائف القطاع الخاص الأمريكي من أصل ٩٠ مليون عامل، أى ما نسبته ٢٨٪ من إجمالى عمالة القطاع الخاص فى المجتمع الأمريكي بأكمله!

وبالرغم من كون مشكلة البطالة مشكلة عالمية، إلا أن طبيعة المشكلة فى مصر تأخذ أبعادا لها نتائج اجتماعية وسياسية خطيرة، حيث نمت الجريمة والتطرف والعنف فى المجتمع المصرى فى الأونة الأخيرة وبمستوى لا سابق له. والعمل فى مصر هو المصدر الوحيد للحصول على دخل، والبطالة تعنى مباشرة الجوع والتشرد، ولا يمكن مقارنة المجتمعات التى تطبق نظم إعانة البطالة وغيرها من الضمانات الاجتماعية بحالة المجتمع المصرى.

يعتبر رمزى زكى أن جزءا كبيرا من أزمة مصر الاقتصادية يرجع إلى الديون الخارجية. ويرى أن صناع القرار فى بداية لجوئهم للاقتراض الخارجي كان لديهم اعتقاد خاطئ؛ فحواه أنه من الممكن تحقيق التنمية وزيادة مستوى المعيشة بالاعتماد المتزايد على الديون الخارجية. وغاب عنهم أن الاقتراض بالأمس يعنى ضرورة السداد اليوم، وأن الاقتراض اليوم يعنى ضرورة السداد غدا. وهذا ما حدث حين حل السداد وضغط الدائنون وتدخل صندوق النقد واضعا شروطه التى سبق الإشارة إليها ولم تجد الحكومة بدا من الانصياع لها.

ولتجنب احتمال تجدد مديونيتنا فى المستقبل، فإنه من الضرورى وضع ضوابط لتجارة الاستيراد، وهو الأمر الذى لابد سيحدث - أى تجدد مديونيتنا - حينما تزيد وارادتنا عن صادراتنا، مما سيزيد العجز فى ميزاننا التجارى، مما سيؤدى للاستدانة لتمويل هذا العجز، وهو الشيء نفسه الذى حدث من قبل وتسبب فى أزمة ديوننا الخارجية.

فى استعراضه لمشاكل مصر الاقتصادية يتطرق د. رمزى إلى موضوع احتياطيات مصر الدولية، ويشير بادئ بدء إلى أنها تشكلت عبر فترة زمنية قصيرة، إذ قفزت من ٢ مليار دولار عام ١٩٩٠ إلى حوالى ١٨ مليار دولار عام ١٩٩٤ وذلك بتوفر ظروف وعوامل، منها تخفيض وإلغاء جزء من ديون مصر من قبل كل من الولايات المتحدة ودول الخليج بعد حرب الخليج نتيجة للموقف السياسى لمصر، مما أدى إلى وفر كبير فى مبالغ خدمة هذه الديون التى بلغت حوالى ٤ مليارات دولار. ومنها تحويلات المصريين العاملين بالخارج وكذلك الوفر الذى حدث للدولار نتيجة الانكماش الاقتصادى بعد وضع الاتفاقات مع صندوق النقد والبنك الدوليين موضع التنفيذ، إضافة إلى مداخيل السياحة قبل أن يضربها الإرهاب. وواضح أن هذا النمو لم يات كما هو مفترض نتيجة لعلاقة موجبة بين نمو الاحتياطيات الدولية من ناحية وبين نمو الدخل والصادرات من ناحية أخرى. بل على العكس تماما، حدث هذا النمو فى ظل انكماش وركود اقتصادى وخفض شديد فى مستوى معيشة المصريين، وفى ظل بطالة وسوء أحوال معيشية. إنها تكلفة اجتماعية عالية دفعت ليتم تكوين هذه الاحتياطيات. ويشير رمزى زكى فى تنبؤ مبكر (كتب هذه الدراسة فى نهاية ١٩٩٤) إلى احتمال أن تفقد مصر احتياطياتها بسرعة فى أوجه لا نفع منها مثل تسديد ديوننا الخارجية المترتبة على عجز ميزان المدفوعات بعد فتح باب الاستيراد على مصراعيه دون قيود، وهذا ما حدث بالفعل!

كثيرة هى التحذيرات التى أطلقها د. رمزى زكى قبل أن يرحل عنا، حذر من تزايد عجز الموازنة العامة نتيجة الإفراط فى اللجوء لأذون الخزانة والقروض المحلية، وقد حدث. حذر من إطلاق حرية الاستيراد دون رابط أو تنظيم لئلا يختل ميزان التجارة الخارجية فى سبيل استيراد سلع لا ضرورة لها، وقد حدث. حذر من تزايد البطالة وأثرها المدمر على المجتمع، وحذر من التضخم وآثاره الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة، وقد حدث. إبان حياته حدث كثير مما كان يحذر منه، لكنه لم يكن ليقف ويشير ويقول: قلت لكم. كان همه دائما أن يجد حلولا لأزمة مستجدة سبق وحذر منها دون أن يكل ودون استجابة حتى تقع، فالوطن - لا المتسبب - هو الخاسر دائما. ولكنه فى لحظة عابرة ضئيلة، وفى خضم معركته، وقف قليلا والتفت إلى الخلف، إلى جهده وجهد محبين آخرين للوطن، ليجد أن لا شيء مما دعا ودعوا إليه تحقق، وكانت الآمال الكبار تملأ نفسه، ثم تبين، للأسف - يقول رمزى زكى - أنه كان حرثا فى البحر، لكنه ألقى تساؤله ومضى مواصلا الطريق، وقدم فيما تلى من سنوات عمره العديد من الكتب والدراسات لأوضاع عالم اليوم، شارحا ومحللا وكاشفا طبيعته القاسية الوحشية. يقول رمزى زكى فى نهاية القرن الذى كان يودعه:.... لا يساورنى الشك فى أنه ستنمو فى خضم هذا العالم الكئيب القوى الخيرة الحية التى ستناضل من أجل إزالة كل أشكال الكآبة والإفقار والاغتراب والقهر لإنسان القرن الحادى والعشرين، وإلا فإن ذلك القرن سينطوى على كارثة مهولة للبشرية. ■

عـــروض موجـــزة

كتب عربية

الامبراطورية الأمريكية (الجزء الثانى)

مجموعة من الباحثين

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١، ٤٤٦ صفحة



ينطلق هذا الكتاب - كما جاء فى تقديمه - من أن معرفتنا بأمريكا القوة العظمى فى عالم أحادى القطبية، هى قوة لنا فى التعامل معها، ويتضمن عدداً من الدراسات كتبها مختصون ينطلقون من خلفيات أيدلوجية متباينة تبحث العلاقات الأمريكية العربية والسياسة الخارجية الأمريكية وانحيازها الدائم لإسرائيل وعلاقتها بالاتحاد السوفيتى والإسلام فى أمريكا، والمسيحية الصهيونية الأمريكية، أما قائمة المشاركين فتضم روجيه جارودى ومراد هوفمان ونعوم تشومسكى ورضا هلال وعادل المعلم وحسن وجيه وسهير جبر وآخرين.

وقد أضيفت إلى الدراسات السابقة دراسة كتبها الدكتور ماهر حتحوت فى أعقاب أزمة الثلاثاء الأسود ١١ سبتمبر الماضى، وفيها يحاول الدكتور حتحوت الاقتراب أكثر من الواقع الأمريكى الذى عاش فيه أكثر من ثلاثين عاماً، وهو يحذر المتعاملين مع أمريكا فى البداية من التعميم أو التعامل مع أمريكا بوصفها كتلة واحدة متناسقة، فأمريكا كما يعرفها أمريكات كثيرة متعددة بل وأحياناً متناقضة، ويميز فى هذا السياق بين أمريكا صانعة القرار، بما تتغذى به من معلومات وما تتأثر به من ضغوط وما تخدمه من مصالح، وهى ليست بالضرورة مصالح الأمريكيين بشكل عام، وهناك أمريكا المؤسسة العلمية، ثم أمريكا امبراطورية الإعلام، وأمريكا المؤسسة الدينية وعلى رأسها الكنائس البروتستانتية، ثم أمريكا الشارع والذى ينطوى على قدر كبير من التعددية فى الأعراف والألوان والأديان والثقافات والأذواق والصراعات الدائمة بين جماعات الضغط، وأقواها جماعات الضغط الصهيونية بما تملكه من تأثير.

ويتساءل الدكتور حتحوت عن موقع المسلمين داخل هذه التعددية التى تشبه الوان الطيف، ويجيب بأن المسلمين أنفسهم ليسوا كتلة واحدة، إنما هم تعددية داخل هذه التعددية، ويتتبع أسباب هجرتهم من بلادهم الأصلية إلى أمريكا وتفاوت قدراتهم على التكيف مع واقعهم الجديد. ويلفت النظر إلى فكرة «الشخصية الإسلامية الأمريكية»، وهى الفكرة التى بلغت نضجها فى تجربة المركز الاسلامى لجنوب كاليفورنيا، والتى تؤصل لمستقبل الإسلام فى أمريكا حتى يستطيع المسلمون التواصل مع مكونات المركب الأمريكى المتشعب بما يفيد أحفادهم الذين لم يعرفوا غير أمريكا وطناً، بما لا ينتقص من جوهر الاسلام وأصوله فيحرم حلالاً أو يحل حراماً، وبما يضمن تواصل هؤلاء المسلمين الأمريكان مع أمة الإسلام ومع الإنسانية فى عمومها، ويقدم نموذجاً لكيفية التعاطى مع قضايا خلافية داخل المجتمع الأمريكى، ومنها الموقف من إسرائيل مثلاً، ويؤكد أن العمل لتحقيق العدالة فى فلسطين ينبغى أن يكون عملاً وطنياً أمريكيا برفض إهدار أموال دافعى الضرائب لتدعيم العدوان ويطالب بعدم مخالفة القانون الأمريكى بشأن المساعدات العسكرية الخارجية التى ينبغى أن توجه للدفاع وليس للعدوان وهو مالا ينطبق على الحالة الإسرائيلية.

ومن موقع مراقب ومعايش للأحداث فى أعقاب سبتمبر الأسود يؤكد المؤلف أنه برغم كل ما قيل ويقال حتى هذه اللحظة التى يعميها الغضب والتعصب وشهوة الانتقام، فإن هناك فرصة نادرة لوصول الإسلام إلى عقول الناس وقلوبهم. «وتمكين الوجود الإسلامى كمكون أصيل وهاد فى قلب التعددية الأمريكية، قد يشارك فى صنع القرار بما يؤثر على تعامل أمريكا مع العرب والمسلمين فى العالم».

وهى فرصة لن تتحقق من تلقائها، فبانتظارها عمل منظم دءوب ومواجهة للوبى يهودى قوى أقام حياته على تفعيل العقل الأمريكى وتطويعه فى اتجاه واحد، وهذا هو تحدى المسلمين والعرب الحقيقى.

□ □ □

من أوراق نهاية القرن

فاروق عبدالقادر

القاهرة: الدار الثقافية للنشر ٢٠٠١، ٥٠٢ صفحات



المطالعات التى يقدمها لنا المؤلف عبر صفحات الكتاب تتسع للإبداع العربى على اختلاف أشكاله. والوجوه التى تطل منها هى خلاصة هذا الإبداع وواجهته، والملاحظة الأساسية أن الناقد هنا، كما فى كل أعماله السابقة، لا يكتفى بإصدار وحيد للمبدع محل الدراسة، وإنما يتابع مشروعه الروائى كله، كاشفاً عن تطوراته صعوداً أو هبوطاً، وتحولاته فى الفكر والتوجه، كما يحلل فى السياق ذاته التحولات المجتمعية وتأثيراتها على مسيرته.

وبهذه الصيغة الاستقصائية التأملية، يشير إلى تراجعات الروائى الجزائرى الطاهر وطار - بحسب تعبير المؤلف - فى العقدين الأخيرين، فالروائى الذى بدأ ثورياً ومتحمساً للنضال التحررى فى مواجهة المستعمر فى عمله الفذ «اللاز»، الذى يعتبره الناقد رواية الثورة الجزائرية بامتياز، بدا نكوصياً ومرتبكاً فى عمليه الأخيرين «الشمعة والدهاليز» ثم «الولى الطاهر يعود إلى مقامه الزكى» والذى يرى الناقد فيهما ارتداداً على ماضيه.. «إنها أعمال مراوغة حمالة أوجه، يريد صاحبها أن يقول ولا يقول، يريد أن يرضى الشيطان والرحمن. طبيعى إذن أن تتشابك خطاه وأن يتعثر بين التخفى والمكاشفة».

على الجانب الآخر تكشف متابعته للمشروع القصصى والروائى للمبدع العراقى فؤاد التكرلى عن تميز وولاء نادر لقضاياه ذاتها. وهو يعتبر روايته «الرجع البعيد» (١٩٨٠) واحدة من أهم إنجازات الرواية العربية، ومنها يبدأ الولوج إلى العالم القصصى للمؤلف. وفى هذه الرواية يخلق المؤلف عالماً كاملاً يضج بالحركة والحياة وبطلها نموذج «لطراز سائد من الحزبيين الذين يغتصبون الناس والسلطة ويخترقون حاجز المحارم وأية حواجز أخرى»، وهذا النمط المتكرر يقاسى من شروره بطل رواية التكرلى الأخيرة «المسرات والأوجاع»، وبينهما عدد من القصص القصيرة «موعد النار» و«الصخرة والطوف»، وإجمالاً، فإن الناقد يرى فى أعمال التكرلى أصداء الواقع العراقى منذ الخمسينيات وحتى الثمانينيات، وتكشف متابعة عبدالقادر لملحمة عبدالرحمن منيف «أرض السواد» عن منهجه الذى يستعين بالدراسات التاريخية والنفسانية والاجتماعية وغيرها لتحليل عمل المبدع، وهو قبل أن يؤلف الملحمة يعرض نقارئه السياق التاريخى الذى دارت فيه فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، مستعيناً بدراسة مستفيضة للشخصية الرئيسية للملحمة وهى داود باشا والى بغداد الشهير المتوفى فى عام ١٨٥٠، ويعود الناقد إلى عديد من المراجع التاريخية التى تضىء صفحات من ماضى العراق المشرق دون أن تغيب أبداً دلالتها فى الحاضر، سيبقى العراق دائماً محط المطامع والتآمر وستتحالف ضده القوى الراغبة فى محاصرته واستنزافه (...) ومهما خاض العراق من أهوال، فإن فى نهاية النفق ضوءاً، ومن ضفاف العناء والعذاب يشرق الأمل».

المتابعات تمتد لتشمل أسماء مثلث علامات فارقة فى مسيرة الإبداع العربى، بينها محمود دياب ذلك المسرحى والقاص المصرى الذى ظلم حياً وميتاً بعدما حاصرته السلطة السياسية وأجبرته على الانزواء ولم يجد سوى فى خيار الموت راحة مما عانى، وإطلالة على مجموعتين قصصيتين للمبدع السورى المتميز زكريا تامر وقراءة فى ثلاثية الروائى السورى خيرى الذهبى «التحولات»، وقراءة لآخر أعمال نجيب محفوظ القصصية، ودراسة مهمة عن الرواية الفلسطينية من المنفى إلى الانتفاضة ومتابعة لإبداعات حيدر حيدر والطيب الصالح وصنع الله إبراهيم وأسامة أنور عكاشة ومحمد شكرى وهناء عطية وفتحى غانم وسناء المصرى ومحمد المخزنجى.. وقراءة لمذكرات الدكتور عبدالرحمن بدوى والدكتور رفعت السعيد وتجربة سهى بشارة فى معتقل الخيام الإسرائيلى ومعاناة مليكة أوفقير فى سجون الملك محمد الخامس، وغيرها من الموضوعات.

□ □ □

صبحى شفيق.. الناقد الفنان

إعداد وتقديم: سمير فريد

القاهرة: صندوق التنمية الثقافية، ٢٠٠١، ٢٤١ صفحة



يأتى هذا الكتاب تحية إلى الناقد صبحى شفيق فى مناسبة بلوغه السبعين، وهو يجمع عشرات المقالات التى كتبها صبحى شفيق فى سنوات الستينيات وهى مقالات نقدية تتناول أعمالاً سينمائية مصرية وعالمية نشرت فى جرائد ودوريات عديدة.

ويمثل صبحى شفيق كما يقول المؤلف نقطة تحول من نقد جيل الخمسينيات إلى نقد جيل الستينيات والأجيال اللاحقة، وشارك فى تأسيس جماعة السينما الجديدة عام ١٩٦٨ والتى صدرت عنها مجلة السينما وهى أول مجلة متخصصة فى السينما، وفيها واصل صبحى شفيق دوره الطليعى فى النقد السينمائى ونشر الدراسات المميزة، ثم شارك بعد ذلك فى تأسيس جمعية نقاد السينما عام ١٩٧٢، قبل أن يسافر إلى فرنسا ويعيش فى باريس أكثر من ١٥ عاماً.

وإلى جانب اهتماماته النقدية، أخرج صبحى شفيق أفلامًا تسجيلية كان أولها عام ١٩٦٩، ثم أخرج فيلمًا طويلاً هو التلاقى عام ١٩٧٢، ظل ممنوعًا من العرض حتى عام ١٩٧٧، وكان سبب منعه أنه كشف عن الفساد والانحراف فى

عـــــروض مـــوجـــزة

أجهزة الدولة وأكد رغبة الشعب في الإصلاح والتغيير.

يبدأ الكتاب بحوار مع صبحي شفيق يرسم ملامح فكره وعطائه على مدى أكثر من نصف قرن، ويشير إلى تأثير كتاب وأدباء هذه المرحلة على تفكيره، يقول شفيق في نهاية حواره.. «لقد قضيت حياتي أحاول الإجابة عن عشرات الأسئلة، بعض الإجابات كانت نظرية وبعضها كان تطبيقيًا، ولكن لاتزال الأسئلة كثيرة والإجابات مفتوحة.. حياة أي منا ليست حياة الأشخاص وإنما هي جزء لا يتجزأ من جهودنا مجتمعة لاستعادة هويتنا الثقافية». وأما الأفلام المصرية التي اختارها سمير فريد من نقد وتحليل صبحي شفيق فهي دنيا، وبدون كلام، و٣ قصص، ورسالة من امرأة مجهولة، والمعجزة، وعلى ضفاف النيل، والناصر صلاح الدين، وثمن الحرية، والطريق والبوسطجي. ومن الأفلام الأجنبية ألكترا، واشتريت أبًا، وهاملت، والطيور، و٩ أيام في عام، وصانعة المعجزات، والحياة للحياة، فضلاً عن دراسات عن الموجة الجديدة في السينما الفرنسية، والسينما المصرية الجديدة.

□ □ □

القاهرة.. نسيج الناس في المكان والزمان

محمد رياض

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢١٠ صفحات



تعيش القاهرة حالة فوضى شاملة، جعلت كثيرين ممن عاشوا فيها وأحبوها حتى سبعينيات القرن المنقضي يتحسرون على أيام كان الجو فيها أجمل والحياة أنعم والتلوث والزحام أقل مما هما عليه الآن.

يبدأ المؤلف برصد لجغرافيا القاهرة منذ إنشائها قبل ألف عام وحتى اليوم، والخلاصة التي يقدمها مذهلة، فقد ظلت القاهرة تنمو طوال هذه الأعوام الألف داخل منسوب ٢٠ مترًا في الغرب و٣٠ مترًا في الشرق، واستمر ذلك حتى عصر الخديو إسماعيل حينما بنيت القاهرة الحديثة.

وفي أوائل القرن العشرين جاءت التجربة الثانية في الارتفاع إلى مناسيب أعلى حين بنيت مصر الجديدة، وبعد ستة عقود كانت التجربة الثالثة بناء مدينة نصر، وفي مقابل هذه التجارب الناجحة نسبيًا، ثمة تجارب أخرى، أثرت سلبيًا في نمو المدينة، منها النمو الطفيلي العشوائي لمنشية ناصر والدويقة، وكذلك النمو العشوائي للبساتين ودار السلام، جرى ذلك كله مع تضاعف سكان القاهرة بشكل متزايد حتى قاربوا ١٢ مليون نسمة، وصارت القاهرة من أكثر عواصم العالم كثافة.

المؤلف يتابع النمو التضخمي لأحياء القاهرة القديمة والحديثة، واستمرار النتوءات العشوائية على الأطراف بل وفي قلب العاصمة ذاتها، التي باتت بؤرًا للإجرام والانحراف تهدد العاصمة ذاتها، وإلى جانب ضياع السمات العمرانية المميزة للقاهرة وفقدانها لعناصرها الجمالية، فإن الهجرة المستمرة من الريف والصعيد إلى العاصمة أوجد ما اصطلح علماء الاجتماع والتخطيط العمراني على تسميته بظاهرة «ترييف المدينة» بما تنطوي عليه من آثار مدمرة اجتماعيًا ونفسيًا واقتصاديًا.

ويلاحظ المؤلف عبر تتبع تاريخي للقاهرة عبر العصور أن نموها لم يكن يسير مطردًا بل كانت هناك فترات توقف عن النمو لأسباب مختلفة منها تدهور الأوضاع السياسية وفقدان الأمن الداخلي والتردي الاقتصادي والصحي بما حمله من كثرة المجاعات وانتشار الأوبئة وغيرها من الأسباب.

ويتابع التركيبة الديموجرافية لسكان القاهرة ويلاحظ أن مصر عمومًا من الدول التي تزيد فيها نسبة الذكورة، كما يلاحظ أن قاعدة الهرم الديموجرافي المتكونة من صغار السن آخذة في الانكماش، وأن نسبة العاطلين إلى قوة العمل الفعلية تتجاوز ٧٣٪.

ويحذر في ضوء أرقام ومؤشرات عديدة يوردها عن انفجار وشيك بسبب المدن الجديدة التي أحاطت بالعاصمة وزادت أعباؤها ومشاكلها المرورية والاقتصادية، ويقدم في النهاية رؤية شاملة لحل مشكلات القاهرة منها نقل العاصمة السياسية وتقسيم القاهرة الكبرى إلى عدة محافظات وتوزيع الوزارات والإدارات الخدمية على محافظات قريبة.

ويقدم وصفة من ثلاث نقاط هي: تناغم بين السلطات المحلية للأحياء وأجهزة الوزارات لتنفيذ مشروعات التحسين، والكف عن إنشاء مدن جديدة، وأن تصبح العاصمة منتجة لا عالة على المحافظات المجاورة.

هذا الكتاب قصيدة حب للقاهرة، بأسلوب علمي هدفه تجميل الصورة التي باتت ملطخة ومتنافرة ومليئة بالندوب.

□ □ □

أجمل الحكايات الشعبية للأطفال

إعداد يعقوب الشاروني

رسوم حلمي التوني



كيف يمكن للحكاية أن تصبح شعبية ومتداولة من جيل إلى آخر؟ من أين تكتسب الحكاية سطوتها وتأثيرها النافذ، وما الذي يمنحها الاستقرار في الوعي الجمعي لأمة ما، لقرون عديدة؟ وهل ثمة خطوط تماس بين الديني والمحكي والميثولوجي تذيب الفواصل - أو تكاد - بينهم، وتجعل البحث عن مرجعية أشبه بحديث البيضة والدجاجة، أيهما أسبق؟

هذه الحكايات الشعبية تحيلنا من جديد إلى الأسئلة ذاتها، وتثبت - من جديد أيضًا - استحالة الإجابة.

جميل وجميلة

فالخيال الذي صاغ قصة جميل وجميلة لم ينفلت من روعة قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وجميلة هنا هي الفتاة الأكثر جمالاً بين فتيات مدينتها مما يدفع بعضهن إلى الكيد لها واستئذان الأم في اصطحابها للهو، وحين ينفردن بها يمارسن غواية الشر ويظهرن حقيقة مشاعرهن تجاهها، وهو أمر لاتنتبه إليه جميلة إلا بعد أن تفقد حليها التي تلقيها في البئر برغبتها، استجابة لمقولات رفيقاتها الشريرات اللائي تركنها فريسة لغول مرعب برغمها على الإقامة معه إلى أن يخلصها فارسها الجميل «جميل» من براثنه.

هكذا يبدو «العظم» الأساسي للقصة شبيها بقصة سيدنا يوسف وبقيتها من خيال يداعب ميل المغامرة والتحدي والانتصار للخير والطيبة عند الناس.

بلح الشاطر

وفي «بلح الشاطر حسن» يجذبنا - كالعادة في مثل تلك الحكايات - الصراع الأبدي بين الخير والشر، والأول يمثله بالطبع الشاطر حسن بكل براءته وذكائه وشجاعته، ولأنه كذلك، فإن أباه يمنحه البساط السحري الذي يمكنه من اختصار المسافات والتحليق في الآفاق والنفاذ حتى إلى غرفة نوم الأميرة - التي بدت هنا شريرة تحيل خُطّابها إلى تماثيل حجرية - كما يدله رجل طيب على نخلتين تحيلان حياته إلى نعيم وتمكنانه من الانتصار على الأميرة الشريرة وإعادة «مساخيطها» إلى صورهم الإنسانية التي كانوا عليها، وما أن فعل حتى ركب بساطه وانطلق بحثًا عن مغامرة جديدة.

هدايا فيروز

وتطالعنا في «هدايا فيروز» التيمات المستقرة ذاتها في الحكي الشعبي حيث الصراع بين الطيبة والشر، وعطايا القدر للطيبين الذين يمثلهم هنا شعبان بائع الملح وابنته الجميلة فيروز التي لطيبتها وحسن خلقها تتزوج الأمير الذي يمنح أباها حمارا يتساقط من فمه الذهب ومطحنة تعد له في غمضة عين ما تشتهي نفسه من الطعام، وحين يسرقهما أحد الأشرار فإن «العصا السحرية» تعيدهما إليه بعد أن تؤدب الشرير وتلقنه درسًا لا ينساه.

ويدور الصراع في البئر العجيبة بين أختين، إحداهما مطيعة نشيطة مبتسمة، والأخرى كئيبة كسولة ناقمة، وجزاء رقتها ووداعتها فإن الأقدار تسوق إلى الأولى سيدة عجوزا تزيد حياتها صفاءً وجمالها نصاعة وألقا، وهو عكس المصير الذي تلقاه أختها العبوسة الكسولة.

عصفور وجرادة

وأما في «عصفور وجرادة» و«الأمير الجبان» فنحن أمام تيمتين مهمتين يصوغهما الحكي الشعبي ببراعة وخفة، إذ يؤكد في الأولى على كذب المنجمين حتى لو صادفهم حظ سعيد، كذاك الذي أحال عصفورًا من إسكافي بسيط إلى منجّم السلطانة إلى أن افتضح أمره، وفي الثانية فإن الأمير الذي هرب دومًا من الحروب ومواجهة الأعداء، اكتشف لذة الشجاعة وقدراته المخبوءة على القتال والمقاومة حين أجبر على مواجهة الأعداء بفضل شجاعة زوجته الأميرة.

الحكي هنا كما نرى يستقي من مصادر عديدة وثقافات أمم مختلفة، وفي كل الأحوال فإنه يتبنى القيم الجميلة ذاتها، وينتصر للحق والخير والجمال، ولكن أحدًا من هؤلاء الطيبين لا يحصد جزاء عمله فورًا ودون تضحيات، وفي كل القصص تقريبًا يلعب القدر بخوارقه إلى جانب الطيبين ليسحق الظلم ويضبط نواميس الكون.

عماد الغزالي

عـــــــروض موجـــــــزة

العرب وعصر العولمة

نجاح كاظم

الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢، ٣٠٣ صفحات



لم تحظ المعلومات باهتمام تستاهله في أكثر ما كتب عن العولمة، برغم أنها تمثل البعد الرئيسي في هذا التطور من تاريخ الإنسانية. فالمعلومات هي رمز العصر المعلوماتي أو عصر الاقتصاد الإلكتروني كما يسمى الآن، وهي - بالارتباط الوثيق بين أنظمة الكمبيوتر وأجهزة الاتصالات من ناحية، وبين هذه الأنظمة وعلوم البيولوجيا والجينات من ناحية ثانية - تمهد لاقتصاد العقود المقبلة من القرن والذي اصطلح على تسميته «اقتصاد البيو». هذا الكتاب يلقي أضواء باهرة على هذا البعد الغائب الذي يسميه المؤلف البعد الخامس. وهو يبدأ بسرد تاريخي مختصر لدور العلم والتكنولوجيا في مسيرة الإنسانية، طارحًا إيجابيات وسلبيات التكنولوجيا، ومشيرًا إلى ما قرره أحد علماء الكمبيوتر من أن التطور الذي شهدته البشرية خلال ربع القرن الأخير يتجاوز - من زاوية التأثير والنتائج - ما تحقق خلال الـ ٢٥ عامًا الماضية.

وإلى جانب التطبيقات المؤلمة لثمار عصر المعلومات والاتصالات في الجوانب العسكرية والتي شهد العالم بعضها في حرب الخليج الثانية وأخيرًا في الحرب ضد أفغانستان، فإن تطبيقات إيجابية عديدة ينتظرها العالم في المجالات الطبية والعلمية والاقتصادية والصناعية والزراعية والبيئية ومختلف جوانب الحياة.

ويجيب المؤلف في القسم الأخير من الكتاب عن تساؤل العنوان إجابة محبطة لكنها علمية ومتوقعة: يعيش العالم العربي تخلفًا حقيقيًا في الوضع التكنولوجي مع فجوة تقنية فاصلة مع العالم المتقدم يصعب ردمها ويجعل واقعه العملي ذا مشاكل كثيرة ومعقدة. أمام أسباب هذه الفجوة وعوائق ردمها كما يشير المؤلف فأولها سياسي «غياب الاستقرار السياسي اللازم لخلق أرضية تكنولوجية»، وثانيها «غياب الارتباط العضوي بين المنظرين لأسباب الفجوة وأصحاب القرار. ويرى المؤلف أن علاج هذين العيبين فضلاً عن ضرورة نقل وتوطين التكنولوجيا عبر سياسة قصيرة المدى تخلق البنى التحتية اللازمة لهذا التوطين واستراتيجية بعيدة المدى تحقق الاستقرار السياسي وتتعامل بفاعلية مع نظم التعليم لإعداد الكوادر وتوجد صيغ للتعامل الجماعي بين كل الدول العربية وتوفر مواردها للإنفاق السخي على التعليم وتشجيع الاستثمار في مجال التكنولوجيا وتعيد العقول العربية المهاجرة هو السبيل الوحيد لردم الفجوة.

□ □ □

معذرة كولومبوس

لست أول من اكتشف أمريكا

هاينكه زود هوف

تعريب: حسين عمران

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١، ٣٠٥ صفحات



اكتشف «كريستوفر كولومبوس» أمريكا قبل ٥٠٠ سنة، هذه حقيقة لا يبدو أن أحدًا يماري فيها.

لكن هذا الكتاب يدحضها ويشير إلى البحارة الفينيقيين الذين جابوا شواطئ العالم وداروا حول القارة الأفريقية وأسسوا مدنًا على ساحل الأطلسي وغيره قبل ثلاثة آلاف سنة، بوصفهم المكتشفين الحقيقيين للقارة الجديدة، استنادًا إلى مجموعة من الشواهد والقرائن الثقافية والتاريخية التي مازالت آثارها باقية هناك حتى اليوم منها: ثقب الجمجمة والختان والأهرامات وعبادة زهرة اللوتس وأقنعة الجان وحلية الموتى والإنسان الطائر ذو الجناحين والإله الفينيقي الوثني «بعل» والآلهة الوثنية القزمة بشكلها المميز.

والهنود الحمر استقبلوا الفينيقيين، الذين أرسل بعضهم بتكليف من فرعون مصر بترحاب وتجاوب شديدين بعكس الحال حين وصل المغامرون الأوروبيون إليهم بعد ذلك بآلاف السنين، ويرجع الفضل في ذلك إلى قدرة الفينيقيين أنفسهم على التكيف: وهي سمة ميزتهم وقرّبتهم من كافة الشعوب الذين هبطوا عليهم.

ويجري المؤلف مقابلات لغوية مهمة بين مفردات استخدمتها قبائل المايا ولها نظائر في اللغات السامية المنطوقة وفي اللغة العربية مع تحريفات بسيطة، كما يشير إلى الموقع الأسطوري الذي احتلته الحيوانات من عبادات العالم القديم.

النتيجة التي ينتهي إليها المؤلف هي أن كولومبوس ليس أول من اكتشف أمريكا، بل سبقه إليها الفينيقيون برحلاتهم التجارية والاستكشافية.

كتب أجنبية

Stay the Hand of Vengeance
The Politics of War Crimes Tribunds

(سياسات محاكمات جرائم الحرب)

Gary Jonathan Bass

Princeton University Press, 2001, 368PP.



يتساءل المؤلف في هذا الكتاب عما أدى إلى فلاح محاكمات جرائم الحرب أو فشلها فيما مضى. ويُعدُّ كتابه العميق في بحثه ترياقاً قيماً للطبيعة غير التاريخية التي تميز بها الكثير من الكتّاب عن القانون الإنساني الدولي، الذي غالباً ما يعتبر محاكمات نوريمبرج السابقة الوحيدة لما يجري في الوقت الراهن من محاكمات. وإذا كان باص يأخذ نوريمبرج في اعتباره، فهو يدرس كذلك فترة ما بعد حروب نابليون، والإبادة الجماعية في أرمينيا، والحرب العالمية الأولى. وينتهي كتابه برواية مفصلة للمناورة السياسية التي وراء محكمة لاهاي الخاصة بيوغوسلافيا.

ويركز باص في مواضع مختلفة من الكتاب على التوتر بين المبادئ والمصلحة الشخصية في سياسة الدول الليبرالية الخارجية. فما هي الظروف التي كانت الدول ترى فيها أعداءها الأسرى على أنهم يستحقون الإجراء القانوني الواجب اتخاذه - وإلى أي مدى كانت على استعداد لضمان إحقاق الحق؟ يقول باص إنه رغم ما يحيط بالإجراءات القانونية من شكوك، فإن الدول الليبرالية الحديثة تشعر باضطرارها لتطبيق فكرة حكم القانون على معاقبة الجنود والساسة الأجانب. بينما كانت بريطانيا راضية سنة ١٨١٥ عن نفي نابليون إلى سانت هيلانة دون أية إجراءات قانونية رسمية، إلا أنه بحلول عام ١٩١٨ رأت الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى أن قاعة المحكمة هي المنبر الصحيح للتعامل مع القادة العسكريين الألمان والأتراك الذين أشرفوا على الترحيل الإجباري للأرمن. ولكن إلى جانب هذا الدفاع القانوني كان هناك تردد دائم بشأن مخاطرة أية دولة بجنودها؛ وقد انهارت عمليتا لايبزج واسطنبول عندما بدا أنهما ستكلفان البريطانيين والحلفاء الكثير من الأرواح.

ويزخر كتاب باص بالتفاصيل التاريخية الساحرة، إلا أن بنيته تشي بجذوره كبحث أكاديمي في العلوم السياسية. فهدفه هو وضع نموذج لكيفية تأثير القيم المحلية على سلوك الدولة، حيث يقوده هذا المنهج الرسمي الثابت إلى تقليل أهمية التغيرات التي تطرأ على البيئة الدولية. فقبل نوريمبرج كان يبدو - للمشاعر والأحاسيس المعاصرة - أن استخدام الصيغ القانونية كثيراً ما يكون فيه شيء من الانتهازية: فعلى سبيل المثال لا يُتهم القيصر فيلهلم الثاني في معاهدة فرساي بشيء أكثر وضوحاً من «الاعتداء الشديد على الأخلاق الدولية وقدسية المعاهدات». وعلى نطاق أوسع، كانت جرائم الحرب في الماضي غالباً ما تبدو شكلاً من أشكال التبرير ذات الأثر الرجعي، والإقرار القانوني الذي يُقصد به إظهار الحرب على أنها منافسة بين الحق والباطل، وبالتالي تستحق أن تُخاض. أما اليوم فالموقف معكوس: فلدينا محاكم لجرائم الحرب تتسم بقدر غير مسبوق من الدقة والصلاحية القانونية، إلا أنها شُكّلت كبديل لتدخل القوة العظمى، وليست نتيجة طبيعية له.

□ □ □

In the Eye of Horus.. Aphotographer's Flight Over Egypt

(في عين حورس: رحلة مصور فوق أرض مصر)

Photographs by Marcello Bertinetti..Text by: Maria Crele

AUC Press, 2001, LE 220



ليس هذا هو الكتاب الأول المصور عن مصر ولن يكون الأخير، فهناك عشرات الكتب وربما أكثر من ذلك عن مصر: آثارها، طبيعتها، شعبها وغير ذلك من النواحي المميزة لمصر. لكن ما يميز هذا الكتاب أن مصوره التقط صوراً غاية في الروعة وبعضها عن طريق الأقمار الصناعية عن مصر لتكشف وبحق عن اسم مصر الحقيقي القديم وهي الأرض الحمراء والسوداء. فالأحمر الناتج عن الصحراء التي أحرقت الشمس وجهها، يتعانق ويتكامل مع الطمي الأسود الذي يحمله نهر النيل إلى مصر.

وبعين طائر يقدم المصور مجموعة متنوعة وفريدة من الصور التي تتحدث

عروض موجزة

عن مصر أرض الفراعنة ومدى التنوع والتعقيد كل ذلك بالوان زاهية غاية في الروعة والوضوح. والكتاب المصور مصحوب بنص كتبته ماريا كروس التي درست علم المصريات في جامعة تورين وكذلك في جامعة زيورخ وهي تعمل حالياً في المتحف المصري في تورين.

أما المصور مارشيلو برتيني فقد بدأ عمله كمصور وصحفي عام ١٩٧٨ وتخصص في كتابة موضوعات عن الشعوب والبلدان. ومنذ ذلك الوقت وهو يعمل مع مجلات وكالات مصورة بارزة من ايطاليا.

وقد كتب مقدمة الكتاب الدكتور ممدوح البلتاجي وزير السياحة المصري.

□ □ □

The Death of Gentlemanly Capitalism

(موت الرأسمالية اللطيفة)

Philip Avgar

Penguin Books, 2001, 416PP., £10.99



يتناول مؤلف هذا الكتاب فيليب أوجار، وهو مسئول مالي سابق التطور الذي حدث في حي المال في لندن والمعروف باسم «ذي سيتي». ويقول إن هذا الحي كان يوصف بأنه مثل بطولة ويمبلدون الشهيرة للتنس التي تقام سنويًا في بريطانيا، فهي تقام في لندن ولكن يسيطر عليها، أي على البطولة لاعبون أجانب، ومع ذلك فإن هذه البطولة لازالت توفر الكثير من فرص العمل والتدفق المالي لبريطانيا ويشير إلى أن أغلب العاملين في حي المال، لايزعجهم أن الحي أصبح يسيطر عليه الأجانب وينقل عن رئيس بورصة لندن قوله إن نمط الملكية لا يهم كثيرًا.

إلا أن المؤلف في هذا الكتاب، يعترض قائلاً: بل إنها تتهم كثيرًا فمن يملك الأسهم والسندات تكون لديه القوة والنفوذ ويشير إلى أن الوضع الراهن المتمثل في بيع الشركات البريطانية البارزة لمالكين أجانب جعل حي المال غير قادر على السيطرة على مصيره وربما كان من غير الشائع حاليًا الحديث عن الصناعة الوطنية والمصالح الوطنية في عصر العولمة لكن أوجار يثير عديدًا من الأسئلة تتركز حول مدى صحة ما يقال عن إنه باسم العولمة ومبادئ السوق يمكن السماح للصناعات الرئيسية في الدولة بأن تتحول إلى أيدي الأجانب، ويقدم الكتاب عرضًا تاريخيًا لتطور حي المال في لندن حيث ظل الحي بسيطًا وذا توجه عالمي يعرف فيه العاملون بعضهم بعضًا ومعظم المتعاملين فيه من البريطانيين. باختصار فإن كل شيء ابتداء من طريقة اللباس والكلام والأكل وحتى المباني والحجرات وغيرها تنم عن الطابع الإنجليزي وتعلو في المكان قيم الطبقة العليا والشريحة العليا من الطبقة المتوسطة في بريطانيا. لكن لا شيء يبقى كما هو فقد حدث ما يسميه الانفجار العظيم في عام ١٩٨٦ عندما اختارت حكومة مارجريت تاتشر المحافظة إصلاح سوق المال والسندات في لندن لكي تكون البورصة قادرة على المنافسة وتحتل مكانها المميز عالميًا. وجرى العمل على تحرير قواعد العمل بالبورصة وتم السماح بـ ١٠٠٪ ملكية للأجانب ودخلت استثمارات أمريكية كثيرة إلى السوق. ولم تهتم حكومة المحافظين بالوقوف إلى جانب المؤسسات المالية البريطانية وتركت الأمور دون تدخل من جانبها، الأمر الذي أوقع البنوك البريطانية في أزمات كثيرة.

ويقول المؤلف إن ما يسمى بالرأسمالي اللطيف وهو اصطلاح سكه مؤرخان بريطانيان في الخمسينيات ويركز على مبادئ التعامل في البورصة، هذا الرأسمالي مضى إلى حال سبيله، فالمصرفي والمتعامل المالي الموهوب الذي يتصرف بهدوء وبشكل نافع ويلتزم بقواعد الإتيكيت ترك مكانه لمتعاملين ديناميكيين لا تعنيهم هذه القواعد بقدر ما تعنيهم السرعة في الإنجاز وتحقيق أكبر قدر من الربح. ويعترف المؤلف بأنه غير راض عما حدث ويرجعه إلى عصر العولمة لكنه لا يملك بالتأكيد أي وسيلة لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء.

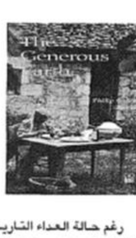
□ □ □

The Generous Earth

(الأرض السخية)

Philip Oyler

London, Pallas, 2001, £ 10.95



رغم حالة العداء التاريخي بينهما والتي امتدت إلى مئات السنين، فإن البريطانيين لازالوا يكنون إعجاباً شديداً بالفرنسيين وبفرنسا. وفي كل عام تتوجه ملايين عديدة منهم للسياحة في فرنسا والاستمتاع بطبيعتها، وعلى عكس ألمانيا التي لازال البريطانيون حتى الآن ينظرون إليها بتشكك وربما تخوف، فإن غرام سكان الجزر البريطانية بفرنسا لا ينقطع لذلك يتوالى إصدار الكتب عن نواح مختلفة من فرنسا تاريخاً وثقافة وشعباً.

وهذا الكتاب صدر للمرة الأولى عام ١٩٥٠ ثم أعيد نشره قبل وقت قصير. ومثله مثل مؤلفين بريطانيين عديدين أراد المؤلف أن يكتشف فرنسا الحقيقية. وليست الصورة المنطبعة عنها لذلك ملأ سيارته بما يحتاجه وعبر بحر المانش الذي يفصل بين البلدين وسار في الريف وطرقه المتعرجة وتحدث مع فلاحيه وجاب القرى والمدن وأمضى أوقاتاً طويلة مع الفرنسيين العاديين. ولأنه كان مهووساً على ما يبدو بضرورة اكتشاف روح فرنسا أو قلبها فإنه تتبع تفاصيل صغيرة لكي يصل إلى ما هو أشمل وأعمق. وقد تناول الكتاب على سبيل المثال بالتفصيل الوجبات الغذائية التي يتميز بها الفرنسيون خاصة في الريف ووصف طبيعة الريف الفرنسي وجماله.

وكما سبق، فإن المؤلف نشر كتابه عام ١٩٥٠. الأمر الذي يجعله تاريخاً فبعد ما يزيد على خمسين عاماً لابد أن أموراً كثيرة تغيرت. ليس في الطبيعة نفسها بل وفي الناس أيضاً. وقد دخلت التكنولوجيا الحديثة كل مكان تقريباً بما في ذلك الريف الفرنسي. ثم إنه مع اكتساح العولمة أرجاء المعمورة فإن التساؤل الذي يبرز ماذا تبقى من «روح فرنسا» التي حاول المؤلف البريطاني سبر أغوارها، وأيضاً ماذا تبقى من كتاب المؤلف ذاته سواء على صعيد المعلومات أو الوصف أو حتى الآراء.

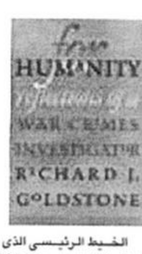
□ □ □

For Humanity: Reflections of a War Crimes Investigator

(من أجل الإنسانية: خواطر محقق جرائم حرب)

Richard Goldstone

Yale University Press, 2001, 152PP



الخيط الرئيسي الذي يمسك به المؤلف طوال تجاربه المختلفة هو أهمية استقلال القضاء عن السياسة، حيث يقول: «ما لم أكن متمتعاً بالاستقلال - في الواقع وفي الإدراك - لكان قد لحق ضرر كبير بعملي في جنوب أفريقيا ولاهاي وآروشا (موقع محكمة رواندا) - وبالجهود كافة كذلك». كما يشير إلى أن أهم إنجاز لمحاكم جرائم الحرب هو أنه «صار مقبولاً اليوم أن تتمكن محكمة دولية من إحقاق الحق». وما من شك في أن جولدستون ساهم مساهمة كبيرة في جعل محكمة لاهاي مؤسسة لها مصداقيتها في مواجهة لامبالاة أو معارضة معظم دول العالم البارزة. وبالمثل لاشك في كونه محقاً في قوله: إن محكمة الجنايات الدولية المرتقبة لابد أن تكون منصفة في إجراءاتها إن هي أرادت كسب الاحترام الدولي. وهو ما ينتقد الولايات المتحدة انتقاداً شديداً لرفضها دعم المحكمة. ما لم تضمن عدم توجيه التهم لمواطنيها. ولكن رغم جهود جولدستون وأتباعه، لم تحظ المحاكم الحالية بعد بالقبول في تلك الأماكن التي قد تكون أكثر أهمية فيها: أي بين المجتمعات المعنية. وترى أعداداً كبيرة من صرب البوسنة أن محكمة لاهاي غير شرعية: وفي رواندا ينظر كثيرون إلى إجراءات الدعوى في محكمة أروشا باستياء وعدم ثقة. ولأسباب مختلفة، لا يؤمن أي من المجتمعين بحكم القانون الكوني المحايد الإيمان الكافي الذي يجعله يستوعب الطريقة التي يعمل بها ضمن ثقافتهما السياسية. وما دامت العدالة بمنأى عن المجتمعات المحلية التي يعيش فيها الضحايا والجناة، فستكون مساهمتها محدودة في عملية المصالحة.

وكما يقول جولدستون، فمن الواضح أنه سيكون من الأيسر جعل العدالة الدولية محايدة في وجود محكمة دائمة، لا محاكم تنشأ بطلب من الولايات المتحدة وحلفائها. وحتى في هذه الحالة، فإن نجاح المحكمة أو فشلها سيتوقف على ما تتلقاه من دعم سياسي. ولابد أن تكون الدول على استعداد لتسليم مواطنيها في حال اتهامهم (أو تتخذ هي نفسها الإجراءات الصارمة حيالهم): ولابد أن تكون على استعداد لتهميش القيادات الأجنبية المتهمة: ولابد أن تكون على استعداد لدعم العمل العسكري إن كان ضرورياً لفرض حكم القانون. بل إن المجتمع الدولي - كما يبين نموذج رواندا - لا يمكنه الانتظار حتى ترتكب الفظائع ثم يتدخل. فستكون العدالة قائمة على أساس من الإهمال والانفصال دوماً عرضة للاتهام باللامبالاة.

ومع ذلك فإن هناك تقارباً واضحاً بين الدول السياسية التي يكتب عنها باص والنظام الشرعي الذي يتطلع إليه ريتشارد جولدستون. وتحظى فكرة حكم القانون الدولي بالتقدير في الوقت الراهن في لغة الساسة، وتتجسد في تكثيف شبكة المؤسسات. ويظل هذا - في بعضه على الأقل - مجرد خيال، إلا أن جاذبيته قد تكون من القوة بحيث تشد الدول إلى نوع من تنسيق العمل الذي يقربها من الواقع.

لقد كان جولدستون أول مدّعٍ في محاكم يوجوسلافيا السابقة ورواندا. وقد كتب في هذا الكتاب بتأن وحرص شديدين ليروي فيه اهتمامه بانتهاكات حقوق الإنسان في بلده جنوب أفريقيا وفي العالم.

□ □ □

قــــراءات جـــــديـدة

❞ اجتماع ❝

ظاهرة الطلاق فى دولة الإمارات العربية المتحدة

عبد الرازق فريد المالكى
أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١

يمثل الطلاق ظاهرة فى مجتمعات الخليج وفى دولة الإمارات العربية المتحدة على وجه الخصوص. الباحث يدرس أسباب هذه الظاهرة وتحليل نتائجها وانعكاساتها على المجتمع الإماراتى.

■■■

What's Happening to Home? Balancing Work, Life, and Refuge in the Information Age

(ماذا يحدث للبيت؟ موازنة العمل والحياة والملاذ فى عصر المعلومات)

Maggie Jackson
Sorin, 2002, (192P), $ 19.95

يتناول الكتاب التغيرات التى لحقت بأسلوب ومحل العمل نتيجة لثورة المعلومات وثورة الاتصالات، حيث توجد أعداد متزايدة من العاملين والموظفين فى مجالات شتى يقومون بإنجاز أعمالهم من المنزل اعتمادًا على شبكات الاتصال الإلكترونية. تهتم المؤلفة بتأثير ذلك التطور على خصوصية الحياة الأسرية داخل المنزل وتبدل مفهوم «البيت».

■■■

Christmas Unwrapped: Comsumerism, Christ, and Culture

(إزالة غلاف عيد الميلاد: الاستهلاك والمسيح والثقافة)

James Tracy, Richard Horsely
Trinity Press 2001, 234P, $ 20.00

مجموعة من المقالات النقدية التى تناقش احتفالات عيد الميلاد فى الولايات المتحدة وما آلت إليه فى ذلك المجتمع. فقد أصبح عيد الميلاد ـ بمظاهره السنوية من أغانى عيد الميلاد والتسوق وشراء الهدايا وتبادلها مع الأهل والأصدقاء ـ ديانة جديدة فى أمريكا: ديانة الرأسمالية الاستهلاكية. تناقش إحدى المقالات اختلاف مظاهر عيد الميلاد فى أمريكا عن مثيلتها فى أوروبا، وتناقش مقالة أخرى الأفلام الأمريكية التى أنتجت عن عيد الميلاد.

❞ إدارة وتجارة ❝

التدوين فى مجالات الأعمال

القاهرة: مكتبة لبنان وأبو الهول، ٢٠٠١

عن مدى فاعلية أسلوب تدوين الأفكار والأعمال المطلوبة وقواعدها وكيفية كتابة الخطابات الناجحة ومصادر جمع المعلومات وكيفية كتابة نشرة صحفية للشركة وأهمية تجنب الأخطاء الشائعة والاهتمام بطريقة العرض وتجنب التكرار وغيرها مما يكسب الرسالة فاعلية فى الأداء.

■■■

سوء السلوك التنظيمى

ستيفن أكرويد وبول طومبسون
ترجمة: عبد الحكم أحمد الخزمى
القاهرة: دار الفجر للنشر، ٢٠٠١

النقطة الأساسية التى يلفت المؤلفان النظر إليها هى أن سلوك المديرين لا يختلف كثيرًا عن سلوك الأفراد العاديين، فالأخيرون يتصرفون بلا مبالاة اعتمادًا على أن ما يتقاضونه مقابل عملهم لا يدفعهم إلى الالتزام بالسلوك التنظيمى الصحيح، والمديرون من جهتهم يزيد إدراكهم أن مصالحهم لا تتطابق مع مصالح شركاتهم، وهو ما يقود فى نهاية المطاف إلى سوء السلوك التنظيمى.

■■■

The Rule of Three: Surviving and Thriving in Competitive Markets

(قانون الثلاثة: الاستمرار والنجاح فى الأسواق التنافسية)

Jagdish N. Sheth, and Rajendra S. Sisodia
Free Press, 2002, 288P, $ 27.50

يدفع المؤلفان بنظرية مفادها أن القوى التنافسية فى أى سوق، إذا تركت دون تدخل من الحكومة أو من أى ظروف أخرى، تخلق حتمًا موقفًا تكون السيطرة فيه لثلاث شركات كبرى على باقى السوق. مثال ذلك مطاعم الوجبات السريعة فى الولايات المتحدة (حيث يسيطر ماكدونالدز وبيج برجر ووندى) ومصانع الشرائح الإلكترونية فى كوريا (جولدستار وهيونداى وسامسونج). ولكى تنجح الشركات الأخرى، يجب عليها كما يؤكد المؤلفان أن تنافس الكبار من خلال التخصص.

تفترض النظرية أن الأسواق الحرة بطبيعتها تتسم بالكفاءة، وكفاءة السوق تتطلب وجود ثلاثة متنافسين. فإذا كانا اثنين سيؤدى ذلك إلى احتكار الأسعار والتحطيم المتبادل، وإذا كانوا أربعة، سيؤدى ذلك إلى حرب أسعار مستمرة. يقدم المؤلفان أيضًا نصائح واستراتيجيات للشركات التى تمثل أحد هؤلاء الثلاثة، باعتبار أنه فيما بينهم توجد شركة قائدة واثنتان تابعتان وغير متساويتين.

■■■

When Generations Collide: Who They Are? Why They Clash? How to Solve the Generational Puzzle at Work?

(عندما تتصادم الأجيال: من هم؟ لماذا يتصادمون؟ وكيف نحل المشكلة الجيلية فى العمل؟)

Lynne C. Lancaster and David Stillman
Harper Business, 2002, 384P, $ 25.95

يعالج المؤلفان التفاوت الجيلى فى محل العمل الذى قد تنجم عنه مشكلات وصراعات نتيجة لاختلاف الرؤى والمنطلقات لدى كل جيل. وبالتركيز على المجتمع الأمريكى يقسمان العاملين إلى أربع فئات جيلية: التقليديون، المولودون بين ١٩٠٠ و١٩٤٥؛ والبيبى بومرز المولودون بين ١٩٤٥ و١٩٦٤؛ ثم جيل إكس المولودون بين ١٩٦٥ و١٩٨٠؛ وأخيرًا، الألفيون وهم المولودون بعد ١٩٨٠.

الكتاب مفيد لمن لديهم أعمال أو تعاملات مشتركة مع أمريكيين، كما أن فكرته يمكن تطبيقها على أى مجتمع آخر. ومع هذا فقد وجه إليه بعض النقد بسبب انزلاقه فى فخ القولبة والتعميم.

■■■

The New Imperialists: How Five Restless Kids Grew up to Virtually Rule your World

(الإمبرياليون الجدد: كيف استطاع خمس من الصبية القلقين أن يحكموا عالمنا)

Mark Leibovich
Prentice, 2002, (320P), $ 25.00

يحكى ليبوفتش ـ صحفى جريدة الواشنطون بوست ـ فى كتابه هذا مسيرة نجاح خمسة من ألمع نجوم التكنولوجيا فى العالم الآن: ستيف كايس (أى. أو. إل تايم وارنر) وجيف بيزوس (أمازون دوت كوم) وجون تشامبرز (سيسكو) ولارى إليسون (أوراكل) وبطبيعة الحال بيل جايتس (مايكروسوفت). ولدى المؤلف اعتقاد راسخ بأن المحرك الكبير وراء هؤلاء الرجال يكمن فى طفولتهم، وبالفعل يظهر بعد تناوله لطفولة كل منهم على حدة أن هناك عوامل مشتركة كثيرة أهمها معاناة نفسية كبيرة فى فترة المراهقة من ناحية، وثراء مادى من ناحية أخرى.

■■■

Otis: Giving Rise to the Modern City

(أوتيس: الصعود بالمدينة الحديثة)

Jason Goodwin
Ivan R. Dee, 2001, (320P), $ 27.95

لولا المصاعد ما كان من الممكن بناء ناطحات السحاب، وهذا الكتاب يتناول تاريخ أول شركة أنتجت المصاعد وهى الشركة التى أسسها إليشا أوتيس عام ١٨٥٠، الذى اخترع جهاز أمان أوتوماتيكيا فاحدث ثورة فى استخدام المصاعد التى كانت معروفة ولكنها غير منتشرة بسبب خطورتها. ويتتبع المؤلف السياسات التى انتهجها تشارلز ابن إليشا الذى استغل مرحلة ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية ليتسيد المجال، وغيرها من الإدارات التى توالت وما انتهجته بعضها من أساليب غير نظيفة فى سبيل البقاء والمنافسة.

❞ أطفال ❝

أطلس الصغير

ترجمة وإعداد: وفاء أشرف
رسوم: محمد فايد
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

عبر رحلة مع شخصية لطيفة صغيرة يجول الأطفال فى أطلسهم الصغير هذا عبر العالم، فيتعرفون على قارات العالم وأهم الدول الموجودة فى تلك القارات والمسطحات المائية التى تحيط بها، وأهم ملابس وعادات وسمات الشعوب.

■■■

The Philosopher's Club

(نادى الفلاسفة)

Christopher Phillips, Kim Doner (illustrator)
Tricycle Press, 2001, (44P), $ 14.95

للأطفال من سن الرابعة إلى الثامنة. يحاول المؤلف أن ينقل أسلوب الحوار السقراطى للأطفال، تشجيعًا لهم على التفكير بأنفسهم فى تساؤلات الحياة التى كثيرًا ما تراودهم. من ضمن الأسئلة التى يطرحها الكتاب: ما هى الحكمة؟ هل العقل والمخ يتكونان من نفس الشىء؟ من وجدت أولاً، البيضة أم الدجاجة؟ كيف تعلم أنك موجود؟

❞ اقتصاد ❝

حلم الهجرة للثروة، الهجرة والعمالة المهاجرة فى الخليج العربى

باقر سلمان النجار
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

مثل موضوع الهجرة للعمل فى بلاد النفط بالخليج العربى منذ ثلاثة عقود على الأقل موضوعًا بالغ الأهمية ومادة خصبة للدراسات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية نظرًا للآثار المهمة ـ إيجابًا وسلبًا ـ التى تركها سواء على مجتمعات النفط أو البيئات التى أتى منها المهاجرون.

■■■

2002 Index of Economic Freedom

(مؤشر الحرية الاقتصادية لعام ٢٠٠٢)

Gerald O' Driscoll (editor)
Dow Jones & Co, 2001, (375P), $ 24.95

تقرير سنوى يتناول بالتحليل اقتصاديات ١٦٢ دولة ويصنفها حسب درجة الحرية الاقتصادية. يحتوى تقرير هذا العام على بيانات عام ٢٠٠١ الخاصة بالضرائب وقوانين الاستثمار الأجنبى والجمارك والقواعد البنكية والسياسات النقدية.. وغيرها فى كل دولة.

❞ تاريخ ❝

المصريون والفرنسيون فى القاهرة

أندريه ريمون
ترجمة: بشير السباعى
القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ٢٠٠١

يقدم المؤلف وجهة نظر نقدية فى حوليات الجبرتى وموقفه من حركة المقاومة المصرية مستخدمًا الوثائق التاريخية وكثير منها لم ينشر، ويتعرض المؤلف للثورات المختلفة والانتفاضات التى قام بها المصريون تعبيرًا عن رفضهم للاحتلال حتى جلاء الفرنسيين عن مصر.

■■■

المواجهة المصرية الأوروبية في عهد محمد علي

محمد عبدالستار البدري

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

دراسة عن العلاقات المصرية الأوروبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والأسباب التي دعت عدة دول أوروبية لم تكن بينها فرنسا إلى التحالف ضد الأحلام التوسعية والنهضوية لوالي مصر محمد علي باشا، والآثار الناجمة عن تلك المواجهة.

■■■

حكماء وشعراء من أون إلى قصر العيني

محمود فوزي المناوي

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠١

يقودنا المؤلف في رحلة عبر الزمن في ستة فصول إلى الشعراء الأطباء عبر العصور وارتباط الحكمة بالطب في كل زمان، ويقدم لنا أسماء لمشاهير الأطباء الشعراء ونماذج من إنتاجهم.

■■■

The Rise of the Fatimids: The World of the Mediterranean and the Middle East in the Tenth Century

(صعود الفاطميين: عالم البحر المتوسط والشرق الأوسط في القرن العاشر)

Michael Brett

Leiden: Brill, 2001, (497PP)

قام المؤلف بتدريس تاريخ شمال أفريقيا إلى عدة أجيال من الدارسين في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن. وهو يقدم هنا رؤيته في تاريخ الفاطميين، ففي الجزء الأول من كتابه يتناول مشكلة أصول الفاطميين الذين ظهروا في تونس مدعين نسبهم إلى السيدة فاطمة ابنة الرسول، وكونهم شيعة «سبعيين» أي تتوقف سلسلة الإمامة لديهم عند الإمام السابع «المهدي عبد الله» الذي يعد أول إمام فاطمي، وكان قد اختفى عام ٧٦٠ ميلادية ليظهر مرة أخرى عام ٩١٠ ميلادية!

الجزء الثاني من الكتاب يتناول أسس الدولة الفاطمية في المغرب، وتوسع الدولة الذي شمل بيزنطة وصقلية والمغرب، وروح الأدب الفاطمي في ذلك العصر الذي شهد أعمال ابن الهيثم. أما الجزء الثالث والأخير من الكتاب فيتناول الدولة الفاطمية في أوج ازدهارها تحت حكم الإمام الفاطمي الرابع «الخليفة المعز» الذي ضم مصر وبنى مدينة القاهرة.

** تراث **

النبوءة أو قدر البطل في السير الشعبية العربية

أحمد شمس الدين الحجاجي

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

ترتبط السيرة الشعبية بالوجدان الجمعي ارتباطًا وثيقًا وتلعب دورًا مؤثرًا في تشكيل قيمة وتحديد رؤيته لمعاني الخير والشر والبطولة والفداء. المؤلف يركز على أثر السيرة الشعبية من ناحية، وكذلك دور النبوءة والمنامات في حياة البطل العربي، إذ واكبت كل بطل نبوءة ساهمت في تغيير شكل حياته وحددت سلوكه.

** تعليم **

التخطيط المدرسي الاستراتيجي

محمد عبد الخالق مدبولي

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠١

يدرس الفصل الأول إعادة ترسيم الحدود بين مفهوم التخطيط المدرسي والتخطيط التربوي والتخطيط التعليمي والتخطيط الصفي، وفي الفصل الثاني رؤية لملامح الإدارة المدرسية في حقبة التسعينيات وبعض الاقتراحات للنهوض بالمدرسة، ويقدم الفصل الثالث مكونات الخطة الاستراتيجية للمدرسة، ويخصص الفصل الأخير لكيفية إعداد المدرسة وتهيئتها لتقبل التغيير والتطور الحادث في محيطها.

■■■

المعلمون والسياسة في مصر

عبدالسلام نوير

القاهرة: مركز الدراسات السياسية (الأهرام)، ٢٠٠١

يقدم الباحث وصفًا لأوضاع معلمي المرحلة الأساسية باعتبارها من أهم مراحل التعليم، ولدورهم المهم في ترسيخ المبادئ الأصيلة في عقول الأجيال الجديدة، ثم يتتبع الاتجاهات السياسية الرئيسية لدى المعلمين وتأثيرها على التلاميذ.

** رواية **

الأسلاف

فاضل العزاوي

لندن: دار الجمل، ٢٠٠١

شخوص الرواية وإن بدت من نسج الراوي إلا أن ظلالها الواقعية ماثلة بقوة واختلاطها بالتاريخ الدموي للعراق في مرحلة تاريخية بعينها، وعبر الشخصية الأساسية في الرواية عادل سليم يقدم المؤلف وجهة نظر سياسية اجتماعية في الأحداث.

■■■

ليالي الكالكا

شاكر الأنباري

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

عن رحلة تيه عاشها ضايع جديان بطل الرواية، الذي خاض غمار حرب ليس له علاقة بها وقرر بعدها الهروب إلى جبال كرستان ليواجه هناك نفسه على حقيقتها، ويبدأ في تكثيف جهوده بحثًا عن هويته وتاريخه ليواجه المستقبل بأقدام ثابتة.

■■■

My Name is Red

(اسمي أحمر)

Orhan Ramuk

Erdag M. Goknar (Translator)

Knopf, 2001, (384PP), 25.95

المؤلف من أشهر الروائيين الأتراك المعاصرين وترجمت رواياته السابقة إلى أكثر من عشرين لغة. تقع أحداث روايته الأخيرة في إسطنبول في القرن السادس عشر، أي مع بداية مرحلة أفول الإمبراطورية العثمانية وازدهار النهضة في باقي أوروبا.

** سياسة **

التفكير الإبداعي وحرب أكتوبر

سعد الدين خليل

القاهرة: دار التحرير، ٢٠٠١

يضع المؤلف نصر أكتوبر في إطاره الصحيح بوصفه نصرًا إبداعيًا ونتاجًا لاستراتيجية وتكتيك واع سخر كل أسباب النصر ومقوماته سياسيًا واقتصاديًا ونفسيًا حتى تحقق.

■■■

المسلمون والمسيحيون تحت الحصار اليهودي

أحمس حسن صبحي

القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠١

يعرض المؤلف لمسلك اليهود تجاه المسلمين والمسيحيين على مر العصور، وكيف استطاعوا أن يسيطروا على التوجه الأوروبي المسيحي ضد الإسلام، وكيف بذروا بذرة الصهيونية التي آمن بها كثير من المسيحيين فأيدوا اليهود وأمدوهم بالسلاح والتأييد المعنوي وأقاموا دولتهم في رقعة عزيزة من عالمنا العربي والإسلامي.

■■■

المواطنة في زمن العولمة

السيد ياسين

القاهرة: المركز القبطي للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١

دعوة إلى تجديد الإطار النظري السائد في البحوث السياسية والاجتماعية والثقافية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ونهاية الصراع الأيديولوجي بين الرأسمالية والشيوعية، ومحاولة من المؤلف لترسيخ مفهوم المواطنة الذي يحتل الحيز الأكبر بين مقالات الكتاب.

■■■

المواطنة والديمقراطية في البلدان العربية

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

تتناول المقالات الأوضاع الراهنة في البلدان العربية على صعيدي المواطنة والديمقراطية على وجه الخصوص، وهما يرتبطان بشدة بمفهوم الدولة المدنية وحقوق الإنسان، فما الذي يهدد المواطنة وما الذي يعوق ترسيخ قيم الديمقراطية على وجهها الصحيح في الوطن العربي؟

■■■

تحول المجتمع العربي في حيفا بين ١٩١٨ و١٩٣٩

مي صقيلي

لندن: تاويرس، ٢٠٠١

دراسة عن حال المجتمع في مدينة حيفا منذ بدايات الانتداب البريطاني الأول على فلسطين وحتى عام ١٩٣٩ وكيف ساهمت الضغوط الاستعمارية في اندلاع البركان الشعبي ثم اشتعال ثورة عام ١٩٣٦ التي شهدتها مدينة حيفا.

■■■

حينما ارتجت الأرض رجا

سمير رجب

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

مجموعة من المقالات التي نشرها رئيس تحرير جريدة الجمهورية القاهرية خلال العام الأخير والتي تتناول بالتحليل أوضاعًا سياسية واقتصادية واجتماعية محلية وعالمية تلقي أضواء على السياسة المصرية الخارجية وتعاطيها مع عديد من الأزمات في أعقاب وصول شارون إلى الحكم في إسرائيل.

■■■

روسيا إلى أين؟

أشرف الصباغ

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠١

رؤية من الداخل لما حدث ومازال يحدث في روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، والكتاب وإن كان يركز بالذات على روسيا فإنه يشير إلى انعكاسات ذلك على العالم كله وعلى عالمنا العربي على وجه الخصوص.

■■■

سيادة الدول في ضوء الحماية الدولية لحقوق الإنسان

باسيل يوسف باسيل

أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١

يؤكد كثير من الخبراء السياسيين أن المفهوم التقليدي للسيادة قد زال أو هو في طريقه للزوال، وقد فرض مفهوم الحماية الدولية لحقوق الإنسان على الخبراء إعادة النظر في معنى السيادة، والكتاب يعرض لآليات هذه الحماية في الأمم المتحدة والقانون الدولي.

■■■

مدافع شارون

مدحت الزاهد

القاهرة: دار الحكمة، ٢٠٠١

تقف الانتفاضة الباسلة للشعب الفلسطيني بتضحياته المستمرة وبإمكاناتها المحدودة في مواجهة مدافع شارون وبطش آلته العسكرية. المؤلف يثمن دور الانتفاضة ويكشف - من ناحية ثانية -

عن العجز العربى والتواطؤ الدولى إزاء ما يجرى فى فلسطين المحتلة.

■■■

Bias: A CBS Insider Exposes How the Media Distorts the News

(تحيز: شهادة من داخل الـ«سى.بى.إس» تكشف كيف تحرِّف وسائل الإعلام الأخبار)

Bernard Goldberg

Regenery Pub., December 2001, 234P, $ 27.95

عمل برنارد جولدبرج لمدة ثلاثين عاماً صحفياً فى المحطة الإخبارية التليفزيونية «سى.بى.إس» وحصل خلال هذه السنوات على سبع جوائز «إيمى». وفى هذا الكتاب قرر جولدبرج الكشف عن تجاهل وسائل الإعلام للموضوعية فى الأخبار، وتحيزها لجماعات ضغط معينة خاصة اليسارية منها. ففى قاعات الأخبار الآن أصبحت معايير «الحساسية السياسية» توضع فى المقدمة قبل معيار «الحقيقة».

■■■

The Death of the West: How Dying Populations and Immigrant Invasions Imperil our Country and Civilization

(موت الغرب: كيف تهدد غزوات الهجرة وتناقص السكان بلادنا وحضارتنا)

Patrick J.Buchanan

St. Martin's Press, 2002, (320P), $ 25.95

يقدم هذا الكتاب نموذجاً من فكر التيار اليمينى المتطرف فى السياسة والمجتمع الأمريكى. فمؤلفه هو بات بوكانان مرشح الرئاسة الأمريكية الأسبق والذى ترك الحزب الجمهورى وأسس حزب الإصلاح. عمل بوكانان مستشاراً لثلاثة رؤساء أمريكيين سابقين هم نيكسون وفورد وريجان. يقول بوكانان فى كتابه «المؤرخون سوف يطلقون على قرص منع الحمل قرص انتحار الغرب» تعبيراً عن قلقه من تناقص السكان البيض فى المجتمع الأمريكى والمجتمعات الأوروبية فى مقابل الهجرات المتزايدة من غير البيض التى يخشى بوكانان أن تحول أمريكا إلى دولة من دول العالم الثالث. ينادى المؤلف بضرورة عودة أمريكا إلى أصولها المسيحية - البيضاء، منددأ بانتشار الشذوذ الجنسى وزيادة معدلات الإجهاض والطلاق فى المجتمع الأمريكى.

•• شعر ••

حكمة العرب أو أنوار العقل

ماجد مصطفى الصعيدى

القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠١

يلبى هذا الكتاب احتياجات الدارسين والمحبين للشعر على السواء فهو يقدم مختارات من روائع الشعر العربى عبر مسيرته الطويلة، مختارات لابن عربى وأبى نواس والشريف الرضى وابن الفارض والفرزدق وأبوتمام وابن الرومى وغيرهم، كما يقدم تراجم مختصرة لهؤلاء الشعراء تلقى أضواء على حياتهم ويخص المتنبى وأبوالعلاء المعرى بقسمين فى كتابه.

■■■

من قال إنى يوسف

يوسف الشايب

فلسطين: دار الزهرة، ٢٠٠١

عشر قصائد وترنيمتان يقدمهما الشاعر الفلسطينى فى ديوانه الجديد، لا يغيب عنها البُعد الفلسطينى بطبيعة الحال ولا واقع الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال.

■■■

يلزم بعض الوقت

زهرة يسرى

القاهرة: كتابات جديدة - هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

فى القسم الأول من الديوان تعرض لنا القصائد نماذج مهمشة هشة تعيش على هامش المجتمع ولا يعبأ كثيرون بأحزانها وانكساراتها، وفى القسم الثانى تغوص فى غمار النفس الإنسانية وتعقيداتها فى مزج ضرورى بين الذاتى والموضوعى.

•• علم نفس ••

التاريخ الإجرامى للجنس البشرى

كولن ولسن

ترجمة: رفعت السيد على

القاهرة: دار حور، ٢٠٠١

الدافع الإجرامى ليس شذوذاً أو جنوحاً لفعل الشر اكثر من فعل الخير بقدر ما هو مركب طفولى وميل يدفع إلى الاستسهال والاختصار، هو نزعة للحصول على شىء مقابل لا شىء، وأعتى المجرمين هم أشخاص ذاتيون تماماً. والمجرم ليس إلا شخصاً بالغاً يحيا ويسلك فى حياته سلوك الأطفال. هذا جوهر ما يؤكده الكتاب عبر دراسات نظرية ونماذج تطبيقية.

•• علوم ••

العلم فى مجتمع حر

جاول فير آبندى

ترجمة: السيد نفادى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

ليس العلم حكرًا على الغرب، وقد كان العالم الإسلامى فى عصور الظلام الأوروبى نبراسًا لتقدم الغرب وازدهاره علميًا وفكريًا، ولكن وقوع العالم الإسلامى أسيرًا للاستبداد السياسى أثر سلبًا على مسيرته العلمية والفكرية، إذ يحتاج التقدم العلمى إلى قيم الحرية والتفكير المنطلق، بعيدًا عن السلطة الاستبدادية.

■■■

ما بعد المعلومات - التاريخ الطبيعى للذكاء

توم ستونيز

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

ليس الذكاء حكرًا على الإنسان، بل للنبات ذكاؤه وللحيوان كذلك. الكتاب يشرح هذا ويركز على مستويات الذكاء عند الإنسان والتى دفعته إلى أن يصمم أرقى الأجهزة ذكاءً وتعقيدًا، ويقدم فصلاً عن الكمبيوتر واستخداماته ودوره فى تنمية الذكاء الإنسانى.

■■■

هكذا تحدث كارل ساجان

سمير حنا صادق

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠١

قراءة فى عدد من الأعمال المهمة لعالم الفلك الأمريكى الشهير كارل ساجان الذى رحل فى ديسمبر ١٩٩٦. ويقدم المؤلف فى هذا الكتاب مختارات من ثلاثة كتب لساجان هى «مخ بروكا» و«تنينات عدن» و«بلايين وبلايين» ويتساءل ساجان بعد تتبعه للعديد من الظواهر الطبيعية والبيئية وتدخلات الإنسان فيها: هل من نهاية لهذا التلاعب بالكون؟

■■■

Bright Earth: Art and the Invention of Color

(الأرض الساطعة: الفن واختراع اللون)

Philip Ball

Farrar, Straus & Giroux, 2002, 384P, $ 27.00

مؤلف هذا الكتاب ليس فنانًا وإنما عالم بريطانى فى الكيمياء والطبيعة، ولكنه ينتمى إلى تلك الطائفة من العلماء الذين لديهم أسلوب أدبى وقدرة على الكتابة عن العلم بشكل يجذب جماهير القراء غير المتخصصين فى العلوم.

وفى هذا العمل «العابر للتخصص» يتحدث فيليب بول عن الأساس الفيزيائى لتطور فنون التصوير والذى يتلخص فى «اللون». فتاريخ الفن وإبداعات كل عصر من عصوره مرتبط بالألوان التى كانت متاحة فى ذلك الوقت للفنانين، وما تم التوصل إليه من خلال الابتكارات العلمية والتصنيعية.

■■■

Wild Health: How Animals Keep Themselves Well and What We can Learn from Them

(الصحة البرية: كيف تحافظ الحيوانات على صحتها وماذا يمكن أن نتعلمه منها)

Cindy Engel

Houghtoon Mifflin, 2002, 288P, $ 24.00

جمعت المؤلفة مجموعة هائلة من الملاحظات والدراسات المعملية عن كيفية معالجة الحيوانات لأنفسها من الأمراض، وذلك من خلال عملها كمحاضرة فى العلوم البيئية فى إحدى جامعات المملكة المتحدة.

•• فكر ••

تلك العتمة الباهرة

الطاهر بن جلّون

ترجمة: بسام حجار

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١

يقدم الأديب المغاربى الحائز على جائزة جونكور الأدبية الفرنسية ما يشبه الشهادة عن تجربته داخل سجن «تزمامارت»، وكيف أثرت هذه التجربة على حياته وأفكاره وإبداعه الذى يركز على الحريات السياسية ويتحسس حدودها وقيودها داخل الوطن العربى.

■■■

أعلام فى حياتنا

نعمات أحمد فؤاد

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

تخيَّرت الكاتبة مجموعة من رموز العلم والأدب والفكر المصريين لتتحدث عن دورهم فى الحركة التنويرية المصرية وإسهاماتهم فى إثراء وجدانها وتنمية ملكاتها النقدية ومنهم مصطفى لطفى المنفلوطى والمهندس حسن فتحى والدكتور محمد أحمد خلف الله والفنان حامد سعيد والشيخ محمد الغزالى.

■■■

رحلة فى فكر طه حسين

مجاهد عبدالمنعم مجاهد

القاهرة: دار الثقافى للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

لم يكن طه حسين مفكراً عاديًا، كان ظاهرة ونسيجًا وحده فى الثقافة العربية، ومثلت إسهاماته فى النقد الأدبى والفكر الدينى علامات مهمة فى مسيرة هذه الثقافة، وقد ملأت كتاباته الدنيا وشغلت الناس، خصوصاً كتابيه «فى الشعر الجاهلى» و«مستقبل الثقافة العربية» المؤلف يتابع عبر عناوين أربعة هى «انكسار الثورة العقلانية» و«جدل العقل العمل والتاريخ» و«النقد الأدبى والرؤية الجمالية» و«جدل الأدب والحياة» مسيرة هذا المفكر العملاق.

•• فكر دينى ••

المقدمة فى الصلاة على النبى

حسين أحمد شبل

القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ٢٠٠٢

سبعة عشر فصلاً عن أصل الصلاة على النبى وفضلها استنادًا إلى الآية الكريمة «إن الله وملائكته يصلون على النبى» ويتناول المؤلف الأحاديث الصحيحة الواردة فى الصلاة على النبى، ومعنى الصلاة الإبراهيمية وكيفية الصلاة علي النبي للحصول على أجرها كاملاً.

■■■

مشاكل الأقباط فى مصر وحلولها

نبيل لوقا بباوى

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠١

عشر مشكلات من وجهة نظر المؤلف تؤرق حياة الأقباط فى مصر أهمها إهمال الكنائس أو عدم وضع خطة واضحة لترميم القديم منها، وعدم التركيز على الحقبة القبطية فى التاريخ المدرسى، وكذلك تمثيل الأقباط فى البرلمان وفى الحكومة والمناصب الإدارية العليا، ويقدم المؤلف حلولاً لتلك المشكلات من وجهة نظره.

■■■

قـــــــراءات جـــــــديـدة

Why Religion Matters: The Fate of the Human Spirit in an Age of Disbelief

(أهمية الدين: مصير النفس الإنسانية فى عصر اللا إيمان)

Huston Smith

Harper San Francisco. 2000. 304PP.. $25.00

يؤكد هيوستن سميث وهو من أهم أساتذة الأديان المقارنة فى الولايات المتحدة على أهمية البعد الدينى فى الحياة الإنسانية سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات أوالحضارات. وهو يقسم التاريخ إلى ثلاث مراحل: المرحلة التقليدية والمرحلة الحديثة ومرحلة ما بعد الحداثة. وبالرغم من أننا نعيش فى مرحلة ما بعد الحداثة إلا أن سميث يرى أن المستقبل يجب أن يتجه إلى المرحلة التقليدية لأن الحداثة وضعت النفس الإنسانية فى نفق مظلم بالإصرار على مادية الواقع. يقول هيوستن: إن العلم.. أداة الحداثة، لم يُجب عن أسئلة الإنسانية الوجودية التى لخصها جوجان فى عنوان لوحته الشهيرة: «من نحن؟ من أين أتينا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟».

** فنـــــون **

الأنا - الآخر ازدواجية الفن التمثيلى

صالح سعد

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠١

مسارات عديدة سلكها فن التمثيل العربى يحصرها المؤلف، مشيراً إلى بداياته وتطوره عبر العقود وأهم الرموز التى قادت هذا التطور، والإسهامات المهمة لفن التمثيل فى المسرح والسينما واتجاهات مقارنة بمثيلاتها فى الغرب.

■■■

ثورة الحجارة

ألفريد فرج

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

سيظل نضال الشعب الفلسطينى البطل فى الأرض المحتلة ملهمًا لكثير من المبدعين فى طول الوطن العربى وعرضه، وفى هذا النص يقدم المؤلف مسرحية تجسد رؤاه لثورة الحجارة التى تواجه بشجاعة نادرة عنفًا أعمى تمارسه آلة عسكرية جبارة لا تتورع عن استخدام أساليب القتل والتنكيل.

■■■

ملامح التغيير فى القصص الشعبى الغنائى

إبراهيم عبدالحافظ

القاهرة: مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١

دراسة لأهم التحولات التى طرأت على فن الإنشاد الدينى والقص الشعبى، ودور العوامل الاقتصادية والثقافية والسياسية فى هذه التحولات، وتأثير تجارة الكاسيت على كساد هذا الفن وتتضمن الدراسة جانباً تاريخيًا يتتبع رحلة هذا الفن حتى اليوم.

■■■

Leonardo's Incessant Last Supper

(العشاء الأخير لليوناردو)

Leo Steinbery

Zone Books, 2001, (321P), $ 43.00

مؤلف الكتاب أستاذ فخرى بجامعة بنسلفانيا ومؤرخ فنى مشهور من خلال كتبه التى تنال قدرا كبيرا من اهتمام ومناقشة النقاد والدارسين. يتناول ستينبرج فى كتابه الأخير لوحة «العشاء الأخير» الشهيرة لليوناردو دافنشى محللاً مكانتها فى الفن الغربى والوجدان المسيحى. ومحللاً للمعنى الذى أراد ليوناردو أن يبرزه فيها، وهو الأمر الذى طالما كان مثار جدل طويل من جانب النقاد.

■■■

Churches

(الكنائس)

Judith Dupre

Mario Botta (Introduction)

Harper Collins, 2001, 160 PP., $ 35.00

الكنيسة عمل فنى يعكس عظمة موضوعه. وفى هذا الكتاب تقدم المؤلفة رحلة معمارية وفنية تضم ستين من أهم كنائس العالم. ما بين «البانثيون» فى روما إلى «العائلة المقدسة» فى برشلونة و«الكاتدرائية البلورية» فى كاليفورنيا. كذلك تضم الكنائس الجميلة التى شيدها معماريون معاصرون مثل فرانك لويد رايت وماريو بوتا، وكنائس أقل شهرة مثل «كنيسة فوق الماء» الواقعة فى هوكايدو باليابان.

يشمل الكتاب المعلومات التاريخية والدينية عن الكنائس التى يتناولها، وتحليل فنى يقدم بشكل بسيط للقارئ العادى بجانب طائفة كبيرة من الصور الفوتوغرافية البديعة.

** لـغـــــــة **

التصوير الطيفى للكلام

سعد مصلوح

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠١

دراسة فيزيائية لأصوات اللغة وتعريف بالأجهزة الحديثة التى يبتكرها العلماء لدراستها وفى مقدمتها الراسم الطيفى للأصوات والذى يسمى «المطياف» الذى كان له أثر كبير فى تطوير الدراسة الصوتية وربطها بكثير من المجالات العلمية والتطبيقية مثل هندسة الاتصال وتخليق الكلام وأمراض النطق والسمع وغيرها.

■■■

النحو للجميع

حافظ جلال

القاهرة: دار القلم، ٢٠٠١

تبسيط لقواعد النحو يجعل استخدامها يسيراً سواء لمن يحترفون مهنة الكتابة أو سواهم ممن يتعاملون مع القلم، وهى فكرة تابع المؤلف نشرها على مدى سنوات فى جريدة أخبار الأدب بالقاهرة.

** مذكرات وسير **

الخروج من النفق المظلم - معالم سيرة ذاتية

عبد العزيز المقالح

اليمن: دار العفيف الثقافية، ٢٠٠١

عن رحلة الشاعر والمفكر اليمنى أحمد حسين مروتى ونشأته فى مدارس اليمن وبعثته التعليمية فى بغداد وتأثيرها على فكره النضالى وحياته ومحاولاته الدائمة للتغيير ومشاركاته فى ثورات ١٩٤٨ و١٩٥٥ و١٩٦٢، وتقلده لمناصب قيادية ونضاله المستمر للنهوض بالشعب اليمنى حتى وفاته.

■■■

الدنيا أجمل من الجنة

خالد البرى

بيروت: دار النهار، ٢٠٠١

يروى المؤلف مذكراته فى السجن عندما كان عمره أربعة عشر عامًا والذى ألقى فيه بتهمة الانتماء للجماعات الإسلامية، والتحول الذى طرأ على روحه وفكره ونفسيته فى هذه السنوات الخمسة التى قضاها فى السجن.

■■■

ذكريات الأدب والحب

سهيل إدريس

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

يقدم صاحب «الحى اللاتينى» وناشر العشرات من الروايات والأعمال الأدبية الناجحة العربية والمترجمة، ذكرياته فى الأدب والحب التى لا يغيب عنها بطبيعة الحال البعد السياسى والاجتماعى.

■■■

Searching for Hassan: An American Family's Journey Home to Iran

(البحث عن حسن: رحلة عائلة أمريكية إلى إيران)

Terence Word

Houghton Mifflin, 2002, 366P, $ 23.00

فى عام ١٩٩٨ قامت عائلة «وارد» الأمريكية برحلة إلى إيران بحثًا عن طاهٍ إيرانى يدعى حسن كان يعمل فى منزلهم فى إيران عندما كانوا مقيمين هناك فى الستينيات.

يستخدم المؤلف تلك الرحلة خيطًا روائيًا ومن خلالها يتكلم عن التاريخ والدين والثقافة والسياسة فى إيران.

■■■

My Stroke of Luck

(ضربة حظى)

Kirk Douglas

Morrow, 2002, 208P, $ 22.95

تعرض كيرك دوجلاس وهو أحد ألمع نجوم هوليوود منذ الأربعينيات إلى أزمة قلبية منذ عدة سنوات أدت إلى عجزه عن الكلام. والآن وفى سن الرابعة والثمانين، يكتب دوجلاس عن رحلته فى العلاج وتماثله للشفاء، مستعينًا بذكرياته وأصدقائه ومن ضمنهم الرئيس رونالد ريجان والمطرب الراحل فرانك سناتر وأسرته فى التغلب على الاكتئاب الذى كاد أن يودى به إلى الانتحار.

■■■

Selkirk's Island: The True and Strange Adventures of the Real Robinson Robinson Crusoe

(جزيرة سلكيرك: المغامرات الحقيقية والغريبة لروبنسون كروزو الحقيقى)

Diana Souhamp

Harcourt, 2002, (248P), $ 24.00

استوحى دانييل ديفو رواية «روبنسون كروزو» الشهيرة التى ألفها عام ١٧١٩ من القصة الحقيقية لبحار سكوتلاندى يدعى ألكساندر سلكيرك.

هذا الكتاب يروى قصة هذا البحار الذى ولد فى أسرة فقيرة وحلم بالثراء الذى يجلبه السفر. فالتحق عام ١٧٠٣ وهو مازال فى الثالثة والعشرين بسفينة قرصان سيىء السمعة يدعى ويليام دامبير. وأثناء الرحلة الشاقة ومع فظاظة وقسوة القرصان تمرد سلكيرك عليه، مما جعلهم يتخلصون منه عن طريق وضعه وحيدًا على شاطئ جزيرة جوان فرنانديز التى تبعد مئات الأميال عن جزيرة شيلى. وهناك عاش سلكيرك أربع سنوات من العزلة قبل أن تنقذه سفينة تابعة أيضًا للقرصان دامبير.

** نقـــــد أدبى **

The Representation of Business in English Literature

(صورة النشاط التجارى فى الأدب الإنجليزى)

Arthur Pollard (editor)

Institute of Economic Affairs. 182PP. £12(pb)

فى بعض الأحيان صوّر الأدب الإنجليزى النشاط التجارى بشكل من التعاطف والإعجاب، ولكن فى معظم الأحيان كان الكتّاب يميلون إلى إعطاء النشاط التجارى صورة سلبية، وتظهر فى أعمالهم شخصية رجل الأعمال متصلة بصفات الفساد أو القسوة أو البخل والخلو من المبادئ. البحث عن السبب وراء هذه الظاهرة دفع «معهد الشئون الاقتصادية» إلى تمويل هذا الكتاب الذى يحتوى على مجموعة من المقالات التى تناقشها، ولكن الدراسات أكدت مخاوف المعهد الذى يسعى إلى تشجيع الاقتصاد الحر، حيث وجدت بالفعل أن معظم الكتّاب انتقدوا رأسمالية السوق باستثناء بعض الأعمال القليلة لماندفيل وشو وجون داير. كما أظهرت أن الهدف لا يكون فى الغالب مهاجمة شخصية رجل الأعمال كفرد، وإنما نقد المؤسسات والعمليات التى تتحكم فى توزيع الموارد فى المجتمع توزيعاً غير عادل.

ويؤكد مدير المعهد فى مقدمة الكتاب أن هؤلاء التجار هم الذين طالما وفروا الرعاية للفن والآداب. ويتساءل «لماذا يبصق الروائى على السوق ويحتقر مؤسساته.. ويسعى إلى عض اليد التى تطعمه؟».

■■■

بين عبد الوهاب وفريد الأطرش

لو امتد العمر بالفنانين الراحلين محمد عبدالوهاب وفريد الأطرش لشعرا بسعادة بالغة بشأن الجدل الذى دار على صفحات مجلة «وجهات نظر» فى أعدادها الأخيرة والذى بدأ بمقالة للأستاذ نبيل حنفى محمود ثم تعليق من الأستاذ إلياس سحاب، رأى كاتب المقالة الأصلية أنه يستوجب ذلك التعليق الذى نعتقد أنه كافٍ لإنهاء هذا الحوار.

المحرر

طالعت فى باب «رسائل» بعدد يناير ٢٠٠٢ من «وجهات نظر» رسالة السيد: إلياس سحاب التى تضمنت العديد من الملاحظات حول مقالى «فريد الأطرش.. نغم فى حياة العرب» والذى نشر بعدد أكتوبر ٢٠٠١، وإن أوضح ما شد انتباهى منذ أن طالعت السطور الأولى لتلك الرسالة هو مدى الحدة والنبرة المتعالية التى وسمت حديث كاتب الرسالة.

إن أغرب ما جاء برسالة الكاتب واسترعى انتباهى منذ قراءتى الأولى لها.. هو خلوها من ذكر أى مرجع أو مصدر يمكن لقارئها الركون إليه للتحقق مما طُرح بها من قضايا، إذ لم يكن هناك سوى إشارة عرضية إلى أرشيف أحد الهواة المنقطع الصلة بما جاء بمقالى، كان هذا فى مقابل ما ضمّه مقالى - موضوع هجوم الرسالة - من مصادر أثبتها فى ختامه، لكن ملاحظتى الثانية والأخيرة على هذه الرسالة تنطوى على ما هو أعجب، فقد تجنب كاتب الرسالة تمامًا مناقشة ما استعنت به فى مقالى من آراء لموسيقيين ونقّاد والتفّ حولها بحثًا عن قضايا فرعية خطط لعرضها فى رسالته، وبالرغم من ذلك.. فقد اخترت أن يكون الرد على ما جاء بتلك الرسالة من خلال تفنيد ما حوته من ملاحظات.. مستعينًا فى هذا بآراء أهل العلم بالموسيقى من علماء ونقاد، ولاعتقادى بأن ما قصد إليه الكاتب من رسالته هو الملاحظات الأربعة التى أوردها تحت مسمى «التحليل الفنى والقيم الثقافية».. فإننى سأبدأ بالرد على تلك الملاحظات الأربعة بعد أن أضم إليها ما أورده الكاتب عن قصيدة «عدت يا يوم مولدى» فيما أسماه بملاحظاته على معلومات مقالى المذكورة، وبعد ذلك.. فإننى سأعرض فى عجالة سريعة لما أثاره كاتب الرسالة من ملاحظات عن معلومات مقالى.

فى أولى ملاحظاته التى انصبت على دور فريد الأطرش فى تطوير الموسيقى العربية، يقول كاتب الرسالة بأن مقالى استهدف «منح حجم معين ودور معين لفريد الأطرش فى تطوير الموسيقى العربية جعله سابقًا لعبد الوهاب فى هذا المجال أو منافسًا وحيدًا له».. ويعيب كاتب الرسالة على مقالى أنه أهمل ما قدمه رواد عمالقة فى هذا المجال مثل محمد القصبجى ورياض السنباطى ومحمد فوزى وآخرين.. خاصًا الشيخ زكريا أحمد بملاحظة جانبية وضعها بين قوسين مفادها أننى أغفلت ذكره نهائيًا، والرد على هذه الملاحظة يبدأ بمناقشة ما قاله من أن مقالى قد منح فريد الأطرش دورًا فى تطوير الموسيقى العربية سابقًا لعبد الوهاب أو منافسًا وحيدًا له، والحقيقة أننى لست القائل بذلك وإنما أشرت فى مقالى إلى آراء منشورة لكل من د. رتيبة الحفنى وكمال النجمى. فى كتاب «محمد عبد الوهاب.. حياته وفنه» تقول د. رتيبة الحفنى فى الصفحة رقم «٨٩»: «كان فريد الأطرش منافسًا لعبد الوهاب الذى ابتعد عن المسرح والسينما وأصبحت ساحة الطرب خالية له، وكان لفريد شعبية كبيرة وكان الإقبال على أفلامه إقبالاً عظيمًا وهى التى كانت تضم أجمل الاستعراضات الغنائية الراقصة، وكان يخطو نفس خطوات عبد الوهاب: فى الاستعانة بالإيقاعات الغربية.. والاقتباس من الموسيقى العالمية، وبدأ عبد الوهاب يجارى فريد الأطرش وينافسه فى تقديم الأغانى القصيرة ذات الإيقاعات الغربية المرحة»، ولم يختلف ما قاله كمال النجمى فى الصفحة رقم «٨٠» من كتابه «الغناء المصرى - مطربون ومستمعون» عن هذا التنافس بين المطربين الكبيرين كثيرًا عما أوردته د. رتيبة الحفنى، كان التنافس الذى أشار إليه كل من د. رتيبة الحفنى وكمال النجمى يدور حول الاستعانة ببعض الإيقاعات الغربية فى تحديث الأغنية العربية، وهو ما لم يفعله بعض من أشار إليهم كاتب الرسالة طوال عمرهم الفنى (مثل الشيخ زكريا أحمد وأحمد صدقى ورياض السنباطى).. أو جاء إسهام البعض منهم فى ذلك تاليًا لما قدمه فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب (مثل محمد فوزى وكمال الطويل وآخرين)، ولقد أضافت د. سمحة الخولى «العميد السابق لمعهد كونسرفتوار القاهرة» إلى ذلك رأيها المنشور فى الصفحة رقم «٢٩٥» من كتابها «القومية فى موسيقا القرن العشرين» والذى قالت فيه: «فهى التى (أى الإذاعة المصرية) بلورت وكرّست تيارات التلحين الغنائى: المحافظة أو المعتدلة التجديد من جانب مثل ألحان زكريا أحمد والسنباطى والقصبجى والتى سحرت بها أم كلثوم بصوتها الفذ جماهير المصريين والعرب قرابة نصف قرن - أو التيارات «المغرقة فى التجديد» والأخذ السطحى من الغرب من جانب آخر، مثل فريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب ومدرسته الممتدة لعبد الحليم حافظ وغيره»، وهنا.. وإن كان رأى كل من د. رتيبة الحفنى وكمال النجمى محايدًا ومرحباً بتلك التجربة.. بينما كان رأى د. سمحة الخولى رافضًا لها ومنددًا بها، إلا أن الجميع اتفقوا على وضع فريد الأطرش جنبًا إلى جنب مع محمد عبد الوهاب فى هذا المضمار.. إن لم يكن سابقًا له، بل إن موسيقيًا كبيرًا كبليغ حمدى يرى أن: «فريد الأطرش كان مرشحًا - أكثر من غيره - للخروج بالموسيقى الشرقية من آفاقها المحلية إلى المجال العالمى» وذلك فيما طرحه من آراء فى كتاب «فريد الأطرش بين الفن والحياة».

فى ملاحظته عن عالمية ومحلية الموسيقى العربية.. (ينبه) كاتب الرسالة إلى خطورة مفهوم ربط قيمة أى إبداع موسيقى عربى بترديد الغربيين له، ولم يقل لنا ما هو المفهوم الصحيح لتقييم الإبداعات الموسيقية العربية، هل يتم ذلك بالانغلاق والانعزال - فى عصر العولمة - عما حولنا من موسيقات؟، إذن كيف يستقيم ذلك مع ما تحققه بعض الموسيقات القومية (كالموسيقى الهندية) من نجاحات عندما تغزو أسماع الناس فى الشرق والغرب على حد سواء؟، إن عالمية الإبداعات الفنية تكمن أساسًا فى انتشارها بين الناس فى مشارق الأرض ومغاربها، وإلا كيف كان العالم سيعلم شيئًا عن نجيب محفوظ قبل حصوله على جائزة نوبل دون انتشار أعماله وترجمتها إلى العديد من اللغات الحية؟

ثم كانت ملاحظة الكاتب عن عزف فريد الأطرش على آلة العود، فبعد أن أطلق قنبلة دخان تمثلت فى تشكيكه فيما ذكرت بمقالى عن منح فريد الأطرش جائزة أحسن عازف على آلة العود فى مسابقة أقيمت فى تركيا عام ١٩٦٢، فإنه ينتقل بعد ذلك إلى ما يريد الانقضاض عليه والانتقاص منه من ملكات هذا الرائد وهو مهارته غير العادية فى العزف على العود، يبدأ كاتب الرسالة هجومه بتعريف عناصر الموهبة عند عازف العود والتى تتمثل فى مقدرة كل من اليد اليمنى واليد اليسرى على تنفيذ المهام المطلوبة على أوتار العود، وبعد أن يقول: «إن القيمة الأساسية لفريد الأطرش، إنما تستند إلى القوة التقنية الممتازة فى يده اليمنى»، فإنه يعود ليسلب ذلك من يده - أى يد فريد - اليسرى التى يقول إنها: «المسئولة عن إظهار سعة الخيال الموسيقى وعمق الإحساس» ليؤكد أنها أقل فى مهارة العزف من يده اليمنى مما يجعل خياله فى التقاسيم محدودًا (!)، ويدلل كاتب الرسالة على ذلك بقوله: «بدليل أن هناك تشابهًا غريبًا من كل تسجيلات تقاسيم فريد الأطرش».

إن تفنيد ما أثاره كاتب الرسالة فى ملاحظته السابقة سوف يبدأ بالرد على تساؤله عن مصدر معلومة الجائزة التركية لأحسن عازف على آلة العود، وعن ذلك أقول.. لقد استمعت إلى نبأ تلك الجائزة حال منحها لفريد الأطرش فى عام ١٩٦٢ من إذاعات القاهرة وعمّان، وقد أوردها أيضًا الكاتب / عبد الكريم الجوادى فى كتابه «فريد الأطرش» الذى صدر عن كل من دار الكتاب العالمى ببيروت ومكتبة الاشتراكى ببغداد فى عام ١٩٩٢، ولكنى سأدع مهمة الرد على فرية «تقنية اليد اليسرى» هذه للمختصين، يقول الموسيقار بليغ حمدى فى الصفحة رقم «٦٦» من كتاب «فريد الأطرش بين الفن والحياة» عن حكاية أن خيال فريد الأطرش فى التقاسيم كان محدودًا: «إننى أذكر القارئ مبدئيًا بأن فريد الأطرش كان عازفًا بارعًا على آلة العود.. إن لم يكن هو أعظم عازف فى العالم العربى كله، ولأنه لم يكن مجرد عازف.. وإنما كان موسيقيًا وبالتالى فهو يفكر فيما يعزفه».

إن إعجاز عزف فريد الأطرش على آلة العود يتجلى فى عدد كبير من الأدوار المنفردة (الصولوهات) والتقاسيم التى ضمنها الكثير من أغنياته وسجلت فى كثير من جلساته الخاصة، إن التشابه الغريب الذى يقول كاتب الرسالة أنه لاحظه فى كل تسجيلات تقاسيم فريد الأطرش على العود.. إنما يرجع إلى أنه لم يستمع إلا إلى التسجيلات المتداولة لحفلاته والتى كان دائمًا ما يقدم فيها مقطوعة «أستورياس٦» نزولاً على رغبة جمهوره، ولكن تقاسيم فريد فى أغنياته الكثيرة كانت شيئًا مبتكرًا وعبقريًا، ولنضرب مثلاً هنا بتقاسيمه الشجية فى مقدمة تسجيله الأول لأغنية «أول همسة» والذى أذيع من إذاعة القاهرة فى ٦/٥/١٩٤٩.. وتقاسيمه الساحرة قبل مقطع «ساعة هَنَا.. لو تصفالك تنسى معاها الكون كله» من أغنيته الخالدة «ليالى الأنس»، من منا لم يستخفه الطرب حين يستمع إلى فريد الأطرش يعزف على العود اللحن الأساسى لأغنية «بنادى عليك» فى أحد مشاهد فيلمه «لحن الخلود»؟، كان هذا العزف مبهرًا حتى لقد بدا مميزًا على أداء الفرقة الموسيقية له، إن عود فريد الأطرش يعادل فى يده إمكانات فرقة موسيقية كاملة، وهو ما تشهد به تسجيلات العديد من أغنياته التى قدمها فى جلسات خاصة بمصاحبة عوده مثل «وياك - قلبى ومفتاحه - الربيع - عينيه مهما قالوا عنك وغيرها كثير».. حتى ليتمنى المرء لو أنه سجلها بعوده فقط.

فى ملاحظته الأخيرة التى ضمنها قسم التحليل الفنى والقيم الثقافية.. يقول كاتب الرسالة بأن «التوفيق لم يخن كاتب المقال كما خانه فى هذه المسالة بالذات»، وهو يعنى ما تضمنه مقالى عن «تمسك فريد الأطرش بالنطق الصحيح للغة العربية» والذى صوّره كاتب الرسالة ليصبح «مسالة تميز فريد الأطرش فى نطق الأحرف العربية»، ولعل القارئ يدرك الآن مدى عدم دقة كاتب الرسالة فى قراءة وفهم ما يكتبه الآخرون، فقد ذكرت فى مقالى «تمسك فريد الأطرش

بالنطق الصحيح للغة العربية»، ونقلها - لا فض فوه - لتصبح «مسالة تميز فريد الأطرش في نطق الأحرف العربية» وبالرغم من ذلك.. فإنني أقدم لكاتب الرسالة أدلتي على «تمسك فريد الأطرش بالنطق الصحيح للغة العربية» وأترك للقارئ أن يحكم بيننا. في حديث للأستاذ الدكتور/ أحمد كشك - أستاذ اللغة العربية وعميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة أدلى به لإذاعة «صوت العرب» في برنامجها المفتوح عصر يوم ٢٦/١٢/١٩٩٣.. تناول أستاذ اللغة العربية الخصائص اللغوية لغنائيات فريد الأطرش بالشرح والتحليل، وسوف أتوقف هنا عند واحدة منها وهي خاصية «المد» في اللغة العربية وكيف حافظ عليها فريد الأطرش في غنائياته وذلك في إطار تمسكه بالنطق الصحيح للغة العربية كما ذكرت في مقالي. يقول الدكتور كشك: «فريد الأطرش كان يملك في إطار غنائياته إدراكًا كاملاً بقيمة المد، باعتبار المد لديه قُفلاً لمقطع يستطيع أن يتحرك بصوته فيه، إن عذوبة فريد الأطرش في غنائياته تبين حقًا عندما يصل في جملته الأدائية إلى صوت المد، هنا يبدأ أو يظهر فريد الأطرش.. تُحسُ به في ختام المقطع.. في ختام قُفل الكلمة، فعلى سبيل المثال.. فريد الأطرش يغني في «بنادي عليك»: والحب من غير أمل.. أسمى معاني الغرام، عذوبة فريد الأطرش موجودة في حروف الألف الموجودة في نطق هذه الجملة، عندما يجد فريد واديًا لمساحات المد يتحرك حركة لا حصر لها، وبالتحديد في حرف الألف الموجود في كلمتيْ «معاني» و«الغرام»، مساحات المد لدى فريد لا يطرقها دون أن يستغلها الاستغلال الزمني الموسيقي الكامل». انتهى كلام الدكتور كشك وهو ليس مما يقرأ أو يكتب في «المجلات الفنية المزدانة بصور الفنانات الفاتنات» كما يقول كاتب الرسالة، وهل بعد ذلك يجيء إلينا من يقول بأن «الأداء الغنائي لفريد الأطرش هو الحلقة الأشد ضعفًا في سلسلة مواهبه الفنية المتعددة»؟. ولعله من المفيد أيضًا أن يطلع معي القراء على أحدث الآراء في أداء فريد الأطرش الغنائي وهو للأستاذ محمد الكحلاوي - مساعد رئيس تحرير جريدة «الصحافة» التونسية، وهو الرأي الذي جاء في مقال «هكذا انهارت دوائر الثراء في الأغنية العربية» بالعدد الحادي عشر من جريدة «الفنون» الكويتية والصادر في أول نوفمبر ٢٠٠١. يقول الأستاذ الكحلاوي واصفًا تجربة فريد الأطرش الغنائية: «مثل أغاني فريد الأطرش التي تجمع بين معاني الدراما والتعبير إلى عمق اللغة وتفرد الأسلوب».

كانت آخر ملاحظات كاتب الرسالة في مجال التحليل الفني - من وجهة نظري - عن ما تضمنه مقالي عن قصيدة «عدت يا يوم مولدي». يقول كاتب الرسالة بأنني حملت لحن القصيدة أحكامًا تأصيلية مطلقة على لسان كل من بليغ حمدي وكمال النجمي. ولم يناقش كاتب الرسالة ما قاله كل من بليغ حمدي وكمال النجمي عن القصيدة ونقلته عنهما موضحًا المصدر الذي نشرت به هذه الآراء، ليقول: «ولكن هل هو لحن وحيد في لونه، لم يلحن أحد قبله أو بعده، قصيدة لها هذه الصفات، كما يوحي الكاتب؟». ولست أدري من أين جاء كاتب الرسالة بهذا الحكم من أنني قصدت بما كتبت عن قصيدة «عدت يا يوم مولدي» أن أوحي بكل ما قاله، ولكن الحقيقة الواضحة من هذه النقطة وغيرها. أنه لا يستطيع أن يعقب على رأي منشور لموسيقار كبليغ حمدي أو لناقد كبير مثل كمال النجمي. وإنما يستطيع فقط أن يحرّف الحقائق ليمتشق كلمة ويدخل في معارك وهمية ما أشبهها بتنازلات دون كيخوت لطواحين الهواء.

يتبقى هنا أن أرد في عجالة سريعة على ما أطلقه كاتب الرسالة من دخان في أول رسالته حينما تحدث وأسهب في ملاحظاته على معلومات مقالي. ففي أول ملاحظتين وهما عن علاقة سيد درويش بمحمد عبد الوهاب ومكانة عبد الوهاب في عالم الغناء بعد رحيل سيد درويش في عام ١٩٢٣، فإنني أقول إن معلومات الجزء الأول من مقالي - والتي دارت حولها أول ملاحظتين لكاتب الرسالة - قد جاءت كلها من ثلاثة كتب «وليس من المجلات المزدانة بصور الفنانات» هي: «محمد عبد الوهاب - حياته وفنه» للدكتورة رتيبة الحفني - «محمد عبد الوهاب - مطرب المائة عام» لكمال النجمي و«السبعة الكبار في الموسيقى العربية المعاصرة» لفكتور سحاب، إنني لم أشر إلى هذه الكتب في ثبت المصادر بمقالي وذلك لهامشية المعلومة. ومع هذا فإن كاتب الرسالة يستطيع أن يرجع إلى الصفحة رقم «١٤٨» من كتاب فكتور سحاب «الذي هو في الأصل رسالة جامعية للحصول على درجة الماجستير في التاريخ» ليتأكد من أن محمد عبد الوهاب قد عمل في عام ١٩٢٣ مع سيد درويش في أوبرا كليوباترا التي ألفها أحمد شوقي، أما ما تضمنه كتابي د. رتيبة الحفني وكمال النجمي فقد كان توثيقًا لما قدمه عبد الوهاب في عام ١٩٢٣ من أغنيات ساعدت على انطلاقه لتحيل مكان سيد درويش بعد وفاته كما ذكرت د. رتيبة الحفني في الصفحة رقم «٢٢» من كتابها وكما أكده أيضًا الأستاذ النجمي في الصفحة رقم «٦٩» من كتابه.

في ملاحظته الثالثة على معلومات مقالي.. يقول كاتب الرسالة إنني قد خلطت بين جنسية الملحن يحيى اللبابيدي وبين جنسية الإذاعة الفلسطينية التي كان يعمل بها، ولست أدري هل أثرت جنسية يحيى اللبابيدي الأصلية أو موطن أسرته على كونه مؤلف وملحن أغنية «يا ريتني طير»؟. أما الملاحظة الرابعة والتي دارت حول تاريخ بعض أفلام أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، فقد نشأ الخلط فيها عندما فهم كاتب الرسالة من مقالي أنني أعني آخر ما مثل الاثنان من أفلام.. بينما كنت أشير إلى آخر ما قدماه من أفلام عند مطلع الأربعينيات.

انصبت الملاحظة الخامسة على أول من لحن دعوة غنائية للوحدة العربية، والتي يرى كاتب الرسالة أن هناك أغنيات كثيرة سبقت أوبريت «غناء العرب» لفريد الأطرش. وفي هذه الملاحظة.. فإن ما ذكره كاتب الرسالة من أغنيات كانت أغنيات مناسبات ولم تجسد الوحدة العربية بقدر ما جسدتها غنائيات فريد الأطرش التي جمعت اللهجات والإيقاعات والأزياء والأعلام في عمل واحد، وفيما يعد امتدادًا للملاحظة الخامسة.. جاءت الملاحظة الأخيرة عن أجمل أغاني الوحدة المصرية - السورية، وإنني أتحدى كاتب الرسالة أن يستوقف أي عربي في أية عاصمة عربية ليسأله عن اسم من تغنى بما ذكر من أغنيات إلى جانب اسم من تغنى بأغنيتيّ فريد الأطرش، فإن وجد عربيًا واحدًا يعرف أن فايدة كامل هي من تغنت في مناسبة الوحدة بأغنية اسمها «على الأحباب سلام الله».. فإنني سأعلن على الملأ خطأ كل ما كتبت في مقالي ولا أعود بعدها للكتابة أبدًا.

نبيل حنفي محمود
أستاذ مساعد بكلية الهندسة
جامعة المنوفية، وناقد موسيقي

بعد العاصفة

يزداد إعجابي دومًا بمجلتنا «وجهات نظر»، وخاصة كتابها الذين تعلمنا منهم الكثير، خاصة أنني عاشق للقراءة عن نضالات الشعوب من أجل حريتها، وقد أثارني مقال الأستاذ هيكل «السياسة بين الحلم والإرادة» في عدد نوفمبر الماضي، وأكتب إليكم عارضًا وجهة نظري.

لقد فعلت أمريكا ما فعلته من تشريد وتقسيم لأفغانستان مرتين، المرة الأولى: أثناء الغزو السوفيتي المساند لانقلاب كارميل، والمرة الثانية: أثناء أحداث سبتمبر واستطاعت اختراق المجتمع الأفغاني بأسلوبها المعهود في تقسيم الدول وأثارت الصراعات ونشرت بذور التعصب والتفرقة في مختلف الأوطان، وذلك ليس بجديد، فهو فعل متكرر من تلك القوى الاستعمارية، ولكن رغم تكراره لا أحد يعي الدرس ولا يتعلم أحد من التجربة، ولقد نجحت أمريكا في التربع في المنطقة كما تربعت سابقًا في الخليج وبدأت الصراعات على غنائم الحرب بين الكبار مبكرًا!

ونحن كعرب في معزل عما يدور وسنظل كذلك ما دمنا لا نتعلم من التاريخ.

لقد شهدنا تقسيم فلسطين وصمتنا بل وتعاونت نظم عربية في هزيمة الجيوش العربية وزرع الكيان الصهيوني ذلك الجسد الصديدي في كيان الأمة العربية. ولم ندرك أن إسرائيل امتداد للغرب. وتكرر نفس الموقف المتخاذل في غزو العراق وضربه المتكرر والذي يوضع اليوم في خطة أمريكا أضف إليها اليمن والسودان التي لن تنجو من تلك السياسات وإن اختلفت التكتيكات المستخدمة فدورها آت. ولكن بعد إحكام السيطرة على أفغانستان وإخضاع الشعب الفلسطيني في غرف التنازلات التفاوضية باسم السلام.

والحل للخروج من تلك الأزمة صعب ولكن ليس بالمستحيل فيجب علينا تدعيم ثقافة المقاومة بدلاً من ثقافة الاستسلام فالأمم التي تسقط وهي تقاوم تنهض ثانية أما الأمم التي ترضخ فلن تقوم لها قائمة. وهناك شواهد تاريخية تدعم ذلك وتشهد على نضالات الشعوب وتمسكها بالحلم.

عصام شعبان حسن تريك
أمين اتحاد الشباب التقدمي
أسيوط

مقالات الأستاذ هيكل

أحب أن أعرفكم أنني من أشد المعجبين بالأستاذ هيكل لأسلوبه الشيق ومعلوماته الوفيرة وخبرة السنين الطويلة والحرفية العالية في كل ما يكتبه وحتى لا أطيل عليكم فأنا موظف في البريد (ساعي بريد) ولكني ذو ثقافة عالية حيث لم أكمل تعليمي لأسباب اجتماعية ولكني أحب القراءة وأستعير كتبا من الأصدقاء.

وقرأت أن هناك كتابا جمع مقالات الأستاذ هيكل في مجلة وجهات نظر وهي المقالات التي كانت تحكي عن القذافي والملك الحسن ملك المغرب، والملك حسين ملك الأردن.

ومجلة «وجهات نظر» على ما أسمع في منتهى الروعة ولكني لا أستطيع شراءها لأن كل مرتبي ١١٠ جنيهات شهريًا. ولذلك أرجو التكرم بإرسال نسخة من الكتاب أزين به مكتبتي المتواضعة.

محمد حسن علي عطية
محافظة البحيرة - المعدية - مركز إدكو
الرقم البريدي: ٢٢٧٧٦

«وجهات نظر» سعيدة بهذه الرسالة وستقوم بإرسال كتاب الأستاذ هيكل إلى القارئ الكريم.

المحرر

نون

صورة «الأمريكاني» في العقل العربي!

لسنوات طويلة ظل الاهتمام العربي منصباً على تقصي الأسباب والأشكال التي تظهر بها صورة العربي في الخيال الأمريكي. وخرجت دراسات وأبحاث عديدة تحاول تفسير ما ينال هذه الصورة من تشويه وافتراء، تنعكس بصفة خاصة في الأدب والسينما ووسائل الإعلام بطريقة مثيرة. وتؤثر على وضع العرب والمسلمين في البيئة الأمريكية من خلال تعاملها معهم واحتكاكها بهم.. وبالأخص في أوقات الأزمات الحادة التي يتم فيها تعبئة الإعلام الأمريكي لحساب قوى الضغط المهيمنة في المجتمع الأمريكي. وكانت لتقلبات السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط دائماً تأثيرات عميقة على تشكيل صورة العربي والمسلم في الوعي الأمريكي، سواء حين يُراد تحسينها أو تقبيحها، وكان تقبيحها هو الغالب في معظم الأحيان.

ولعل الشعوب العربية قد شعرت بعد أحداث سبتمبر، بضراوة الحملة الأمريكية المتعمدة على صورة العربي أو المسلم. ليس فقط كما يعيش ويتحرك في إطار الثقافة الأمريكية، بل بصفة عامة في الرؤية الغربية للحضارة الإنسانية المعاصرة.. فاختارت أن تبحث عن أوجه الخلاف والتضاد بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، وأن تفسر ما وقع من هجمات إرهابية في أمريكا على أنها نتاج إخفاق العرب والمسلمين في اللحاق أو الالتحاق بالحضارة الغربية.. لا لسبب إلا لأن التركيبة التي تشكل هوية العربي المسلم، محكوم عليها، من وجهة نظرهم، بالتخلف والقصور والعجز، الذي سرعان ما يتحول إلى موقف عدائي ساخط من الغرب وإنجازاته وتفوقه.

ولم يكن من السهل رغم التخاذل الشديد الذي استقبلت به الحكومات العربية. حملات الافتراء والتشويه الغربية والأمريكية بصفة خاصة، أن تستكين جميع الأصوات والتيارات الرافضة في العالمين العربي والإسلامي. وكانت المفاجأة التي أفزعت الأمريكيين أنفسهم هي في السجال العنيف أحياناً الذي دار بين وسائل الإعلام الأمريكية ووسائل إعلام عربية، في محاولة لصد الحملات الأمريكية المغرضة، كشفت عن مشاعر عميقة من السخط وانعدام الثقة في «الصديق» الأمريكي، وأظهرت أن للأمريكي صورة أخرى في الوعي العربي شديدة القبح يصعب تجاهلها!

لا تحتاج صورة العربي في العقل الأمريكي إذن إلى الوقوف أمامها طويلاً.. العرب يعرفونها والأمريكيون والأوروبيون لا ينكرونها، بل يؤكدون عليها ولا يكفون عن إضافة الرتوش والملامح التي تبرزها وتثبتها في الذهنية الغربية. ولكن أحداث ١١ سبتمبر فتحت، بعد الصدمة الأولى، الباب أمام مناقشات حادة حول الأسباب التي أدت إلى سخط العرب والمسلمين على الولايات المتحدة الأمريكية وإلى تحول النظرة العربية إلى أمريكا في الاتجاه المعاكس، الأمر الذي أدى إلى ضعف التأييد والمساندة لأمريكا فيما تسميه حملتها ضد الإرهاب في معظم أرجاء العالم العربي.

ويعرف الأمريكيون عن يقين أن مصداقية أمريكا تكاد تكون قد طُعنت في الصميم. وزاد منها إصرار الحكومة الأمريكية والإعلام الأمريكي على تجاهل الأسباب الحقيقية لموجة العداء والكراهية التي ظهرت ضد أمريكا في العواصم العربية والإسلامية، فالأمريكيون ليسوا على هذا القدر من السذاجة. وهم يواجهون في واقع الأمر تاريخاً طويلاً من الشكوك وانعدام الثقة، جعلت صورة الأمريكي في الخيال العربي صورة مركبة الملامح تخفي وراء القسمات الناعمة قدراً من الخداع والقسوة، ما دام الأمر يتعلق بالحصول على منفعة ما. فكل شيء مباح ما دام يحقق فائدة أو مكسباً مضموناً. ومفهوم الصداقة بالنسبة للأمريكيين مفهوم عابر، يفقد مصداقيته واستحقاقاته بمجرد زوال الأسباب الداعية له.

ولم يكن غريباً أن يطلق تعبير «أمريكاني» في المصطلح العربي الدارج على كل سلوك زائف يعتمد على المظهر دون الجوهر، وعلى الغلو في الإبهار الذي يعمي عن الحقيقة، سواء في الحياة اليومية أو في السياسة أو في فنون السينما والمسرح. وهو ما جعل فنون الاستعراض تصل إلى ذروتها في أمريكا من حيث الأداء والتأثير.. لتنتقل بعد ذلك إلى عالم السياسة الداخلية والخارجية.. حيث تصبح الانتخابات الرياسية مسرحاً عالمياً كبيراً تمارس فيه تقنيات الإبهار والتأثير اللحظي ودغدغة الحواس، بهدف تحقيق انتصار كاسح على الخصم. مع توظيف عوامل الخداع البصري، والتفوق الشديد في وسائل الإعلام وجمع المعلومات وتشكيلها وتوجيهها، بما يضمن ترويج الأفكار والآراء والمعتقدات التي تخدم الأشخاص وليس القضايا.

هذه الصورة التي تشكلت «للأمريكاني» في العقل العربي، لم تتكون دفعة واحدة. بل تطورت وتفاعلت على امتداد نصف القرن الأخير من القرن العشرين. فلم تكن علاقة الولايات المتحدة بالعالم العربي حتى بداية الحرب العالمية الثانية واضحة المعالم أو وثيقة الروابط. وقد ظلت أمريكا في الخيال العربي حتى الخمسينيات هي أرض الفرص للمهاجرين العرب حيث «ينمو الذهب على أغصان الشجر». ومن الناحية السياسية كان تبني الرئيس ويلسون في عام ١٩١٩ لحق الشعوب المقهورة في تقرير مصيرها، من الأمور التي جعلت العرب ينظرون إليها كنصيرة لنظام عالمي جديد يقوم على الحرية وحق الشعوب في الاستقلال. وروّجت أمريكا لهذه المبادئ بقوة حين انضمت إلى الحلفاء ضد المحور في الحرب العالمية الثانية. وحين وضعت الحرب أوزارها بهزيمة المحور، كانت الآمال الكبيرة التي تجيش بصدور حركات الاستقلال العربية لوضع نهاية للاحتلال البريطاني، تتعلق بقوة على دور لأمريكا في مساعدة الشعوب المقهورة.

ولكن التفاعلات التاريخية التي تلت هذه الحقبة، شهدت سلسلة متوالية من خيبات الأمل، ونقض الوعود، والمؤامرات التي لعبت فيها أطراف دولية كثيرة أدواراً من الخديعة والنفاق وازدواجية المعايير. وكان أول شرخ كبير أصاب صورة أمريكا في الوجدان العربي كنصيرة للحريات وحق الشعوب في الاستقلال حين أعلن الرئيس ترومان اعتراف بلاده بإسرائيل في مايو ٤٨ بعد ١١ دقيقة من إعلان بن جوريون لتأسيسها. وسقطت بذلك قيم كثيرة، ظل العرب يعلقونها على السياسة الأمريكية. ومنذ هذه اللحظة دخلت العلاقات العربية الأمريكية نفقاً مظلماً من التراجع والارتباك وسوء الفهم، التي تداخلت فيها عوامل الإعجاب والبغض، والتقارب والتباعد، والصلح والخصام، والثقة والارتياب. حتى كانت حرب ٦٧ التي انحازت فيها حكومة جونسون بالكامل وصراحة مع إسرائيل. وتخلّت أمريكا نهائياً عن مرحلة الاعتدال والتوازن التي ميّزت عهد أيزنهاور، والتي حاول خلالها إثبات تمسك بلاده بمُثُل عليا لنظام أخلاقي دولي لا يولي اعتباراً للسياسات الحزبية أو لجماعات الضغط. ولم تتوقف السياسات الأمريكية بعدها عن الانحدار إلى حضيض الإذعان الصريح للنفوذ الإسرائيلي، الذي بدا وكأنه قد نجح في «اختطاف» الحكومة الأمريكية وإخضاعها لمصالح إسرائيل نهائياً.

تظل الصورة الأمريكية في العقل العربي، متعددة الأقنعة، ملتبسة الملامح، غامضة الوجوه. يصعب الركون إليها والوثوق بها. فهي في أفضل حالاتها تعبّر عن فطرة سليمة، تحترم القيم الإنسانية، وتدافع عن حق الفرد في الحرية والمساواة، وتتميز بالدفء والرغبة في التفوق والنجاح. وهي في أسوأ حالاتها تبدو شديدة الأنانية، مجبولة على المنفعة والانتهازية، قادرة على تطويع كل شيء لخدمة أهدافها، مغترة بقوتها، تضع يدها على الزناد وهي تتكلم.

وما بين الدفاع عن الحرية وحقوق الإنسان، وبين الدعوة إلى مكافحة الإرهاب، غلفت السياسة الأمريكية أهدافها، وغيرت أقنعتها، وبدّلت مبادئها الأخلاقية. وكان هذا التناقض في توظيف المبادئ سبباً في تضارب السياسات واختلافها من مرحلة إلى أخرى بحسب ما تمليه المصالح. وهو ما يفسر كثيراً من مظاهر الصعود والهبوط واضطراب المعايير في العلاقات الأمريكية العربية.

ولكن بينما يسعى العرب والمسلمون إلى استكشاف ملامح الصورة العربية في العقل الأمريكي، والعمل على تصحيحها وتحسينها وتبديد ما يلحق بها من سوء فهم أو سوء نظر، «استجداءً» لعلاقات أمريكية عربية متوازنة، بحكم ما يستشعره العرب من حاجة لما يسمى «الصديق» الأمريكي.. فإن الأمريكيين لا يعبأون كثيراً بالتعرف على صورة الأمريكي في العقل العربي، ومن ثم فهم لا يجهدون أنفسهم بالتعمق في استجلاء أسباب الكراهية والعداء التي انفجرت في وجه أمريكا أخيراً.. وحين أقلقتهم هذه الظاهرة، فلم يكن الهدف من محاولات تحسين صورة أمريكا أمام العرب والمسلمين هو تلافي الأسباب، بقدر ما كان تحقيق أهداف نفعية عاجلة تمثلت فيما أطلق عليه تشكيل «التحالف ضد الإرهاب». ومن ثم لم تجد تصريحات بوش من يصدقها عندما تحدّث عن عدم العداء للإسلام، ولا عندما التقى بالأطفال المسلمين في المركز الإسلامي في واشنطن، ولا في تصريحات المسئولين أمام شبكات التليفزيون العربية.. فقد اعتبرها العرب والمسلمون مجرد لعبة «أمريكاني»!!

سلامة أحمد سلامة

مكتبة الشروق الدولية

بعرض خاص للمجموعة
(ثلاثة أجزاء) ٥٠ جنيها





فى معرض القاهرة الدولى للكتاب بجناحنا بالعرض المكشوف

وبالمكتبات الكبرى ولدى بائعى الصحف والمجلات

السعر	المؤلف	اسم الكتاب	م
٣٦	شيخ الأزهر/د.محمد سيد طنطاوى	الفقه الميسر ١-٣	١
١٨	د. چيفرى لانج	حتى الملائكة تسأل - قصة الإسلام فى امريكا	٢
٢٠	د.زغلول النجار	من أيات الإعجاز العلمى فى القرآن ١-٣	٣
٨	د. مراد هوفمان	خواء الذات والادمغة المستعمرة	٤
١٨	د. مراد هوفمان	الإسلام فى الألفية الثالثة	٥
٦٩	نخبة من المفكرين	الإمبراطورية الأمريكية ١-٣	٦
١٥	نخبة من المفكرين	قارعة سبتمبر	٧
١٨	رضا هلال	المسيح اليهودى ونهاية العالم - الطبعة الثانية	٨
١٠	كريستيان تشيرفيلز ترجمة د. زين نجاتى	نابوليون والإسلام	٩
١٦	عاطف الغمرى	الأمريكى التائه فى الشرق الأوسط	١٠
١٥	ترجمة د.عصام فايز/ د.ناهد وصفى	الدين والسياسة فى الولايات المتحدة	١١
٢٠	د.محمد خاتمى رئيس جمهورية إيران	الدين والفكر فى فخ الاستبداد	١٢
١١	حنفى المحلاوى	ابتلاء الأنبياء	١٣
١٦	ترجمة / لطيف فرج	عالم بلا سيادة	١٤
١٢	د.صلاح زين الدين	تكنولوجيا المعلومات والتنمية	١٥
٨	أحمد عثمان	قصة الحضارة الفرعونية	١٦

مع مجموعة من المصاحف ومصاحف التجويد
وأمهات كتب التراث والكتب الأكاديمية والقواميس

خصومات تصل إلى ٤٠٪

سعر خاص للمجموعة ١٥ جنيها



٤ ش السعادة - أبراج عثمان - روكسى - القاهرة تليفاكس : ٢٥٦٥٩٣٩ - ٤٥٤٤٤٦٧ - ت: ٤٥١٩٦٢٨
كوالالمبور - چاكارتا - لوس أنجلوس